هدى النعيمي
HUDA AI NAEMI

زعفرانة

رواية

مكتبة نوميديا

الدار المصرية اللبنانية
دار الوتد
DAR AL WATAD

زعفرانة

■ **الكتاب: زعفرانة**
■ **اعداد: هدى النعيمي**
■ **الطبعة: الأولى 1445 هـ / 2024 م**

بطاقة فهرسة :

النعيمي، هدى
زعفرانة.
ط 1.- الدوحة: دار الوتد، 2024.
304 ص؛ 14,5 X 21,5 سم.
أ - القصص العربية - قطر
ب - العنوان: 813
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2024/111
ردمك: 978-9927-165-31-3

© **جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة**

DAR AL WATAD
Qatar - قطر

هاتف: 0097444792946 - 0097466199101
موبايل: 0097466199121
ص.ب.:22922 الدوحة، قطر.
info@daralwatad.com
www.daralwatad.com

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

ولا يجوز طباعة هذا الكتاب أو تصويره أو نسخه بأي صورة من الصور، التوصيل، التوصيل المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي. لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو تحريره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، **إلا بإذن خاص ومسبق من الدار.**

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب ومضمونه تعبّر عن رأي الكاتب وعلى مسؤوليته

زعفرانة

هدى النعيمي

الدار المصرية اللبنانية

دار الوتد
DAR AL WATAD
Qatar - قطر

تنويه:

شخوص وأحداث هذه الرواية جميعًا محض الخيال،

وأي تشابه بينها، وبين الشخصيات، والأحداث الواقعية،

إنما هو من قبيل الصدفة البحته، ولذا وجب التنويه

هدى النعيمي

المحتويات

الفصل الأول: مريم.. طفلة الذخيرة........................ 7

الفصل الثاني: زعفرانة.. فتاة الذخيرة........................ 21

الفصل الثالث: زعفرانة اليوم.. وريثة الاسم 41

الفصل الرابع: مريم.. تحكي من جديد 57

الفصل الخامس: زعفرانة والجبل.................................. 73

الفصل السادس: زعفرانة وخيوط الحكاية الظفارية 89

الفصل السابع: مريم تخرج من الذخيرة 107

الفصل الثامن: زعفرانة الأم.. 125

الفصل التاسع: على الساحل الإفريقي............................ 143

الفصل العاشر: مريم وأوراق الرزنامة 161

الفصل الحادي عشر: زعفرانة بعد شهلا ويعرب.................. 177

الفصل الثاني عشر: زعفرانة تبحث عن زعفرانة.................. 195

الفصل الثالث عشر: شهلا.. من الجبل إلى الجبل................ 213

الفصل الرابع عشر: يعرب وقصة الحب في القاهرة 239

الفصل الخامس عشر: صالح على ساحل إفريقيا 257

الفصل السادس عشر: ذيب يرسم البداية 275

الفصل الأوّل

مريم.. طفلة الذخيرة

تلك هي أنا، تلك الطفلة التي تلعب حافية القدمين على شاطئ الذخيرة، تلك هي التي صار الأحفاد يأخذونها بسيارات فاخرة إلى حيث بقايا البيت، وبقايا الجدار القديم، إنها أنا التي جُرحت قدمها بزجاجة مكسورة محشورة بين صخور الشاطئ، شعرت حينها بحرقة المياه المالحة من خلال الجرح في البداية لكن ذلك لم يمنعني عن متابعة الفتك بالسلطعون الصغير الذي يتقن فن الاختباء، حتى أن أصابع يدي جُرِحت يومها من الصخور الحادة التي قلبتها بحثًا عن السلطعون السريع، أراه يهرب خوفًا من يدي، ويدي تهرب من الإمساك به، يخاف من يدي بقدر ما أخاف من عضة فكيه المفتوحين على اتساعهما، خوفنا المتبادل لم يمنعني من الجري وراءه، ولم يمنعه من الالتفات نحوي، ورفع فكيه في وجهي دفاعًا عن حياته.

الموجة المالحة حملت السلطعون بعيدًا عني، وازدادت حرقة الملح على جرح قدمي، وزاد خوفي من ارتفاع الماء على الشاطئ أكثر من فك السلطعون الهارب، عدت أدراجي بالقفز على الصخور الحادة، والمؤلمة، وقطرات الدم المنسكب من القدم المجروح

تلون الصخور للحظات قبل ان ينسحب اللون الأحمر بموجة تلوها موجة، تلوها موجة.

وكأنني لا أسمع أمي شيخة، وهي تعنفني كعادتها من المشى حافية على صخور الشاطئ، لكن المشي الحافي مسموح به بين الأزقة، والمشي إلى بيت خالتي لأطلب منها شيئًا مما يتطلبه غداء اليوم لأنه نقص من مطبخنا. تعنفني أمي شيخة، وتنهاني عن المشي حافية بين الصخور لأنها تسبب الجروح، والجروح ربما لا تندمل إذا كانت الزجاجة قذرة بما يكفي لتسبب الأكثر من الأذى، "لا تفعلي ذلك أبدًا" كانت تقول ذلك، وهي تفرك أوراق **المشموم** الخضراء التي قطعتها سريعًا من **حوش البيت،** فركتها بين راحتي يدها حتى أخرجت عصارة سوداء اللون، وعصرت تلك العصارة فوق الجرح مباشرة، فصرخت من الحرقة التي تفوق حرقة الماء المالح على الجرح، ولكنها لم تكتف بذلك، فهي ما تزال تعصر المشموم الذابل فوق الجرح، وتدق بالأوراق الذابلة عليه، ولا تعير صرخاتي المستنجدة شيئًا من اهتمامها، كما أنني لا أَعير توصياتها اهتمامًا، بعدم المشي حافية على صخور شاطئ الذخيرة.

كنت أعرج في طريقي إلى بيت خالتي عائشة في طرف الحي الآخر، ألبستني أمي نعالاً واسعة، نعالها تتسع لقدمي، والقماش الملفوف عليه، فالمشموم المعصور لا تنتهي مهمته عند إخراج العصارة منه، لكنه يثبت على الجرح، ويُلف بقماش نظيف، أو شبه نظيف، ويُربط لساعات قليلة كي نضمن دخول كل العصارة الداكنة

إلى الجرح المفتوح، ولم تفشل تلك الطريقة العلاجية في التعامل مع الجروح أبدًا، وربما فشلت، ولم أعلم، ولا أحد يعلم لكنني صبرت على حرقة العصارة المشمومية الداكنة على الجرح، وعلى لف القماش شبه النظيف على قدمي، وارتداء نعال أمي الواسعة، والمشي عرجًا إلى بيت خالتي عائشة، وأنا أصب كل الغضب على السلطعون الهارب الذي لم يصبني من اللحاق به إلا ألماً، وتوبيخًا من أمي.

أُحب خالتي عائشة، أشعر بها أكثر حنانًا من أمي شيخة، تزوجت رجلاً يكبر والدها في العمر، طيبًا وكريم النفس، كثيراً ما أراه يعاملها كابنته، وليس كزوجة، كثيراً ما استعدت صورًا قديمة لخالتي عائشة مع زوجها خليفة، أدركت لاحقًا كم كانت معه ابنة أكثر من أن تكون زوجة، ولم أسمع منها كلمة شكوى من الحال، أو من الزوج حتى رحلت بعد اليوم الذي وصلت إلى بيتها فيه، وأنا أعرج، بثلاثين عامًا.

لم تنجب خالتي أطفالاً وكانت ترد على تساؤلاتي، وربما تساؤلات الآخرين حول عدم إنجابها بكلمة واحدة "إنها إرادة الله" وهي إرادة الله أيضًا التي أوصلتني إلى بيتها بعرج في قدمي، وحرقة على الجرح، ونعال واسعة، وكعادتها احتضنتني وأجلستني على البساط الأرضي، ووضعت خلف ظهري مسندًا من القطن، وآخر رفعت به قدمي الصغيرتين حتى لا يستمر الدم في السيلان أو التدفق، فتحت القماشة الملفوفة على المشموم، وغسلت

الجرح بماء دافئ فشعرت بالانتعاش، وحنان الأم، ثم أعادت لف قدمي بقماش أكثر نظافة، وقدمت لي كوب حليب ساخنًا، من حليب العنزات التي تربيها خلف فناء بيتها، شربت اللبن، واستمتعت بالاستلقاء على المسند القطني خلف ظهري، وتحت قدمي، وكدت أنسى ما أرسلتني أمي من أجله، حتى سألتني خالتي بشكل مباشر.

- أمي تقول لك أنها ستنتظرك غدًا صباحًا لتذهبا معًا لحضور **دزة** حمدة بنت عبد الرحمن في بيت أم جابر، تقول لك أمي لا تنسي.

كُنتُ رسالة، أو "مسج" بلغة يومكم هذا، عصارة المشموم الحارقة، والقماش الملفوف على قدمي، ونعال أمي الواسعة، والعرج من طرف الحي إلى طرفه الآخر، كانت "مسج" تذكير لخالتي عائشة ألا تنسى المرور على بيتنا لمرافقة أمي إلى بيت أم جابر جارتنا، لحضور دزة ابنتها حمدة، التي تكبرني ببضع سنوات، لكنها قبل أيام كانت تلعب معنا في الزقاق القريب من بيتنا، وبيتها، بدأت قبل فترة تلبس **البْخنْق**، لكننا كنا نراها تشتري الخبز في عصر كل يوم من الخباز الإيراني الوحيد في الذخيرة، لم يمنعها البخنق من لعب **الخشيشة**، أو لعبة الاستخباء مع باقي فتيات الحي.

فقط في الأيام القليلة الماضية لم أرها أمام دكان الخباز كالمعتاد، ولم أرها تجر البخنق الطويل، والثقيل وراءها، وهي تحمل أقراص الخبز الساخن إلى بيتها، فقط اليوم عرفت من أمي شيخة، أن حمدة

عروس تتجهز للزفاف إلى عريسها قريبًا جدًّا، لم تكن أمي لتخبرني بهذا، فهذا ليس شأن الصغار من أمثالنا، لكنها الرسالة/ المسج التي أُرسلت بها إلى بيت خالتي عائشة، هي ما دعاني إلى الوعي بأن حمدة لن تنتمي بعد اليوم على عالم الصغار؛ عالمنا، ولن تشتري الخبز، وغالبا سوف تلبس عباءة سوداء تغطي كامل جسدها مثل أمي، وخالتي وأم جابر، عرفت من الرسالة التي حملتها عرجًا إلى بيت خالتي، أن حمدة ستصير عروسا ثم زوجة، ثم أما ثم جدة، تماما كما حدث مع أمي، وكما سيحدث معي في يوم ما.

طلبت مني خالتي أن أقضي ليلتي في بيتها، هذا جُل ما تمنيته خلال رحلتي إلى بيتها، إن لم أعد إلى بيتنا الليلة، فأمي وأبي يعلمان أنني بين أيدٍ أمينة، قضيت ليلتي تلك في بيت الخالة، أنام على فراش نظيف، تفرشه الخالة لضيوفها من أبناء أو بنات أختها / أمي، زوجها خليفة، يفرح جدًّا إذا جاء أحد الأقارب من الأطفال لقضاء ليلته في بيته، أولاً يطلب من زوجته إكرام الضيف الصغير بعشاء فاخر، خبز، وبيض مقلي، وعلبة من القشطة، يأتي بها من الدكان القريب، خصيصًا للضيف الصغير، يقضي أغلب الوقت تلك الليلة في اللعب مع ضيفه الصغير، أو ضيفته/ أنا، يحكي نفس الحكايات التي سمعها من أُمه، أو جدته، نفس الحكاية، تتكرر كل مرة أقضيها عند خالتي، والغريب في الأمر أنني لا أمل سماعها من زوج خالتي خليفة، حتى يغلبني النعاس، فيشد على جسدي اللحاف، وهو يذكر اسم الله ويتمتم بآيات من القرآن.

إنها أنا، تلك الصغيرة التي كبُرت يوم جاء خاطب كما جاء خاطب لحمدة، لم أتأخر كثيراً بعد زواج حمدة، حتى رأيت أمي بشوشة، وهي تنظر لي، ثم تتحدث مع أختها عائشة بصوت خفيض، وعائشة تهز رأسها، وتقطب حاجبيها علامة تعجب، أو ربما علامة رفض، وما همي أنا، ما دمت سأخرج في الصباح - دون نعال - ألاحق السلطعون الصغير المختبئ بين الصخور، في ذلك الصباح، جمعت ثلاثة سلطعونات صغيرة، حبستها في علبة صفيح صغيرة، مما أجده مُلقى على الشاطئ، أظنها كانت علبة معجون طماطم من تلك العلب التي تعودنا على الطبخ بها فيما بعد، ولكن حتى ذلك اليوم لم تكن أمي وخالتي تستخدمان تلك العلب غالية الثمن، ولا نعرف ماذا تحتوي بداخلها، حبست ثلاثة سلطعونات داخل العلبة، وجئت بها إلى داخل البيت دون أن تدري أمي، هذه العلبة سوف تكون مقلبي القادم لنورة ابنة الجيران، التي تتباهى أمامنا دومًا أنها ستقضى أيام العيد القادم في بيت عمها في الدوحة، لا أدري إذا كانت الدوحة بعيدة، أم قريبة، لأني لم أزرها قبل الآن، نورة ستتفاجأ بثلاثة سلطعونات صغيرة أمام عتبة بيتها عصر اليوم، عندما تخرج لشراء الخبر من الخباز الإيراني.

ولأن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن - كما تعلمت لاحقًا - منعتني أمي من الذهاب إلى دكان الخباز، وكعادتها لم تبرر أمر المنع هذا بل إنها لبست عباءتها السوداء، وضعتها على رأسها، وألقت على وجهها قطعة قماش سوداء أخرى، أكثر شفافية، وتسمح بالرؤية من طرفها هي فقط، وذهبت بنفسها لشراء الخبز

اليومي، وتركتني أبحث عن سبب وجيه لمنعي من الخروج اليوم، عدت إلى السلطعونات المحبوسة في علبة الصفيح، وجدتهم ما يزالون في حركة، ولكنها أبطأ من حركة الصباح، ألقيت لهم قطعة خبز صغيرة من فتات عشاء البارحة، وأعدت غطاء العلبة بإحكام، حتى لا تخرج السلطعونات أمام أمي وأبي، فيكون ما لا يحمد عقباه.

في الصباح التالي كانت علبة الصفيح هي أول ما أطل عليه بعد أن ذهب النعاس، أمسكت بالعلبة، وقربتها من أذني، فلم أسمع خربشة السلطعونات على جدار العلبة كما بالأمس، فتحت العلبة بهدوء، وجدت ثلاث قطع يابسة، كانت بالأمس سلطعونات مليئة بالحركة، والنشاط، ماتت السلطعونات الثلاثة دفعة واحدة رغم أنني وضعت لها قليلاً من الماء، وبعض الخبز، كي لا تموت، لكنها ماتت، ولم أستطع أن أُخبر أمي بقصة سلطعوناتي الصغار.

كانت أمي تنظف البيت بشكل غير معتاد، ومعها خالتي عائشة التي حضرت منذ صباح اليوم، كانت تنظر لي، وتتنهد، عرفت بعد أزمنة طويلة، أن حزني ذلك اليوم على السلطعونات، وتنهيدة خالتي لم تكن إلا بداية لأسئلة أكثر تعقيدًا من سبب موت السلطعونات، وأكثر ترهيبًا من مشهد جارتي نورة، لو أنها شاهدت السلطعونات على عتبة باب بيتها، تلك هي بدايتي بعد حمدة بعدة شهور فقط، لربما بعد حمدة بعام، أو أكثر، لا أتذكر.

لم تكن أمي تشاركني الحديث في أي من الأمور الحياتية، كل شيء يخص الكبار، وحتى عندما جاء الخاطب الغريب، ظل الأمر

سرًا، فليس للفتاة شأن في أمر زواجها، إنما أبواها يقرران متى تتزوج، وعندما يوافقان على الخاطب، فليس لها إلا أن تُذعن، وتُزف إلى الرجل الذي اختاره لها الوالدان، وربما العائلة، كل ما قامت به أمي ذلك اليوم أنها ضاعفت المجهود في تنظيف البيت، وحبستني في إحدى الغرف دون سبب وجيه، إلا أن خالتي عائشة كانت تطل عليّ بين الحين والحين، تنقل لي تحيات زوجها السيد خليفة، وأنه ينتظر متى آتي إلى بيتهم ليحكي لي نفس الحكاية، ثم نضحك كثيراً، أنا وخالتي عائشة.

تغيرت تعاملات أمي منذ أن عادت من دزة حمدة، تتهامس كثيراً مع أختها عائشة، ومع الجارات حين يزرنها، أو تزورهن، كثرة الوشوشات توحي أن في الأمر علة، وقد ظلت الجارات في حراك غير اعتيادي من الزيارات الصباحية والمسائية.

وأما نحن الفتيات الصغيرات / الكبيرات، فكنا أيضًا نتبادل أخبار أمهاتنا، ونتعجب لأمر هذا الحراك الغريب بين نساء قريتنا "الذخيرة" حتى جاءت - قبل مجيء الخاطب - إلى بيتنا أم يعقوب، السيدة التي تكبر أمي، وربما هي في عمر جدتي التي لم أرها، جاءت أم يعقوب التي تسكن طرف القرية البعيد، يلزمها ما يقدر بنصف ساعة من المشي على القدمين لتصل إلى بيتنا، وربما يزيد الوقت، أو يقل عن ذلك، وقد رحبت بها أمي ببشاشة، ولطف، وقامت فورًا لإعداد القهوة العربية لأم يعقوب، وقدمت معها صحنًا من التمر الذي لا يخلو منه بيتنا، إن صيفًا أو شتاء.

أرسلتني أمي إلى بيت الجارات أم نورة، وأم جابر لأدعوهما إلى بيتنا، وأخبرهما أن أم يعقوب هنا، وأنها لن تتأخر، وما أن أُوصل الرسالة لإحدى الجارات، حتى تهرع للبس عباءتها، وتأتي معي فورًا، أما أم جابر فقد ضربت حائط الجيران بيدها مرتين، لترد عليها الجارة الأخرى، وتسأل ما الحكاية، أخبرتها أم جابر بأمر الضيفة التي في بيتنا، ثم وجدت فجأة أن خمسًا أو ستًا من الجارات قد لحقن بي إلى بيتنا، دخلت الواحدة تلو الأُخرى، رحبن بأم يعقوب، ورحبت بهن، وجلسن، يرتشفن قهوة أمي، وحكاية أم يعقوب.

- نعم إنها هي.

قالت أم يعقوب، وأنا أتجه إلى الغرفة الجانبية من البيت بحسب تعليمات أمي.

- اذهبي إلى غرفة الضيوف، واجلسي هناك حتى أناديك.

لم يكن لي إلا أن أُطيع أمر أمي، فخلاف الطاعة غير وارد في معجم الكلمات التي نتحدث بها لكنني تمتعت ببعض الفضول، الذي أنجح أحيانًا في إبقائه سرًا عن أمي، كما أبقيت علبة الصفيح، والسلطعونات، سرًا، حتى ماتت السلطعونات، فدفنتها – سرًا أيضًا – وراء فناء البيت، فلم تعلم أمي، ولا أبي بمصيرها المأساوي.

أعانني الفضول على استراق السمع لحديث أم يعقوب، والجارات من حولها، ولا أعرف ماذا تقصد عندما قالت إنها "هي" ولأن أمي، أو خالتي لن تخبراني من "هي"، فلربما أعرف بعض الحكاية من

خلال الهمس الذي ما لبث أن علا دون أن تشعر السيدات بصوتهن الذي يتعالى، وهذا ما جعل استراق السمع أمرًا سهلاً لي.

أمي: تلك العجوز المغطاة بعباءتها القديمة.. هي؟ هي يا أم يعقوب؟

أم جابر: هل من المعقول أن تعود بعد كل هذه السنين؟

أم نورة: لا يمكن طبعا... لقد سمعت أنها ماتت منذ زمن بعيد.

جارة: نعم أنا أيضًا قد سمعت أنها ذهبت إلى اليمن، مع ذلك الرجل، وأنها ماتت، ودُفنت هناك.

جارة أُخرى: ذهبت معه، نعم، ولكن ليس إلى اليمن، وإنما إلى الجبل الأخضر، هناك، كما تعلمون... اللهم احفظنا.

أمي: سمعت حكايتها من أمي رحمها الله، قالت إنها تعرفها، وهي صغيرة، كانت شابة عندما كانت أمي طفلة كما حكت لي.

أم نورة: كيف يا أم محمد، إنما والدتي ووالدتك ولدتا بعد خروجها من الذخيرة، حتى أن بيت الزعلان ظل مغلقا لسنوات، لا أحد يزورهم، ولا يزورون أحدًا، إلى أن نسي الناس تمامًا، حكاية فتاة الزعلان المدللة التي اختطفها الجن، والله أعلم.

أمي: لا يا عزيزتي، أمي حكت لي شيئًا من الحكاية، ولم تكن تحب أن تحكي قصتها، ولكنني كررت السؤال عندما ردد الصياد أُغنيته الشهيرة، الأغنية التي يرددها الصيادون، وهم يسحبون الشباك:

زعفورة أخذها الجان

زعفورة راحت لعمان

زعفورة تحب عبيد
زعفورة ثوبها جديد

تضاحكت أمي مع جاراتها، بعد أن غنت الأغنية التي أسمعها لأول مرة من أمي، ولم تتجاهل أمي جواب سؤالي عندما فاجأتها بحفظي لأغنية لا تحبها، ثم إنها ذكرت ملمحًا من الحكاية على مضض.

أم جابر: ماذا يا أم يعقوب؟ ماذا تخبريننا عن حكايتها؟ هل هي فعلاً.. تلك المرأة الغريبة التي رأيتها يوم الدزة؟

أم يعقوب: إذا أعطيتموني فرصة سوف أحكي ما أعرفه، أنا في عمر والدتك يا أم محمد، نعم أنا ووالدتك قد عرفناها صغارًا، كنا في الرابعة، أو الخامسة من العمر، بينما "هي" فتاة فارعة الطول، جميلة جدًّا، لا نستطيع إلا أن ننظر إليها مليا من فرط جمالها، لم تكن تخرج من بيتها إلا قليلاً جدًّا، نحسب أنها سوف تحجب الشمس إذا طلعت نهارًا، وأن لا حاجة للقمر إذا خرجت ليلاً، دومًا كانت تلبس ذلك الثوب الأخضر، كأنها لا تملك سواه، وربما لا تملك سواه، يوم لبست العباءة السوداء فوق ثوبها الأخضر، لم نكن نحن فقط من حزن على فقدان الفرصة لرؤيتها تتبختر في دلال، وطلعة بهية بين البيوت، وهي تذهب إلى المطوعة في النهار، وتعود قبل صلاة الظهر إلى بيت عمها، ثم لا تخرج منه إلا في نهار اليوم التالي، بينما بعض الصبية في الحي، يطوفون حول البيت، على أمل أن تخرج، أو أن تطل من نافذتها على الساحة التي أمام بيتها، لكنها لا تفعل ذلك أبدًا.

أم جابر: بيت عمها؟ ولماذا ليس بيت والدها؟

أم يعقوب: عرفنا فيما بعد أنها كانت يتيمة الأب والأم، وقد صار العم وصيًا عليها، سمعنا أنه كان لها من الأملاك بعض المزارع، وتجارة الخشب.

أم نورة: لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف تيتمت المسكينة، وهي في هذه السن الصغيرة؟! لكن ربك لا ينسى عبيده.

أم يعقوب: كل ما أعرفه، أو عرفته من أمي بعد خروجها من الذخيرة، أنها كانت يتيمة الأب والأم، ولا أعرف أكثر من ذلك، فبعد خروجها من القرية، توقف الحديث عنها، نحن الصغار كنا نسأل، والكبار ينهروننا عن تلك الأسئلة، وكأن أهل القرية جميعًا قد اتفقوا على نسيان اسمها، ومحو ذكرها من تاريخ قريتهم، وكأنهم جميعًا، عقدوا العزم على ألا يكون لها مكان في ذاكرتهم، أو على ألسنتهم، لم يكن ما أصاب القرية بخروجها حزنًا، ولا غضبًا، ولا شفقة، ربما كان مزيجًا من ذلك كله، أو أنه كان نوعًا من الانتقام منها، حتى وهي غائبة لا تدري ما الذي يدور في القرية لسنوات طويلة حتى تكلمت أمامنا إحدى الجارات من كبار السن، كما أحدثكن الآن، حول تلك الجميلة المختفية من شاطئ الذخيرة.

أم محمد: ياه يا أم يعقوب، الحكاية شيقة فعلًا، سنوات طوال، طوال جدًّا، لا أعرف كيف أحسب تلك السنوات، عشرون أم أربعون عامًا، أو يزيد؟ هل بالفعل هي نفسها التي كانت معنا قبل أيام في حفل الدزة؟

أم يعقوب: قبل الدزة بعدة أشهر، جاءت امرأة عجوز إلى بيت جارنا ماجد لا أعرف ماذا قالت لهم، ولا أعرف كيف فسرت لهم وجودها الغريب أمام بيتهم الكبير الذي تعرفونه، أقصد بيت ماجد الزعلان، أو لعله بيت ابنه، لا ليس ابنه، أعتقد أنه حفيده، المهم، جاءت المرأة إلى بيت الزعلان، ثم إنهم خصصوا لها غرفة في حوش البيت، ظلت هناك، ولا زالت في تلك الغرفة، تأكل من طعامهم، ولا تسمع لها صوتًا، وعندما سألت جارتنا عن سر السيدة العجوز التي سكنت حوش البيت، ردت باقتضاب، أنها قريبة من بعيد لزوجها، وأنه رأى ألا يتركها وحيدة، بعد أن فقدت الزوج، والأبناء، فقرر أن تعيش هنا في بيتنا، حتى ينظر الله في شأنها.

كررت زياراتي لبيتهم بعد دخول العجوز، حتى أتمكن من رؤيتها، لكنها لم تكن تخرج من غرفتها إلا لتصل إلى بيت الراحة الخارجي، وبالكاد كانت ترد السلام بصوت خفيض عندما أُعلي صوتي لتسمعني بالسلام والتحية، وفي بداية الأيام كانت تخطئ الطريق إلى بيت الراحة، ثم وجدت العجوز قريبها البعيد كما قالت زوجته، يربط لها حبلاً، يصل من باب غرفتها إلى باب بيت الراحة، فكنت أراها تخرج من غرفتها تتبع الحبل المشدود ما بين الغرفتين، وعندما تقضي حاجتها، تعود لتمسك بالحبل تتوكأ عليه، وتمشي ببطء حتى تصل إلى غرفتها.

أم جابر: ماذا عن الأكل والشرب؟

أم يعقوب: في الحقيقة كانت زوجة صاحب الدار كريمة النفس، وكثيراً ما رأيتها، وأنا أسقي دجاجاتي فوق سطح بيتي، نعم كثيراً ما

رأيتها، تأخذ الطعام إلى غرفة العجوز، وتخرج من الغرفة بوعاء فارغ.

أم محمد: هل يُعقل أنها هي ذاتها، تلك الفتاة الحسناء ذات الدلال التي رأيتها ورأتها أمي، وأنتم صغار؟

أم يعقوب: نعم عزيزتي، فقط في يوم الدزة اصطحبتها جارتي إلى الحفل، لأنها لا تستطيع أن تتركها وحيدة في البيت كل هذا الوقت، فكانت هناك، ملتحفة بالعباءة السوداء القديمة، جالسة محنية الظهر في طرف المجلس، لا تشارك النساء أي أحاديث، وكأنها جاءت من كوكب آخر.

أم جابر: نعم صحيح كلنا رأينا تلك العجوز محنية الظهر التي لا تتكلم، في حين أن كنة بيت الزعلان التي حضرت معها، تحاول ألا تجعل أحدًا يقترب منها، كنت أتشوق أن أسألها من تكون، لكنها كانت في بيتي، خشيت أن يكون تصرفي يأخذ معنى التدخل في شؤون الضيوف.

أم يعقوب: لكنني يومها وجدت فرصتي في الاقتراب منها، وجدت الكنة متشاغلة مع إحدى النساء، اقتربت من العجوز وسألتها: هل أنت زعفرانة؟

ولأول مرة، رفعت رأسها، فظهرت لي أسنانها المتساقطة، وقالت بصوت أكاد لا أسمعه: "نعم، أنا زعفرانة الزعلان".

الفصل الثاني

زعفرانة.. فتاة الذخيرة

ظهر عبيد فجأة في القرية، لم يكن يشبه أحدًا من شباب قريتي، كان طويلاً جدًّا، ونحيفًا جدًّا، يلبس ثوبًا بلون داكن بعض الشيء، أسمر البشرة، وكأن الشمس تلفح وجنته منذ مطلعها إلى مغيبها، ودومًا يضع على رأسه طاقية تغطي أغلب رأسه العجيب، لا يلبس الرجال هنا مثل هذا اللباس، لكن أحدًا لم يستغرب لباس عبيد، ولا وجوده المفاجئ في الذخيرة، صادفته لأول مرة أمام بيت عمي، عند عودتي من درس القرآن الكريم مع المقرئة، أو المطوعة، كما نسميها في زمننا، كان يستند على الجدار أمام البيت، كنت في مواجهته تمامًا، وأنا أهم بدخول البيت، بيت عمي، وبيتي بعد وفاة أبي، تحرك عبيد من مكانه ليسمح لي بالدخول، لا أدري إن كنت قد التقطت نظرة سريعة إلى عينيه، أم أنه هو الذي التقط تلك النظرة إلى عيني تلك اللحظة، أعرف أنني عندما دلفت إلى البيت، وسألتني زوجة عمي إذا كنت قد أكملت حفظ سورة الواقعة، لم أعرف الإجابة.

عرفت أن اسمه عبيد عندما حكى عمي لزوجته، حكاية الصبي عبيد، الذي جاء من عُمان ليطلب العمل الحلال من بيت الزعلان،

قال إن الولد "عبيد" قد سمع عن بيت الزعلان، وشرف عائلتهم العريق، والسمعة الطيبة التي تسبقهم حول كرمهم، ومساعدتهم للمحتاج، كما أن صيتهم الكبير في تجارة الأخشاب يسبقهم إلى كل مكان في المنطقة، وحتى ساحل عمان، وأنه إنما جاء من هناك طمعًا في العمل تحت راية بيت الزعلان العالية، قال عمي هذا الكلام لزوجته، وأنا أستمع له مفاخرًا بما قاله له الفتى عبيد، فأدخله عمي فالح، أو العم فالح كما يناديه أهالي الذخيرة، أدخل عبيد ضمن مجموعة من الرجال الذين يدفع لهم عمي أجورهم ليعملوا معه في صناعة السفن الخشبية، كما كان أبي - رحمه الله - يدفع لهم أجورهم في آخر يوم من كل شهر من الشهور العربية، رأيت بعضهم يدعو لأبي بالصحة، وطول العمر، ثم مات أبي، فصارت الدعوات من نصيب عمي - العم فالح - كما صارت السفن الخشبية، وبيت أبي، وأنا، صرنا جميعا ضمن إرث عمي من أبي.

لمرة واحدة فقط، قال لي عمي بعد وفاة أبي، إن كل المال سيعود لي عندما أكبر، وأصير امرأة، لكنه لم يعد يكرر تلك الكلمة بعد ذلك أبدًا، ولا أعرف متى، وكيف لي أن أصير امرأة، وهل يمكن أن أصير امرأة يعود لها إرث أبيها؟ لكنني صرت ضيفة مدللة في بيت عمي، وصار لي أن أتعلم القراءة والكتابة، وأن أحفظ القرآن مع المطوعة، رغم أن بنات عمي لم يذهبن إلى المطوعة إلا لحفظ سورة الفاتحة، وسور القرآن القصيرة، اللازمة لأداء الصلوات الخمس.

عامان - ربما ثلاثة - أعيش في دلال بيت عمي، منذ أن مات أبي في رحلة بحرية معتادة لصيد الأسماك، عُرف أبي بعلمه الغزير في علوم البحر والاتجاهات داخل البحر، والاستدلال بالنجوم في الليل ليعرف الطريق لمغاصات جمع اللؤلؤ الذي يتعيش منه كل أهالي المنطقة، أخبرني كل من جاء للعزاء في أبي، كم كان والدي غزير العلم في البحر، واتجاهات الريح، وارتفاع الموج في كل موسم، كان يعرف من أين يخرج الماء العذب في قلب البحر، ليأمر أحد غواصيه المتمرسين بالنزول إلى قاع البحر، عند نقطة محددة، ينزل الغواص، ليجد نبع الماء العذب تحت السفينة مباشرة، يملأ القربة التي يحمل، وهو يكتم أنفاسه بوضع أداة خاصة على أنفه لتسد مجرى التنفس، يملأ القربة بالماء العذب، ثم يصعد بها إلى أعلى السفينة، كان أبي يحدد لسفن الغوص، وسفن الصيد، يحدد لها تاريخ انطلاق السفينة، ويوم وجوب عودتها، لكنه عندما ذهب في رحلته تلك، قبَّل رأسي، وأودعني في بيت عمي قائلا:

- اعتني بهذه الطفلة اليتيمة حتى أعود بعد عشرة أيام بإذن الله.

لكنه لم يعد في اليوم الذي حدده لنفسه، لكن قبل يوم من ذلك التاريخ، سمعت صراخًا يعلو من بيت الجيران، ثم من بيت جار آخر، رأيت عمي، وقد جاءه رجل غريب يهمس في إذنه، فيقوم عمي من مكانه، يحوقل، ويبسمل، ويسبح الله، يضع غترته على رأسه دون عقال كما يفعل في أيامه العادية، يخرج عمي من البيت سريعًا، فلحقت به، لا أعبأ بصوت زوجة عمي محاولة أن تعود بي

إلى البيت، لم يكن عمي وحده متجهًا إلى الشاطئ، كل رجالات القرية، وأطفالها، وبعض النساء بالعباءات السوداء، يركضن خلف الرجال، منهن من تصرخ، وتبكي، ومنهن من يقرأن بعض آيات من القرآن، وأدعية مختلفة، تعلمت بعضها مع المطوعة، لم يضع أي من هؤلاء الرجال عقالاً، لكن الغتر كانت منسدلة على الأكتاف، وبعضهم تلثم بغترته، ربما كي لا تسقط دمعة، فيراها الرجال، وتخدش الرجولة.

كل هذا السيل من البشر توجه إلى ساحل البحر، هناك كان رجال آخرون ينظرون، وهم يسبحون الله، ويحملون أجسادًا ميتة، يُلف بعضها بالغتر البيضاء، وبعضها يمكن أن نرى وجهه، فرأيت وجه أبي بين الأجساد الميتة، رفع عمي غترته، وغطى بها وجه أخيه، وهو يكرر... ويبكي:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

رحل أبي، ومعه عشرة من البحارة، أو الصيادين ممن كانوا في صحبته.

تذكرت يوم قَبّل أبي رأسي، وتركني في بيت عمي، تذكرت أنني حاولت النوم يومها على الفراش الناعم، والنظيف الذي أعدته زوجة عمي، لا أعرف إن كنت أغمضت عيني نعاسًا، أو محاولة لجلب النعاس، لكنني أغمضت عيني، فرأيت سفينة أبي التي اعتاد الخروج بها، رأيتها راسيةً على الشاطئ، أو على السيف كما نسميه هنا، كبيرة، ومهيبة تلك السفينة، صغيرة أنا أمام سفينة أبي،

يحملني على أكتافه حتى أستطيع أن أصعد على سطحها، هناك قطع من الحديد على ظهر السفينة، لكل منها اسم، ولها مهمة حدثني عنها والدي سابقا، تحمل سفينة الربان / أبي من الرجال ما يصل عددهم إلى العشرين أو يزيد، رأيتها مع إغماضة عيني، كما أراها كل صباح، وأبي يمسح بيده على خشبها، ومساميرها كل يوم، يطوف حولها لساعة، أو ساعتين كل يوم، فقط ليتأكد أن سفينته الحبيبة بخير حال، لكنني، ومع إغماضة عيني لم أر أبي يطوف حول السفينة، إنما رأيت خيالاً غريبًا يطوف حولها، خيالاً طويلاً جدًّا، ونحيفًا جدًّا يطوف حول سفينة أبي، ثم يمسح بيده على جسم السفينة كما يفعل أبي، لكنه ينزع المسامير من مكانها في يسر وسهولة، وكأنها تنزلق بين يديه بمجرد أن يلمسها، راح يجمع المسامير الحديدية من جسد السفينة الخشبية، ثم دلف عائدًا إلى البحر من حيث أتى، ولم يلتفت إلى السفينة التي أضحت لا سفينة، صارت قطع الأخشاب تتساقط من سفينة أبي، قطعة تلو القطعة، والسفينة التي كنت أراها عملاقة لا أستطيع الصعود إلى ظهرها، صارت تهوى في الماء شيئًا فشيئًا، فأشعر بالماء المالح، والبارد يملأ جسدى مع سقوط سفينة أبي، تغرق السفينة، فيرتفع الماء المالح ليغطي جسدى، ويصل إلى رأسي، أحاول أن أتنفس هواء، فيملأ الماء المالح صدري، فأصرخ فلا أجد إلا فراشي الدافئ، وزوجة العم تهدئ روعي، وتعدني بعودة أبي قريبا، وهذا لم يحدث.

عاد رجال القرية بالأجساد الميتة إلى مسجد القرية، امتلأ المسجد الصغير بالرجال والأطفال، من يبكي، ومن يصرخ، ومن يأمر الآخرين بذكر الله، والرضى بالقضاء والقدر، هذا الدور الذي يقوم به عمي، العم فالح الذي صار - بعد أبي - رجل البحر، ورجل القرية، وشيخ بيت الزعلان ذائع الصيت.

لم تنس قريتي ذلك اليوم الحزين، وتمت تسمية ذلك العام بعام الطبعة، والطبعة في لهجة أهالي المنطقة هي الغرق، وعندما تغرق سفينة كاملة ببحارتها، وقبطانها، وعتادها، فإن العام كله يوسَم بهذا الوسم ويسمي عام الطبعة، ويقال لكل من ولد فيه إنه ولد في عام الطبعة، أو بعده أو قبله، في عام الطبعة ذاك، فقدت أبي، وهناك أحد عشر بيتًا في القرية فقدت عائلها، فتكفل عمي بإعالتها بشكل مستمر حتى يبلغ الأبناء سن العمل، فيحملون المسؤولية، زاد ذلك من انتشار اسم عمي العم فالح في قريتي، وما حولها، وأظن أن اسم العم فالح قد تعدى حدود القرى البحرية الصغير في شمال قطر، إلى عاصمتها الدوحة، بل راحت السفن البحرية، سواء كانت سفن صيد أو غوص أو تجارة، صارت تحمل أخبار الحادث الشنيع الذي راح ضحيته أحد عشر صيادًا، تكفل العم فالح بإعالة أبنائهم حتى سن البلوغ.

أما ما قبل عام الطبعة بعدة سنوات، حين كنت في كنف أبي، أتذكر، وكأنه شيء من الخيال، أتذكر أمي منتفخة البطن، تنتظر - هي وأبي - مولودًا تتمنى أن يكون ولدًا يكون ربانًا مثل والده ذات

يوم، لم تكن المحاولة الأولى لأمي لإنجاب الولد، بعد أن جاء البكر فتاة أسمتها زعفرانة / أنا، لكن في كل مرة كان الجنين يسقط منها قبل اكتماله بقليل، لم أكن أحب شكل أمي ببطن المنتفخ، ولا أحب حديثها، وأبي حول ولد يكون سيد الدار يوم ولادته، وسيد البحار فيما يأتي من الأيام، أذكر حضن أمي الدافئ، وهي تقربني من بطنها لأسمع دقات قلب الجنين، أخي الذي سيمتلك البيت بما فيه من أم وأب، ليس لي حرية الاعتراض، لكني كرهت الطفل قبل ولادته، في هذه المرة، وبعد محاولات عديدة، تمسك الطفل بأحشاء أمي حتى اكتمل، وحان وقت خروجه إلى الدنيا، حيث ينتظره الأب والأم بشغف كبير لكنه ظل متمسكا بأحشاء أمي يرفض الخروج، لم تستطع زوجة عمي، ومعها بعض النسوة من تعديل وضع الطفل العنيد، وعندما حضرت القابلة المختصة من القرية القريبة، قالت أول ما قالت:

- الله يلطف بحالها.

ظل الجنين يعرض عليّ أن يكمل مسيرة الحياة معي، فلا أقبل، فأخذ أمي معه إلى حيث لا أدري، وما عرفت ما صار إلا بقبلات زوجة عمي على وجهي، ثم بحضن أبي الكبير، وهو يحاول مداراة دموعه من السقوط، ويفشل في محاولاته تلك، عرفت بأن أمي ذهبت مع طفلها، فكرهته أكثر، وأدركت أن كرهي السابق لبطنها المدور، كان مبررًا، فصار شكل أمي في ذاكرتي، هو شكلها بالبطن المنفوخ، وأظنها كانت أجمل الجميلات في زمنها، كل من

رآني أكبر بعد ذلك، كان يقول لي إنك ورثت جمال أمك يا فتاة، حملت جمال أمي، ولمعة خاصة في عينيها، وذكرى بطنها الممتلئ بطفل عنيد، ورفض أبي كل محاولات عمي ورجالات القرية في تزويجه من امرأة أُخرى، وكان يقول:

- غير أم ماجد.. ما أبغي زوجة.

وماجد هو الطفل العنيد الذي كانت تحمله أمي، وهو سيد الدار، وسيد البحار في ما بعد، لو كتبت له الحياة، لكنه فضل أن يأخذ أمي بصحبته، ويرحل.

ترك أبي في المنزل كتبًا ثقيلة، كنت أراه يقلبها كثيراً، كتب تحمل خرائط، ورسومات، وجداول رقمية، لم يكن يمانع أن أجلس بجانبه، وهو يقلب تلك الكتب الثقيلة، أنظر للصفحات، وأتمنى أن أعرف ماذا تقول لأبي، ولماذا يحب أبي صحبتها لساعات طوال، كان يفتح أكثر من كتاب في آن واحد، يكون في يده قلم، ودفتر صغير، فيسجل رقمًا من هذا الكتاب، ورقمًا آخر من كتاب آخر، ويرسم خطوطًا بالطول والعرض في الدفتر الصغير، وعندما عادوا بأبي جسدًا ميتًا من ساحل البحر، وجدوا الدفتر الصغير في جيبه، وقد ابتلت أوراقه، وانكمشت على بعضها، لكن عمي لم يترك الدفتر الصغير، عاد به إلى البيت، وأعطاني الدفتر، ولم يتكلم.

ما أن ماتت أمي مع طفلها العنيد حتى صار أبي يقضي معي أغلب أوقاته، حفظت معه جزء "عم" من القرآن الكريم، وفي

رمضان، كان يعلمني الصيام، لكنه يسمح لي بالأكل، والشراب عند أذان الظهر بدلاً من أذان المغرب، كما تقتضي الشريعة الإسلامية، في النصف الثاني من رمضان، امتدت ساعات الصيام إلى أذان العصر، قال إنه في العام القادم، عليّ أن أصوم اليوم كاملاً منذ ساعة الفجر الأولى، وحتى مغيب الشمس، لكن العام الذي تلا ذلك العام، كان عام الطبعة، الذي مات فيه أبي.

أخذني أبي ذات يوم إلى الشاطئ، أخذني بعيدًا إلى شاطئ لا يسبح فيه فتيان الحي، كما في الشواطئ القريبة، حملني أبي على ظهره حين شعرت بالتعب من المشي على الرمال الحارة، وعندما وصلنا إلى الشاطئ الذي يعرفه أبي جيدا، قال لي:

- هنا يا ابتني الغالية سأعلمك السباحة.

بعد ثلاثة أيام على ذلك الشاطئ البعيد، كنت أعوم كبطة صغيرة على سطح الماء، كنت أسبح مع أبي لكني لا أستطيع أن أسبقه، وإن كان يتباطأ ليشعرني بالانتصار عليه، فأستغل تهاونه، وأسبقه إلى نقطة يحددها، ثم نعود إلى الشاطئ، كيف يصير لأبي أن يموت تحت الماء المالح، وهو الذي يعرف أن يكتم أنفاسه لمدة طويلة، لا يستطيع أحد أن يجاريه فيها، كيف يموت مع عشرة من البحارة، دون أن ينجو أحدهم ليكون شاهدًا على ما حدث؟

حافظ عمي على وعده لأبي، جعلني ملكة صغيرة في داره، لم يحسب حسابًا لغيرة بناته الأخريات، وحتى أبنائه الشباب، حافظ على أمنية أبي بأن أتعلم كل ما يمكن أن أتعلمه، جاء بكتب أبي

الثقيلة، وأبقاها معي في الغرفة التي خُصصت لي، رغم أن بناته الثلاث ينمن جميعًا في غرفة واحدة، كنت أقلب كتب أبي كل ليلة قبل أن أنام، حتى كدت أن أحفظ رسومها، وجداولها، والأرقام المبعثرة على جانبي الصفحات.

استمر ذهابي إلى المطوعة، أو لنقل إلى معلمة القرية، استمر ذهابي اليها، ومجالسة دروسها حتى بعد أن أتقنت القراءة والكتابة، وبعد أن حفظت ستة أجزاء من القرآن الكريم، كانت المطوعة "حجية فاطمة" معجبة بمتابعتي لدروسها، وإتقاني لكل ما تقول، وحفظي السريع لسور القرآن الكريم، أخبرت زوجة عمي أنها لا تريد لقاء تعليمي مقابلاً ماديًا، فقط تريدني ألا أنقطع عن الدروس، وبررت ذلك بأنني خير من يساعدها على تعليم الفتيات الصغيرات، وتحفيظهن سور القرآن الكريم، وافق عمي على مقترح الحجية فاطمة، فهي سيدة تحظى بالاحترام والتقدير، لدى أهالي الذخيرة والقرى التي حولها، بعض الأهالي من المناطق المجاورة، يشدون الرحال إليها كل يوم، لتعلم بناتهم القراءة والكتابة، وشيئًا من المصحف الشريف، فكيف لا يترك ابنة أخيه اليتيمة في رعايتها، وقد أبدت كل هذا التميز في التعلم بشهادة المطوعة ذاتها.

بعد إتقان القراءة والكتابة، صار لي شغف شديد لقراءة كل ما يقع تحت يدي من كتيباب صغيرة، مع كتب أبي التي تختص بعلوم البحر، والرياح الموسمية، وكتاب لم أعرف أن أكثر رسومه، وخطوطه، لم أره عند أبي، ثم علمت من عمي أن أبي كان يخبئه

في علبة مغلقة يضعها فوق الدولاب، فلا يعرف مكانها أحد، الكتاب أحمر الغلاف، وكل ما هو مكتوب على غلافه الخارجي هو "كتاب الغزال"، وعندما علمت زوجة عمي بأمر الكتاب الأحمر، أحمر وجهها، وسألت:

- هل هو فعلاً كتاب الغزال الذي سمعنا عنه؟

لم يجب عمي، وتجاهل سؤالها الشائك الذي يحمل في طياته جوابًا شائكًا، وأنا التي أحتفظ بالكتاب في غرفتي، لم أعرف ما الذي تقصده زوجة عمي، حتى خرجت من بيت عمي برفقة عبيد، قبل الفجر بساعتين، وربع الساعة.

الحجية فاطمة، معلمتي الصدوق، أذكر كيف استقبلتني في اليوم الأول في قاعة الدرس التي هي بيتها، وهي الأرملة التي لم يترك لها الزوج إلا ولدًا واحدًا، مات في البحر، عندما فاض البحر غضبًا ذات يوم، فأخذ الابن إلى باطنه، ثم أعاده جسدًا بلا حراك، كما عاد بأبي، والبحارة العشرة الذين كانوا في صحبته، بكت الحجية فاطمة، ثم صارت تقرأ الذكر الكريم للزوج والابن، منذ شروق الشمس حتى مغيبها، فصارت الجارات يأتين بصغيراتهن إليها لتعلمهن أمور الدين، وتفقههن في أمر الصلاة والصيام، والنظافة الشخصية، وصارت تقبل التعليم دون مقابل في بادئ الأمر، ثم دعتها الحاجة إلى قبول ما تجود به النساء في مقابل تعليم بناتهن، ثم إنها صارت تحدد أجرًا مقابل تعليم كل فتاة، ثم صار الأجر أعلى من أي مطوعة أخرى في القرى المجاورة، ولا

تسمح لأحد أن يفاوضها على الأجر الذي تتقاضاه.

وافق عمي دون تردد على أن أكون مساعدة للحجية فاطمة في تعليم الفتيات، فقد أكون يومًا مطوعة القرية كما هي الحجية فاطمة، وقد يصير اسمي الحجية زعفرانة، إذا مَنّ الله عليّ بزيارة بيته الحرام ذات يوم، وليس ذلك على الله ببعيد، أما الحجية فاطمة، فلا أنسى نظرتها لي يوم جاءت بي زوجة عمي لأول مرة، ترجوها أن تجد لي مكانًا في الفصل الدراسي، وقد كانت سمعت باكتظاظ الدارسات في فصل الحجية، نظرت الحجية في عيني مباشرة، أطالت النظر حتى نسيت أن زوجة العم تنتظر منها جوابًا، فما أفاقت من النظر المباشر إلى عيني، إلا مع سؤال زوجة عمي المسترحم:

- هل تقبلينها يا حجية في الفصل الدراسي، إنها يتيمة، وسوف يجزيك الله خيراً لقاء تعليمها، إضافة إلى أن عمها لن يبخل عليك مقابل عملك معها.

أفاقت الحجية فاطمة من طول النظر إلى عيني، وأنا أنظر إلى نظراتها مباشرة دون مواربة، ودون تحفظ، أو تستر، ردت الحجية على سؤال زوجة عمي بالإيجاب، لم تحاول الاعتذار حتى يرفع ولي الأمر المقابل المادي الذي تطلبه، وقالت إن لليتامى علينا حقًا لا نتأخر فيه.

- زعفرانة سوف تدخل الفصل في الحال، وتبدأ رحلتها في التعلم، اذهبي إلى بيتك الآن.

رجعت زوجة عمي سعيدة إلى بيتها، زفت البشارة إلى عمي، وولي أمري؛ أنني من اليوم سوف أصير تلميذة في فصل الحجية فاطمة، وهو ما يتمناه كل سكان الذخيرة لبناتهم، لكن القليل منهم يستطيع أن يدفع ما تحدده الحجية فاطمة من أجرة لقاء التعليم، وزادت زوجة عمي أنني أتميز حتى عن بناتها، بالذكاء والنباهة، وأن الحجية فاطمة، لا بد أن تكون قد لاحظت هذا في عين زعفرانة، فلم تتردد في قبول الطالبة الجديدة، قالت هذا لعمي، فنفخ نفخة حارة في الهواء، وترحم على أخيه/ أبي.

سريعا ما اندمجت مع الحجية فاطمة في دروسها، كانت تعلمني القرآن، كما كانت تعلمني أبياتًا شعرية تحمل الحِكم، وقواعد الحياة، والفلسفة، كانت تعلمني ما لا تعلمه لباقي الفتيات، اللائي يكتفين بحفظ السور القصار من القرآن، ما يمكنهن من أداء فريضة الصلاة، خمس مرات يوميًا، يسبقها الوضوء، وهو غسل الأجزاء الظاهرة من الجسم، مثل الوجه واليدين والقدمين، غسلها بالماء الطاهر، لضمان النظافة التامة قبل الدخول في الصلاة، والتي هي عبارة عن لقاء بين العبد / نحن والمعبود / الله.

بعد عدة شهور تحدثت معي الحجية فاطمة، حول ما تسميه البريق في عيني:

- بريق عينيك هذا، لم أره في حياتي إلا في عين معلمتي، الحجية خديجة، التي تعيش في المدينة المنورة، حيث قبر الرسول (ﷺ)، كان لي الحظ أن أتعلم على يديها عندما

جاءت مع زوجها إلى الذخيرة قبل عشرين عامًا، من يرى ذاك البريق لا ينساه، وأنت يا زعفرانة، تحملين البريق ذاته في عينيك، فكوني حذرة في حياتك، وادرسي خطواتك جيدًا، ولا تنجرفي في تيار لا تعرفينه، أنت شعلة من نار يا ابنتي، فحافظي على ما تمتلكين من قوة، سواء تعرفينها أو لا تعرفينها، حافظي على نفسك الغالية، وسوف تعرفين معي الكثير من أسرار الحياة وعلومها، سأعطيك كل ما تعلمته من آداب، وفقه في الدين، لأنني ببساطة لن أجد مثلك من يستطيع أن يحمل أمانتي العلمية.

وعندما سألت الحجية فاطمة عن كتاب الغزال الذي تركه لي أبي، تجهم وجه الحجية، وانخفضت حدة صوتها، وهي تقول:

- من الأفضل لك يا ابنتي، أن تنسي أمر هذا الكتاب، وسوف أعيرك من هنا كتبًا أخرى، في الشعر القديم والتاريخ والفلسفة، فافتحي بابك للعلم المفيد فقط.

وهكذا، سدت الحجية فاطمة الباب أمامي لأعرف شيئًا آخر حول كتاب الغزال، فسكت مؤقتًا، وفتحت الباب بالفعل لكل ما أرادت الحجية فاطمة أن تعلمني إياه، فحفظت المعلقات السبع، وقرأت أشعار رابعة العدوية حتى ظننت أنني صرت ضمن فصيل الصوفية، كما عرفتها من الحجية.

بدت علامات الأنوثة التي لا يمكن إخفاؤها في الظهور على جسدي، بدأ عمي في التلميح إلى أنني سأنجب له حفيده الأول،

عندما أتزوج من ابنه عدنان، لم يكن عدنان هذا سوى بحار صغير، لا يعرف من العلوم إلا ما حفظه من المطوع خلال شهرين فقط، ثم صار يفضل أن يكون على ظهر السفينة عند الإبحار للصيد، أو للغوص على اللؤلؤ، بحار ككل أهالي القرية الهادئة، لكنني أنا الصوفية المستجدة، لن أكون زوجة لبحار تنجب له أبناء يذهبون إلى البحر مع أبيهم، وقد لا يعودون مثل أبي، وابن الحجية فاطمة، عدنان أيضًا كان يراني مختلفة عن أخواته الثلاث، كان يقول:

- عندما تصير زعفرانة زوجتي، ستعود إلى الحالة الطبيعية رغمًا عنها.

أي حالة طبيعية هذه التي يقصدها عدنان، الحالة التي وشت بها ابنة عمي أمامي، وكأنها تقول لي إنني لن أكون إلا كما تريد لي هي، وأخوها أن أكون، أحزنني هذا المخطط الذي نظمه عمي، وزوجته، وها هو عدنان، وأخواته، ينسجن حولي هذا المخطط الداكن، لكل منهم، ومنهن مراده من النسيج الذي يلتف حولي، ولم أكن أشعر بالضيق، فقد كنت أعرف - ولا أعلم كيف أعرف - أنني لست لعدنان، وأن ما قالته رابعة العدوية حول "حب الهوى، والحب الذي هو أهل له" ليس لعدنان فيه مكان، أو معنى، طيب هذا العدنان، وعندما أعود إلى هذه الدار بعد أربعين عامًا، سيفتح لي ابنه ماجد باب الدار، وسيربط لي حبلاً مشدودًا ما بين غرفتي التي كانت غرفة عدنان، وبيت الراحة، حتى لا أضل الطريق، وقد

ضعف النظر حتى صار خيطًا من نور يبهت أحيانًا، فأحتاج الحبل المشدود.

يملك عدنان - كما لا يملك - باقي شباب الحي، دراجة بعجلات كبيرة، يتنقل بها من طرف القرية إلى طرفها الآخر، دون أن يكون له حاجة، ولكنه سعيد بنظرات الإعجاب من أقرانه من أهالي القرية، وقد يحتاج له أحدهم لنقل رسالة ورقية، أو شفوية، من جانب إلى آخر، فإذا كانت الرسالة من الوزن الثقيل، مثل اتفاق على تجارة، أو موافقة على نسب بين عائلة، وأخرى، فإن عدنان لا يكون متطوعا في النقل، لكنه يشترط عمولة، أو أجرة لنقل المتُفق عليه، وكثيراً ما عاد عدنان من مشواره اليومي، قاطعا الذخيرة من طرفها إلى طرفها، كثيراً ما عاد، وفي جيبه قروش من عرق جبينه، فلا يعلق والده / عمي على رزقه الحلال هذا، لا بالرفض ولا الموافقة، فيعود عدنان في اليوم الثاني لحمل الرسائل، وأحيانًا بعض الأغراض من طرف الذخيرة إلى طرفها الآخر، راسمًا بعجلاته خطوطًا دائرية، وأخرى مستقيمة، على تراب الذخيرة الهادئة.

لما وصلتني وشاية ابنة عمي حول نية عدنان بتحويلي إلى كائن "عادي" كما قلت، أضمرت في نفسي شيئًا لا أعرف هويته، خرجت إلى حوش البيت حيث عدنان يثبت العجلة، نظرت للعجلة التي يتفاخر بها ابن عمي، نظرت للعجلة كما نظرت الحجية فاطمة إلى عيني يوم زرت فصلها لأول مرة، كنت مختبئة في غرفتي، لكني أنظر إلى العجلة دون حديث، أو إصدار أصوات، جاء عدنان، فك

رباط العجلة، وامتطى حصانه / العجلة، ومضى إلى شأنه ككل يوم، لم ترحل عيني عن العجلة حتى اختفى ابن عمي وعجلته بعد خروجه من باب الدار، وما كاد يفعل حتى سمعت صراخه متألماً، وعلمت لاحقًا أن العجلة انكسرت، وسقط عدنان بثقل جسمه على رجله اليمنى، فانكسرت، وتم تجبيرها لعدة شهور، لكنه كره حكاية العجلة، وطلب من والده ألا يأتي أمامه بذكر زعفرانة.

لم يكن عدنان الوحيد الذي كسرت ساقه، سواء بالسقوط من العجلة، أو بسقوط حجر على رأسه من حيث لا يعلم، فهذا ما حدث مع ابن الجيران الذي كان يمشي ورائي كل يوم حتى أصل إلى بيت الحجية فاطمة، وكذلك الآخر الذي أسمعني كلمات سخيفة مثله، سقط الأول في حفرة لم يلحظها فشُج رأسه، وارتفعت حرارة الثاني دون سبب، حتى عفوت عنه، فعاد إلى حالة شبه طبيعية، وقد وهن جسمه، وشحب وجهه.

وأما عبيد، وقد كان يتعمد أن يكون أمام بيتي عند عودتي من فصل الدراسة، فإني أراه كما أراهم، لكني أراه، ولا أراهم، وحده عبيد كان دومًا أمام بيتنا، لا يتحدث إلي مباشرة، فهذا عيب، وذنب لا يغتفر، لكن تحت تلك الطاقية التي يضعها فوق رأسه، هناك حديث، أكاد أفهمه، وأجيبه عنه، فقط عبيد، أحب أن أجيبه.

ولما أغمضت عيني تلك الليلة، جاء صاحب الطاقية الأسمر، قال كما قالت رابعة العدوية، وزاد عليه بأن ذكر اسمي، واسم عائلتي، ثم قال إنه في الليلة القمرية بعد ثلاثة أيام، سيكون في

انتظاري عند النخلة العجوز أمام بيتنا، وإنني سوف أذهب معه إلى حيث يعيش هناك، وسوف أكون كما أريد لنفسي أن أكون حيثما سيأخذني في الليلة القمرية، فتحت عيني فلم أجده، لكنني ما أن عدت من بيت الحجية فاطمة، حتى وجدته عند باب الدار، هذه المرة هز رأسه لي ثم ذهب.

ثم جاء في الليلة التي تليها، كرر ما قاله سابقا، وحدد الوقت، والتاريخ بعد يومين، وقال إنني سأكون هناك كما كُتب لي أن أكون، ولم أجده أمامي حين فتحت عيني، لكنه لليوم الثاني يهز رأسه لي قبل أن يذهب، فلا أحد رآه يحدثني في غرفتي، ولا أحد يراه يهز رأسه لي، ثم يذهب في الاتجاه نفسه كما قبل ذلك.

في الليلة الثالثة، جاء قرأ قصيدة رابعة العدوية كاملة، وهو ينظر في عيني مباشرة، قال إنني سألقاه غدًا، في الليلة القمرية، قبل الفجر بساعتين، وربع الساعة، عند النخلة العجوز، لنذهب حيث نحب أن نكون، فتحت عيني فلم أجد عبيد، لكنني شممت ما يشبه رائحة اللبان، يومها ذهبت إلى معلمتي، وقلت لها إنني قد لا أعود في الغد، هزت الحجية رأسها، وتمنت لي التوفيق.

وجدته هناك، وجدت عبيد في انتظاري مبتسمًا فاتحًا ذراعيه، هناك عند النخلة العجوز، قبل الفجر بساعتين، وربع الساعة، شبكت يدي بيده، ومضينا في اتجاه يعرفه عبيد، ولم أكن أعرف سوى الذخيرة، وهؤلاء الأخيار الذين دفنوا بها، أمي وأبي، وهؤلاء الأخيار الذين سيدفنون بها، دون أن أراهم، أو أسمع منهم خبرا

بعد تلك الليلة، عمي، وزوجته الطيبة، والحجية فاطمة، غبت حيث غاب عبيد، وصارت الذخيرة ورائي لأربعين عامًا.

حين أفاق العم، وزوجته، وأهالي الذخيرة، كانت زعفرانة / أنا، قد اختفت تمامًا، كما اختفى عبيد، البعض قالوا إنهم رأونا نطير فوق البحر، امرأة ما، ادعت أنها رأتنا نسبح معًا في البحر حتى أصبحنا نقطتين صغيرتين في الأفق، ثم اختفينا، وكأننا لم نكن، والبعض قال إنني وعبيد، قد حلت بنا لعنة القراءة، فرفعنا الله إلى سمائه حتى لا نؤذي خلق الله، لكن الثابت أنه بعد تلك الليلة القمرية، جاء عمي إلى غرفتي، وجد كامل ثيابي كما هي، لكنه لم يجد كتب أبي، ولم يجد كتاب الغزال.

الفصل الثالث

زعفرانة اليوم.. وريثة الاسم

لا يستطيع أحد أن يقدم طبق السلطعون البحري، مثل جدتي مريم، لا تباريها سيدة أخرى في هذا الشأن، ولا حتى خالاتي، لم تستطع إحداهن أخذ تلك الوصفة السحرية للسلطعون من جدتي، حتى في أفخم مطاعم الأكلات البحرية، التي صارت منتشرة اليوم في الدوحة، لا أجد سلطعونًا يشبه سلطعون جدتي مريم.

أحبت جدتي البحر الذي نشأت بقربه في الذخيرة، حدثتني كثيراً عن الصخور الحادة التي مشت عليها حافية مرات ومرات، حدثتني عن السلطعونات الصغيرة التي خبأتها في العلبة المعدنية، فوجدتها ميتة في صباح اليوم التالي، كم تخيلت جدتي طفلة تلهو حافية على شاطئ صخري قاسٍ، وأنا التي حتى الآن لم أر البحر إلا في شكله الجديد على كورنيش الدوحة، لا صخور نمشي عليها، ولا سلطعونات نلاحقها وتختبئ حتى أني لا أعرف شكل السلطعون إلا ذلك الذي كانت تقدمه لنا جدتي في مواسم محدودة، لا يمكن أن نصطاد هذا الحيوان البحري العجيب في أي موسم، له موسم خاص بالتزاوج في بداية الشتاء، فتجد أنثى

السلطعون حبلى بكمية من البيض، متكتلة بداخلها كحبل منتفخ، له طعم لذيذ عندما تقدمه لنا جدتي.

حدثت رفيقاتي بحديث جدتي، وسلطعونات الذخيرة، ونحن نلتف على طاولة مطعم حديث يقدم السوشي، بعضنا اليوم لا يأكل الأطعمة البحرية إلا في شكل الشوسي، فتكاثرت المطاعم المختصة به، لكن لحكاية جدتي طعم خاص، أحبته الزميلات، وتمنين عليّ أن أدعوهن يومًا لطبق السلطعونات الأنثوية الحبلى، من صناعة جدتي، وعدتهن إذا أتم الله عافيته على جدتي مريم، فستكون سعيدة أن تطبخ لهن وصفتها المفضلة، ربما عندما ننتهي من عمل مشروع التخرج الجامعي الذي اجتمعنا اليوم هنا لأجله حتى نضع خطوطًا واضحة لمشروع التخرج لكل منا.

كثيراً ما استهوتني مادة التاريخ، منذ قرأت مادة التاريخ في الثانوية العامة، لم أتردد أن أكون ضمن المسجلين في تخصص مادة التاريخ منذ العام الجامعي الأول، لم أكن أكتفي بالمنهج الذي يقدمه لنا أستاذ المادة، كنت أجد لذة في إيجاد الإجابات حول الأسئلة التي تولد من رحم إجابات أخرى، مكتبة الجامعة التي تزدهر بالكتب، لم تكن تسد حاجاتي للمزيد من الإجابات، فكانت رحلاتي المكوكية شبه اليومية، إلى المكتبة الوطنيه، حديثة البناء والهندسة الحديثة، والتاريخ.

- سوف أجعل مشروع تخرجي حول ثورة يوليو في مصر عام 1952، سأحاول أن أتحقق من حقيقة النظام الملكي قبل الثورة، هل كان إقطاعيًّا بالفعل؟

- هذا سؤال يستحق البحث حوله، كثيراً ما قدمت لنا الدراما التلفزيونية، والأفلام العربية، النظام الملكي كنظام إقطاعي بحت! فهل هذا صحيح؟

- نعم.. سأحاول التحقق من ذلك، فنحن عرفنا اليوم عن النظام الملكي، أكثر مما عرفه آباؤنا بعد الثورة في أواسط القرن العشرين، هناك عدة مراجع أعددتها، سأبحث عنها لأعرف منها، وأكتب مشروع تخرجي.

- أعتقد أنك يجب أن تدعميه بقصص، وحوادث حقيقية حول أصحاب الأملاك، في تلك الحقبة، ومعاملاتهم مع من كان يزرع الأرض من الفلاحين المصريين.

- بالتأكيد، سأركز البحث في مراجعي عن هذا الموضوع، وأنت أي فكرة أمامك اليوم؟

- قرأت مؤخرا رواية لكاتبة ليبية، حول جندى بريطاني وصل إلى ليبيا مع كتيبته، ورسم جدارية في منطقة بحرية، تمركزت فيها القوات البريطانية في الحرب العالمية الثانية، أفكر في البحث حول الدور الذي لعبته القوات الأجنبية؛ بريطانية وألمانية وفرنسية، على الأراضي العربية الليبية.

- جميل جدا، لكن أظنه موضوعًا شائكًا جدًّا، والحقائق فيه قد لا تكون واضحة، لماذا لا تركزين على دور واحد فقط، دون الأدوار الأُخرى؟ أي إنك تبحثين فقط حول دور القوات الإنجليزية فقط دون غيرها؟

- نعم، عندما أبدًا في البحث والكتابة، سأرى إن كان الدور الإنجليزي في ليبيا كافيًا ليكون مشروعًا للتخرج، سأقرر بعدها هل أتوسع في البحث أم لا؟

- هل تعرفون مشروع سارة؟ حدثتني أنها حصلت على موافقة أستاذ المادة على مشروعها القادم.

- فعلاً. حصلت على الموافقة وبدأت البحث. لكن لا أعرف ما هو مشروعها.

- كونها فلسطينية، فقد اختارت أن تتعمق في ثورة القسام، وكيف تم القضاء عليها رغم التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني.

- جميل جدًّا. أنا مشتاقة أن أسمع منها نتائج بحثها عندما تنتهي.

- وأنت يا زعفرانة؟ ماذا عنك؟ في أي اتجاه تفكرين لمشروع التخرج؟

- أنا؟ نعم، أنا أيضًا مثل سارة، أفكر في ما يلمس المنطقة التي أنا منها.

- منطقتنا؟ الخليج العربي؟ مثل ماذا؟

- الانتداب البريطاني مثلاً؟ أو النفوذ الفارسي أو ما شابه.. لم أحدد بعد، لكنني سألتصق بتاريخ المنطقة، هذه المنطقة الهادئة من العالم.

- وفقك الله، ووفقنا جميعًا إلى مشاريع هامة، وسهلة الإعداد.

- الله الموفق

استقبلتني أمي شيخة، وأنا أكبر أبنائها، استقبلتني كعادتها بالابتسامة الحلوة، قالت إنها تخاف عليّ خطر الطريق، وقد استلمت رخصة القيادة قبل أشهر قليلة، لكن أمي ما تزال تراني مبتدئة في القيادة، فلا تركب سيارتي، وتفضل أن أذهب معها ومع سائقها الخاص إلى جدتي مريم في المستشفى، فقد يسمح لها الطبيب بالخروج بعد ما عانته من الأزمة الصحية الأخيرة، عندما تكون الزيارة إلى جدتي، فإني لا أمانع في الذهاب، سواء مع سائق أمي أو سيراً على الأقدام.

قليلة الكلام هي جدتي مريم اليوم، عيناها تقول الكثير، وكأنها تود الحديث عن السلطعونات الصغيرة التي تحبسها في علبة صفيح صغيرة، أو السلطعونات الأُنثوية الكبيرة، التي تطبخها، وتقدمها لنا في طبق فاخر جدًّا، عندما يكون الموسم مناسبًا لصيد السلطعون، أخبرتها بأن زميلاتي يطلبن منها أن تخصهن بالطبق المميز، ضحكت جدتي، وأومأت برأسها موافقة، ولكن، حين يكون الحال غير الحال.

أمي شيخة، الابنة البكر لجدتي، تعلقت بأمها كثيراً، طلبت من زوجها / أبي، أن تكون والدتها / جدتي، في كنفها، بعد أن صارت - وهي كبيرة السن - وحيدة في بيت كبير، كان في يومٍ ما، يضمها مع جدي، وكل الأبناء وحتى خالتها عائشة، التي رحلت يوم

ولادتي، كان واضحًا لأبي أن أمه سوف تعترض على أن يستضيف والدة زوجته في بيته بشكل دائم، لكن أبي حسم الأمر بالموافقة الحازمة، وجاء بجدتي مريم، وخصص لها غرفة، وحمامًا خاصًّا بها، حتى إن أمي صارت أكثر ليونة، وامتنانًا لأبي، لما صارت والدتها معها في ذات البيت، وأما بيت الذخيرة القديم، فلا تعلم أمي عنه شيئًا سوى أنها خرجت منه، وهي في الثالثة، وأما بيت جدتي في الدوحة، فقد ظل مكانًا تتجمع فيه العائلة في الأعياد، والمناسبات، وظلت أشياء جدتي الخاصة هناك، تطلب من أمي أحيانًا أن تذهب بها إلى مكانها الأول، عندما تشتهي أن تعيش لحظات بين تلك الأشياء القديمة.

أمسكت يد جدتي وهي تنظر لي.

- جدتي، احكي لي، لماذا طلبت من أمي أن تسميني زعفرانة؟ الاسم غريب، بالرغم من أنني أحب اسمي بالفعل، يجعلني متميزة، لكن الجميع يسألني عن سر هذه التسمية، لا أحد في عائلتنا، أو عائلتك له هذا الاسم؟ فما حكايته يا جدتي؟

ابتسمت جدتي بضعف، صوتها الضعيف لم يساعدها على الرد على سؤالي، فأشارت إلى أمي كي تجيب ما تعرفه هي عن سر التسمية، فقالت أمي:

- ما أعرفه يا ابنتي، أن أمي / جدتك كانت تحب هذا الاسم كثيراً، حتى أنها حاولت أن تطلق عليّ أنا هذا الاسم، إلا أن والدتها رحمها الله عارضت بشدة، كما عارض والدي أيضًا

هذه التسمية، فأعطتني اسم والدتها شيخة، ولم تستطع أن تنطق، أو أن تكرر الطلب عندما أنجبت خالتك عائشة، وأسمتها على خالتها عائشة أيضًا، لقد عرفت الخالة عائشة هذه، توفيت يوم ولادتك، الخالة عائشة كانت طيبة، وكريمة النفس مع كل من حولها، كنا نزورها أنا وأمي وخالتك عائشة كثيراً، حتى انتقلت إلى رحمة الله عندما حل أجلها، وأما اسم زعفرانة، فإن أمي لا تتحدث حوله كثيراً، ولكنها طلبت مني، ومن والدك، أن تحمل الطفلة/ أنت هذا الاسم الغريب، لم يجد والدك بدًا، أمام الحاح أمي، سوى الموافقة! فهل توافقين أنت عليه اليوم؟

- نعم أوافق يا أمي، أوافق يا جدتي، فلا تقلقي.

ابتسامة جدتي تعني أنها سعيدة، لم يسمح لها الطبيب بالمغادرة ذلك اليوم، قال سنبقيها أيامًا أخرى تحت الرقابة، حتى نتأكد من سلامتها.

اكتفت جدتي بالشوربة التي أحضرتها لها أمي، وقبل أن تغادر غرفتها، رفعت رأسها نحوي، وقالت بذات الصوت الضعيف:

- اسمك جميل جدًّا يا زعفرانة، لا تفكري يومًا بتغييره.

قبّلت رأسها، ووعدتها ألا أفكر في ذلك أبدًا.

في طريق العودة، حدثت أمي في شأن المؤتمر الطلابي الذي يعقد في سلطنة عُمان الأسبوع القادم، وأنني سجلت اسمي ضمن

الراغبين في الحضور، لم تعترض أمي على ذلك، لكنها لم تعد أن تستخرج لي موافقة أبي أبدًا، فالطلب مطلبي، وعليّ أن أواجه والدي، وأطلب موافقته بشكل مباشر، فإما أن يرافقني في هذا السفر، أو يكون معي في المطار لأخذ موافقته الرسمية ورقيًا على سفر ابنته التي لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد، هذا هو القانون في بلادي، وإن كان كذلك، ولأنه لا أحد فوق القانون، وافق والدي على سفري وعلى أن يُصاحبني إلى المطار، ويكتب تعهدًا بالموافقة، وقد فعل.

اجتمعنا في جامعة مسقط، أنا وثلاث من زميلاتي من جامعة قطر، مع عدد كبير من الطلاب العرب، من كل الدول العربية، المؤتمر الطلابي الكبير، حول قراءة الحاضر من خلال التاريخ للدول العربية، بعض المشاركين كان له أوراق عمل، أحسست بالغيرة العلمية عندما وجدت عددًا كبيراً من الزميلات والزملاء، يقدمن أوراق عمل، إما في شكل بوسترات، أو إلقاء شفاهي للبحث المشارك، لو أنني قد تقدمت في مشروع بحث التخرج، لكنت تقدمت به هنا في هذا التجمع الجميل، لكن لا بأس، سأحضر تلك المشاركات، وربما أخرج منها بما أبحث عنه، من موضوع محلي لمشروع التخرج.

البحر هنا أيضًا، شريط ممتد في شكل كورنيش، لا صخور، على الأقل في الجزء الذي رأيته، لا صخور حادة كالتي مشت عليها جدتي في صغرها، ولا سلطعونات تبحث عن مخبأ من أيادي

الأطفال المزعجة، كورنيش ممتد، من السوق القديم الذي يحتوى ما لا يخطر على البال، من فضيات ونحاسيات، وأدوات وملابس قديمة وحديثة، لا أقاوم أبدًا انبهاري بالفضيات قديمة الصنع، محليًا هنا في عمان، وربما في اليمن، أدوات الزينة النسائية بالفضة، قطع كبيرة وقطع صغيرة كالخواتم، والأقراط، وكم من العملات الفضية التي أظن أن أكبر المتاحف العالمية تتمنى اقتناءها، هنا هذه القطع، أو التحف النادرة في متناول الزائر للشراء، أو التمتع بمشاهدتها.

نادرة، زميلتنا من عمان، كانت خير مرشد سياحي لنا بعد انتهاء اليوم الأول من المؤتمر، نحن النساء لنا قدرة عجيبة على قضاء ساعات في الأسواق، سواء للشراء، أو لتقليب القطع المعروضة، فإذا كنا في سوق المدينة القديم، السوق المتشعب، والذي يحوي كل شيء تقريبا، من الملابس إلى أنواع البخور، إلى الفضيات والمشغولات الذهبية أيضًا في قسم خاص من السوق، زميلتنا نادرة العمانية حاولت أن تأخذنا في رحلة سريعة في السوق القديم، بحيث نكتفي بساعتين لمعرفة أسرار السوق القديم، وحاولت نادرة أن نلتزم بالوقت، وكادت أن تنجح لولا أن منتجات اللبان الشهيرة كانت تعرض أمامنا بفخر، امتد الوقت إلى ثلاث ساعات حتى نقتنع بمنتجات اللبان من صابون وبخور، وعطور لتكون هدايا العودة.

لم يكن حامد العماني، أقل كرمًا، وضيافة من ابنة بلاده نادرة، في اليوم الثاني من المؤتمر، كان لحامد تقديم شفاهي لبحثه

الخاص حول تأثير إمبراطورية عمان في الساحل الإفريقي الشرقي، في ممباسا بالتحديد، تذكرت أغنية من التراث في بلادي، يذكر فيها اسم ممباسا، ذكر حامد أن ممباسا مدينة ساحلية في كينيا، حيث كان لعمان هيمنة سياسية، ورسمية، وما يزال التأثر العماني واضحًا للعيان، لكل من يزور هذه المنطقة، ويعرف كل من يزور المنطقة أن عمان حاضرة هناك حتى الآن رغم المسافات الفاصلة، فأغلب الملابس، والمأكولات والسفن البحرية، تعود إلى النموذج العماني بالتأكيد.

حاورت حامد في ورقته البحثية تلك، وددت أن أعرف المزيد عن هذا التاريخ، كان حامد متعاونًا في الإجابة والشرح المستفيض، تحدث كثيراً عن التواجد العماني القديم في إفريقيا، ثم أشار إلى عدد من المراجع التي يمكن أن أعود اليها لأعرف المزيد حول تاريخ عُمان، وكما فعلت نادرة، عرض علينا حامد أن يصحبنا غدًا في الرحلة المرتبة من المنظمين إلى الجبل الأخضر، وقال إنه يستطيع أن يشرح لنا الكثير هناك إذا كنا من المهتمين بهذا التاريخ، لم أتردد في الموافقة، ووافقت أيضًا زميلتي حصة على مرافقتي، وأما شريفة وسهام، فقد فضلتا زيارة المتحف، ودار الأوبرا السلطانية في صباح الغد.

يرتفع الجبل الأخضر، وهو ضمن ولاية الجبل الأخضر، بما مقداره 3000 متر عن سطح الأرض، ولذلك لا تستطيع أية سيارة أن تصل إليه، ولكن سيارات الأجرة رباعية الدفع، متواجدة بكثرة

عند سفح الجبل، لتوصيل الزوار إلى الأعلى وهو الأكثر برودة حتى في أشهر الصيف الحارة، كما أن المناظر الخلابة تنتظر الزائر هناك، وغالبًا فإن تسمية الجبل الأخضر لا بد وقد جاءت بسبب هذا اللون الأخضر الممتد على امتداد البصر في كل اتجاه، طرقات صعبة، وتحتاج إلى مهارة في القيادة كما تحتاج إلى معرفة خاصة بالاتجاهات، وهذا ما يتمتع به من يتولى القيادة لسيارات الأجرة بالفعل، وأما رفيقنا في الرحلة، فقد ترك لنا أولًا أن نستمتع بجمال الطبيعة الخلابة في هذا المكان الساحر، والطرقات الملتوية، ثم إنه أشار إلى ما يشبه الكهف في أحد الجبال التي يمر من فوقها الطريق، ولا يتوقف أمامها، هنا أشار حامد إلى ذلك الكهف وقال:

- في ذاك الكهف، قضى الإمام أيام الحرب مختبئًا هنا، حتى انتهت الحرب، وسقطت الإمامة.

لم أكن أعرف عن تلك الحرب شيئًا، ولا تقدم لنا كتب التاريخ المدرسية شيئًا حول هذه المعلومة

- أي حرب هذه يا حامد؟
- حرب الجبل الأخضر، حيث كانت هذه المنطقة خاضعة لسيطرة الإمام، بينما أرادت السلطة أن ينضم الجبل الأخضر إلى السلطنة، فكانت الحرب التي انتهت بسقوط الإمامة، وانضمام الجبل الأخضر إلى السلطنة.
- شيق هذا الكلام، لا بد لي أن أعرف أكثر، وأقرأ أكثر، لكن لماذا لم تجعل ورقتك البحثية حول هذا الموضوع؟

- إنه موضوع شائك، ما يزال الحديث حوله يدخل في إطار المحظور، الحديث فيه ضبابي، وحتى المراجع العلمية حوله قليلةٌ جدًّا.

- صحيح؟

- نعم، لا شيء يشبه الحديث حوله لا الحديث حول أعمال السحر، والسحرة التي تكثر في هذه المنطقة كما يقولون.

- نعم، أما هذه فقد سمعت عنها الكثير، وكنت أخشي أن أحدثك فيها لولا أنك من فتح الموضوع هذا.

- لا بأس من الحديث حول ما هو معلوم من هذا الأمر.

- وما هو المعلوم، أو الذي تعرفه أنت مثلا؟

- لا أعرف الكثير، فأنا لست من الجبل الأخضر وإنما أنا من ظفار، بالتحديد أنا من صلالة، لكنني هنا في مسقط منذ ثلاث سنوات لأجل الدراسة الجامعية.

- ما زلت أريد أن أعرف الذي تعرفه عن الجبل الأخضر، وحكايات الأساطير حوله، أو ما وراء الطبيعة التي تشتهر بها هذه المنطقة.

- يقال يا سيدتي، أن طفلة في الخامسة من عمرها، كانت بصحبة والدها الذي يرعى الغنم هنا، في هذه المراعي الغنية، ويقال أن الطفلة اختفت فجأة، ورغم البحث عنها من كل أهالي المنطقة، لم يأت أحد بنتيجة، لم يُعثر على الفتاة، ولا

على جثة لها في أي مكان، وفسر الأمر على أن نسرًا كبيراً قد هبط من السماء العليا، حمل الفتاة بمخالبه، وارتفع بها عاليا.

- ثم ماذا يا حامد؟

- ثم مضى على هذا الحدث عشرون عامًا.

- عشرون عامًا، صارت الفتاة عروسًا في الخامسة والعشرين.

- نعم، يقال إن سيدة عجوزاً كانت ترعى أغنامها هنا، فسمعت صوت امرأة تئن من البرد والجوع، ثم إنها وجدت فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها، عارية تمامًا، شاحبة الوجه زائغة البصر، فأخذتها العجوز، كستها، وأطعمتها حتى شبعت، لكنها - أقصد الفتاة - لم ترد على أي من أسئلة العجوز.

- فماذا فعلت العجوز؟

- العجوز نادت أهل المنطقة جميعًا، دعتهم إلى رؤية الفتاة، علَّ أحدهم يتعرف عليها من ملامحها الغريبة، وعلَّ الفتاة تتعرف على أحد من أهل المنطقة.

- فكرة ممتازة، ثم ماذا حدث؟

- رجل واحد فقط تعرف على الفتاة، هو ذلك الرجل الذي فقد ابنته قبل عشرين عامًا، عن طريق النسر العملاق كما قيل له.

- هل هي فعلاً ابنته؟

- يظل هذا سؤالاً قائمًا، والحكاية لا تمتد أكثر من ذلك، ولا نعرف أين ذهبت الفتاة بعد ذلك وماذا حل بها؟

- حكاية غريبة؟ وهل يعرف هذه الحكاية كل أهالي المنطقة؟
- أعتقد ذلك، فقد سمعت هذه القصة ذاتها دون تغيير من عدة أطراف هنا.
- هل من تفسير منطقي أو علمي لما حدث؟
- كما قلت لك هناك حكايات كثيرة بلا تفسير هنا، لا أحد يبحث حولها، أو يحاول أن يضعها في إطار منطقي، أو تفسير علمي كما تظنين.
- ويظل السؤال؟
- نعم يظل الكثير من الأسئلة، بما فيها الأسئلة حول كتاب الغزال.
- كتاب الغزال؟
- نعم كتاب مجهول المصدر، ومجهول الكاتب، ومجهول المحتوى، ولكن يقال أن للكتاب أصدقاء هنا في هذه المنطقة، يحدثهم، ويحدثونه ويعلمهم التواصل مع روح الكون، ولا أعرف أكثر من ذلك، فلا تسألي أكثر.
- حامد، أنت رجل مثقف، لا يمكن أن تصدق هذا الحديث.
- هل قلت لك أنني أصدق أو أنني لا أصدق؟ لكن ما اسمك بالمناسبة؟
- أووو، أنا لم أعلمك باسمي حتى الآن؟ اسمي زعفرانة.
- زعفرانة؟ لم أسمع بمثل هذا الاسم قبل الآن؟

- نعم أعلم ذلك؟ اسم غريب، ولكنني أحبه.
- هل هو من أسماء العائلة لديك؟
- لا، لكن جدتي أحبت هذا الاسم كثيراً، وأسمتني به بعد أن طلبت ذلك من أمي وأبي.
- تعرفين يا زعفرانة، اسمك هذا سمعته في صلالة فقط، سمعته كاسم يُعتز به.
- سمعته في صلالة؟ في الجنوب؟ ماذا تعرف عنه؟
- يقال أنه لامرأة غريبة! عاشت زمن الثورة، أقصد الحرب، ربما هي مجرد أسطورة من أساطير أزمنة الحروب.
- حرب الجبل الأخضر؟
- لا، بل حرب ظفار، في منطقة ظفار، في الجنوب، منطقة جبلية وعرة.
- تقول امرأة غريبة؟ ليست أصلاً من هنا؟
- كما سمعنا - نحن جيل ما بعد الحرب - لا ليست هذه السيدة من هنا، لا أعرف من أين هي، لكن كان لها، ولزوجها دور في الحرب الدائرة في المنطقة؟ دارت حولها حكايات كثيرة، كما قلت لك إنها حكايات فقط، أقرب إلى الأساطير، لكن تلك الحكايات والحرب انتهت إلى لا شيء في النهاية.
- حكايات مثل ماذا يا حامد؟ الأمر يهمني.
- لا أتذكر الكثير الآن؟ لكن لا بد أن هناك من يتذكر هناك في منطقتي.

- هل تقول الحكايات من أين أتت تلك السيدة؟

- والله أعلم.. تقول الحكاية إن زعفرانة الأسطورة كانت تحكي لمن حولها أنها من مكان بعيد عن هنا.. يسمى.. الذخ.

- الذخيرة؟

- نعم، ارتبط اسم زعفرانة الأسطورة بمكان يسمى الذخيرة.

الفصل الرابع

مريم.. تحكي من جديد

استمرت خطبتي عامًا كاملاً، وهذا غير معتاد في قريتنا، والقرى القريبة. عام كامل، حبيسة البيت، فليس لي، وأنا زوجة لرجل لا أعرفه طبعًا، ليس لي أن أخرج إلى صويحباتي في القرية، ليس لي أن ألعب معهن لعبة نط الحبل، ولا لعبة "**القيس**" المفضلة عندي، فأنا في عداد الكبار الآن، أو أنني على وشك أن أدخل عالم الكبار وأنا في الرابعة عشر من عمري، كان جُلَ وقتي مخصصًا لتنظيف البيت من التراب الذي لا يهدأ أبدًا، ما أن أكمل عملية تنظيف حوش البيت، حتى تهب الرياح لتعيد التراب إلى ما كان عليه، فأبدًا عملية الكنس ثانية، وما بين وصلات التنظيف المستمرة، كانت أمي شيخة تعلمني فنون الطبخ بأنواعه، فهناك رجل قد صار زوجي بالفعل، يتوقع مني هو، وأهله الكرام، الذين سأكون في بيتهم بعد الزواج، كنتهم الأُولى، علي أن أثبت أنني خرجت من بيت كريم؛ علمني كيف تكون الزوجة الصالحة التي تعرف كيف تلبي حاجات زوجها، وتلبس أمامه، وأمام أهله وسام الطاعة الكاملة والمؤبدة.

تأخر موعد العرس، لأن والدة زوجي، أو عمتي كما يجب أن أقول لها، قالت إن تاجر بيت الزعلان الذي يعمل معه زوجي المجهول، قد أرسله في مهمة تجارية إلى الهند، هكذا سمعتها تقول لأمي، وأمي ترد عليها:

- يرجع بالسلامة.

تأخير موعد العرس هذا، جعلني على موعد مرتبك مع عرسي القادم، لم يكن هذا الحال مع حمدة جارتنا، التي اختفت من الشارع الذي نلهو فيه قرابة الأسبوع، لنعلم في نهاية ذلك الأسبوع أن حمدة عروس تزف إلى عريسها غدًا، وأن الدزة التي دعيت إليها كل نساء الحي، بعد الغد. اختلف الحال معي، حين سافر زوجي في مهمته التجارية، إلى بلاد الهند البعيدة، وبقيت في كنف بيت أبي وأمي، أتعلم فنون التنظيف، وفرك أواني المطبخ، النحاسية والفخارية وغيرهما، وأطبخ كل أنواع الطعام، بعد أن أشعل النار على الخشب الذي يأتي به أبي من تاجر في سوق القرية، وهذا يأتي بالأخشاب من سوق الدوحة، مرة واحدة أول كل شهر عربي، وهكذا، وعلى هذا الإيقاع تعلمت كيف أشعل النار، وكثيراً ما صرخت أمي في وجهي، عندما أبدًا في السعال مع تصاعد الدخان، والتصاقه بوجهي، أمي ترى ألا أسعل أمام النار حتى لا أبدو أمام عمتي، كمن لا تحسن إشعال النار في الأخشاب عند الطبخ.

خلال فترة خطبتي الطويلة، حرم عليّ أن أُجالس النساء ممن يأتين لزيارة أمي في ضحى الأيام، لتنتهي زيارات الضحى قبل

أذان الظهر، وحين كانت الجارات في زيارة أمي، عليّ أن أدخل غرفتي، ولي أن أقرأ القرآن، أو أن أخيط الملابس التي تقطعت من كثرة الغسيل؛ ملابسي، وملابس أي أحد من أعضاء أسرتي، وحين يداعبني النعاس بعد قراءة سورة من القرآن الكريم، أغلق المصحف الشريف، أُقبل غلافه، وأضعه على جبهتي احترامًا وتقديرًا لكلام الله العلي القدير، ثم أتلفت في غرفتي، أبحث عن أي شيء للتسلية؛ يُذهب النعاس ويأتي بشيء من الترفيه، فما وجدت إلا صندوقًا خشبيًّا ثقيلاً، تزين أطرافة بقطع نحاسية لامعة، هذا الصندوق الذي يسمى هنا "**صندوق مبيت**" هذا الذي سوف توضع فيه لوازم عرسي القادم، اشتراه لي أبي قبل عدة أعوام، اشتراه من أحد الجيران الذي ماتت عجوزهم، فأخرج ابنها - الذي لم ينجب بنات - صندوق المبيت للبيع، وكان أبي أول من رآه قبل أن يصل بالصندوق إلى السوق، فقايضه على سعر الصندوق، واستخدم عبارته الشهيرة "حق الجيرة"، فلم يمانع الجار وقبِل بالقليل الذي عرضه عليه أبي.

وحين جاء أبي بالصندوق إلى البيت، غضبت أمي كعادتها من تصرفات أبي غير المسؤولة، قالت له إنها لا تحتاج صندوقًا غالي الثمن مثل هذا، وإن هذا إنما للعروس وليس لمن هن مثلها، فرد عليها أبي ببروده المعهود أيضًا:

- الصندوق ليس لك يا شيخة، إنه لابنتي مريوم، ستصبح عروسًا يومًا ما، وأريدها أن تخرج من بيتي، وحاجاتها في صندوق

مثل هذا، تحسدها عليه النساء، قبل الشابات، أريد لها أن تدخل بيت زوجها يصاحبها عز أبيها.

لم تتحدث أمي كثيراً بعد كلمات أبي تلك، وطلَبَت من أبي أن يدخل الصندوق الثقيل إلى غرفة مريوم، كما كانت تسميني قبل أن يدق الخاطب بيتنا، فتعود تسميتي مريم، ظل الصندوق في غرفتي سنوات، تغطيه أمي بقطعة قماش قديمة، حفظًا له من التراب والتلوث، صار وجوده في الغرفة كجزء من أجزائها، أو كحائط من حوائطها، وكأنني اكتشفت وجوده ذلك اليوم، وأنا أبحث عن مجال للتسلية، أو مادة للترفية، حاولت أن أزحزح الصندوق، فلم أستطع لثقله، ولضعف بنياني الجسدي، لكني فجأة اكتشفت أنني لو وقفت فوق الصندوق، فإنني سوف أصل إلى النافذة المطلة على الشارع، أسمع منها صوت خروج الغنمات للرعي في الصباح، وعودة القطيع دون راعٍ لإرشادهم، أسمع عودة القطيع قبل أن يخيم الظلام على قريتنا، ومن تلك النافذة يصل صوت المؤذن ينادي للصلاة خمس مرات في اليوم، وأسمع صياح بعض الصبية يتزاحمون قريبًا من النافذة، تتعالى أصواتهم، وهم يتمازحون، وما أن ألبث قليلاً، إلا وتختفى الأصوات عندما يبتعد الصبية عن نافذتي، وعند سكون الليل، يأتي صوت المذياع الذي يحمله حارس الحي، وهو يطوف بين السكك، والمساحات، يحمل مذياعه الصغير، يغني أحيانًا، وأحيانًا يحكي حكايات وأحيانًا يدعو إلى تقوى الله، والإحسان إلى خلقه.

هجمت فكرة الوقوف على الصندوق على رأسي، كمن وجد كنزًا يراه لأول مرة، لم أحدث نفسي كثيراً إذا ما كان هذا مقبولاً أو غير مقبول، جائزًا أو غير جائز، كما تقول لي أمي دائما، لكن أمي غالبًا ما تضع الأشياء والأفعال في خانة، غير المقبول وغير الجائز، فلا ضير أن أتجاهل تصنيف أمي للأفكار العظيمة، مثل الوقوف فوق الصندوق، والإطلالة على الشارع خلف بيتنا.

وكأنني أرى تلك الساحة خلف بيتنا لأول مرة بالفعل، منظر بديع رأيته، ساحة متسعة، يبتعد بيت أقرب جار عنا قرابة ثلاث دقائق سيراً، لكن بيت الجار أيضًا له نافذة صغيرة تطل على ذات الساحة، خفت أن يطل منها وجه الجار أو الجارة، إلا أن نافذة الجار قد تم تغطيتها بقماش كستارة. والستارة، مسدلة بإحكام، وهنا اطمأن قلبي، وركزت بصري على الساحة، وبعض الأطفال العائدين من الدكان القريب، في أيديهم قطعة مصاصة، أو أصبع شكولاته يتلذذ صاحبها بقضمها أمام أصحابه ممن لا يملكون ثمنها، وما أن خرج الأطفال من دائرة النظر التي أملكها حتى سمعت جرس عجلة قادمة من بعيد، انتظرت حتى دخلت العجلة، والشاب الذي يقودها إلى دائرة النظر، الشاب المليح صاحب العجلة، صار يدور بالعجلة في الساحة الفسيحة، وكأنه يتدرب على ركوب الدراجة، صار يصنع دوائر على الأرض الترابية، أحيانًا يقترب من حيث أطل من النافذة، فأخفض رأسي كي لا يراني، ثم يبتعد، فأعيد النظر إليه، ولحركاته البهلوانية، حتى سقط أرضًا مع محاولته الانحناء بشدة إلى اليمين، شهقت بصوت مسموع، وصل

الصوت إلى الفتى فالتفت إليّ ورآني، ركزت النظر نحوه مسلوبة الإرادة، ثم خفضت رأسي مع سماع صوت أمي تنادي "مريوم"، وقد غادرها ضيوف الصباح، وصار الوقت مناسبًا لإعداد الطعام استعدادًا لعودة أبي.

ظلت صورة الفتى في رأسي، حتى مع وصول دخان الخشب المحترق إلى صدري، وازدياد حدة سعالي، ظلت صورة الفتي صاحب العجلة، تقطن رأسي، حتى إذا عدت إلى غرفتي، وقفت على الصندوق، ونظرت إلى الساحة، فلم أجده، لا أعرف سبب الحزن، أو الخيبة التي أحسست بها، لكنني حزنت لذهابه، فانتظرت حتى يوم الغد، وعند دخولي إلى غرفتي / محبسي، صعدت فوق ظهر صندوقي العزيز، فلم أجد الفتى، لكن أطفالاً كانوا يتشاجرون على عملة معدنية، كلٌّ منهم يدعي أنها ملكه، خصامهم هذا كان مملاً، ولا يدعو إلى متابعة المراقبة، نزلت من برج المراقبة، وأخرجت الخيوط الملونة التي جاءت بها أمي، وأخرجت ثوبي الأزرق، الذي انشق في منطقة تحت الإبط، بدأت في خياطة الشق المتسع، وفي رأسي صورة فتًى مليح، ينفض التراب من ثوبه، بعد أن سقط من مقعد العجلة.

أكملت حياكة الشق في الكم الأيسر من الثوب، وأعددت الإبرة، وخيطًا طويلاً لحياكة الشق في الكم الأيمن من الثوب، فإذا بصوت جرس العجلة، قريب من نافذتي، تركت الثوب جانبًا، أخذت مكاني فوق الصندوق، فإذا بالفتي المليح، واقف تحت نافذتي، يدق جرس العجلة، ليس ليفسح له المارة الطريق، ولكن كي أطُل

عليه فأراه، رآني فابتسم، رأيته فابتسمت، لكنني فورًا خفضت رأسي، خوفًا من شيء ما، لا أدري ما أخاف منه، لكن هذا الجرس وهذا الإطلالة، لا بد أنها تصنف في خانة غير المقبول وغير الجائز، وعليّ ألا أستمر.

في اليوم التالي، كنت أنتظر الفتى صاحب العجلة، أطللت برأسي بمجرد سماع صوت الجرس الذي أعرف، رآني، فصار يغني، يدور بالعجلة في الساحة الفسيحة، ويغني، لا أعرف الأغنية لكن لحنها جميل، لو كان قريبًا لسألته ماذا تقول الأغنية، اكتفيت بالمراقبة، حتى سمعت صوت أمي المنادي، لا أعرف كيف جرؤت، ورفعت يدي للتحية مودعة، وخرجت لأمي سعيدة بشوشة، ولم يكن عند أمي ضيوف ذلك اليوم، فقد ذهب أغلب السيدات إلى جارة لنا سوف تضع توأمًا من الصبيان، وكل امرأة في الحي تظن أن عليها دورًا تؤديه لتنقذ الجارة وطفليها، فتجمعن في بيت أم راشد، وتركن أمي، تغتنم الفرصة لتعلمني كيف أشوي السلطعون.

يقاوم السلطعون الموت بشدة، يخرج من الماء المغلي عدة مرات، قبل أن يستسلم ليكون ضيف المائدة، كان عليّ أن أغالب الخوف من السلطعون، وأعيده إلى الماء المغلي كل مرة، ترقبني أمي، وتتابعني بالإرشادات والتعليمات، كان عليّ أن أتقن طبخ السلطعون بالتركيز مع تعليمات أمي، لكن جرس العجلة يدق من خلف بيتنا، وأمي منغمسة في درس التعليم الخاص، لم أستطع الفكاك من أمي، ولم أتمكن من تبادل النظرات مع الفتى المليح بسبب السلطعونات اللعينة، رغم امتداح أمي لعملي أمام أبي ذلك

اليوم، كنت حزينة، وغاضبة من تلك الكائنات التي أضاعت مني فرصة اللقاء في ذلك اليوم.

استمر رنين الجرس أمام نافذتي، لأيام أو لأسابيع، واستمرت محاولات التخلص من قبضة أمي المتشددة، بالتحديد قبل أذان الظهر، الموعد الذي تعودته مع رنين جرس العجلة، حتى ذلك اليوم الذي سمعت فيه الرنين العذب، وأنا في حضرة أمي، تحججت بحاجتي لقضاء الحاجة، وركضت إلى غرفتي، ونسيت الباب مفتوحًا، صعدت على الصندوق الخشبي الصديق، لأقابل الصديق صاحب العجلة، رأيته، فبدأ بالغناء والصفير، وأنا أضحك، ويغطس رأسي بين كتفي، لم أشعر بدخول أمي إلى الغرفة، ولكنني شعرت بصفعة قوية على مؤخرتي، طبعت أصابع أمي على المؤخرة لأيام، هي نفسها تعجبت من قوة صفعتها تلك، لكنها كانت تكرر "تستاهلين". سمعت من أمي ذلك اليوم كل أنواع الشتائم واللعنات، ذكرتني أن هناك رجلاً كريمًا يعمل من أجل أن أكون عروسه يومًا، وهذا ما أجازيه به، فلم أخجل من أمي، ولكنني حزنت أنني لم أر الفتى المليح الذي هرب عندما سمع صرختي مع صفعة أمي، ولم أره ولم أسمع رنين جرس العجلة، منذ ذلك اليوم.

أخرجت أمي الصندوق من غرفتي، ووضعت على النافذة ستائر ثقيلة، فلم يكن بإمكاني أن أصل إلى مستوى النافذة، ولم يكن للنافذة معنى بعد توقف رنين الجرس، عدت أخيط الملابس المقطوعة، وأقرأ كتاب السيرة النبوية الذي قدمته لي المطوعة عندما حفظت أجزاء خمسة من القرآن الكريم، تعودت على الدار،

وعلى غرفتي كمحبس لا أخرج منه إلا في حال عدم وجود ضيوف، حتى امتلأ البيت بالضيوف في يوم زفافي.

لم يكن ظاهرًا لي أن خالتي عائشة سعيدة لأجل زواجي الميمون، كانت ما تزال تعتبرني طفلة تستحق الدلال، كذلك كان زوجها، زوج خالتي السيد خليفة، رأيته قبل الزفاف بيومين في باحة البيت يكلم والدي، كان التجهم ظاهرًا على وجهه، لكن أيًا من الزوجين، لم ينطق كلمة احتجاج، فهذا الشأن لوالدي ووالدتي وحدهما، ورغم ضيق الحال الذي أعرفه عن بيت خالتي، أصر السيد خليفة أن تكون وليمة الزواج على حسابه الخاص، فقدم ذبيحتين من الخراف السمان لعشاء الضيوف يوم الزواج، جاءت أمي بقطع الذهب التي قدمتها أم العريس وهي سعيدة، تفاخر أن ابنها قد جاء بهذه القطع الذهبية الثقيلة من زيارته الأخيرة إلى بلاد الهند البعيدة، كانت تقول:

- تستاهل عروستنا.

لا أدري ما الذي أستأهله أو أستحقه فعلاً، أن أُزف، وأنا في الرابعة عشر من عمري إلى رجل لم يقف عند نافذتي، ولم يسمعني رنين جرس العجلة، ما الذي أستحقه يا عمتي؟ أن أكون كنتك الأولى في البيت الذي يضم ثلاثة إخوة من الرجال لزوجي؟ وغدا سيكون في نفس البيت ثلاث كنات سواي، ثم تنجب الكنات الأخريات، وأنا، أطفالاً كثرًا، يملؤون البيت صراخًا، ويملأون رؤوسنا بالصداع؟ لا أعرف ما الذي أستحقه يا أمي، لا أعرف ما أستحقه يا عمتي.

أحسست بالراحة الشديدة عندما عرفت أن بيت زوجي في نفس القرية، عشر دقائق أو تزيد قليلاً هو مسافة السير على الأقدام من بيت أبي إلى بيت زوجي. كان موكبًا جميلاً يوم خروجي عروسًا من بيت أبي، مشينا معًا، أنا وأمي وخالتي عائشة، وأمامنا من يحمل صندوقي المبيت ممتلئًا بكل ما اشترته لي عائلة زوجي من ذهب، وعباءات سوداء وملابس، وبخور متعدد الأشكال، تقودنا في المسير عمتي أم زوجي إلى بيتها، يصاحبنا عدد من نساء القرية، بل كل من أعرفه من نساء القرية؛ أم نورة وأم جابر وأم يعقوب أيضًا، وهي تمشى الهوينى، وتعلي الصوت بالزغاريد تحية لأهل العروس، وأهل العريس القادم بكميات من الذهب من بلاد الهند. عندما وصلنا، كانت وليمة الغداء قد أُعدت للنساء؛ كل من شارك في توصيل العروس إلى بيتها. وليمة ذلك اليوم تسمى "**الهدية**" وكأن حشد النساء هؤلاء قد أتوا بالعروس هدية إلى بيت زوجها الكريم، وسوف يكرمهم الكرام بوليمة ضخمة من الأرز واللحم أو الدجاج، بحسب الحال، والقدرة المالية.

تعودت لاحقًا على البيت الكبير، والطبخ للعائلة بالنفخ على الأخشاب ليزيد اشتعالها، تعودت ألا أكون صغيرة، وأن ألبس العباءة السوداء التي تغطي كامل جسمي، على غطاء الوجه الأسود أيضًا، فأنا امرأة لا يجب أن يظهر من جسدها شيء أمام الرجال الأغراب في الشارع، قليلاً ما كانت تسمح لي عمتي بزيارة بيت أهلي، ويسمح لأمي أن تزورني وقت شاءت، وكذلك خالتي عائشة التي كانت تزورني أكثر من أمي، كانت تلح في السؤال عن

حالي، وأجيب بالرضا عن الحال، فتسكت خالتي، ولا تزيد من الضغط عليّ، داومت خالتي عائشة على زيارتي لشهور طوال، لم تظهر عليّ علامات الحمل خلالها، فوجدت أمي تحدثني متجهمة، تسأل عن زيارات أختها المتكررة إلى بيتي، ثم تلقي بوساوسها في وجهَي:

- أختي امرأة عاقر، لا أريد تكرار دخولها إلى بيتك، يطبع عليك هذه الصفة.

وكأن أمي صفعتني بقسوة أكثر من صفعتها على مؤخرتي عندما اكتشفت مصدر جرس العجلة، والصندوق الخشبي الذي أقف فوقه، هذه المرة أحسست الصفعة على وجهي مباشرة، أحسست حرارة جسمي ترتفع، بل بالرعشة في أطرافي، ولا أستطيع أن أرد أمي عما تقول، وتفكر فيه، ولن تجدي أفكاري المسكينة في تغيير ما تفكر فيه أمي كما أعرفها، ضمرت في نفسي الغضب والحزن حتى خرجت أمي، لبست عباءتي، واستأذنت عمتي في الخروج، فسمحت على مضض، خرجت أشق الطريق إلى بيت خالتي عائشة، استغربت دخولي في تلك الساعة، لكنني طمأنتها بأنني الآن قد حصلت على ثقة عمتي، أستطيع الخروج إلى من أريد، وأن أزور من أريد، وإنني أحببت أن يكون بيت الخالة أول من أزوره وأنا امرأة تلبس العباءة، فرحت خالتي بكلماتي وأجلستني لأشرب القهوة التي تقدمها لي مع حبات التمر، كما تفعل النساء الكبار مثيلاتي، شربت القهوة، وتناولت حبتين من التمر، ثم قلت لخالتي:

- ما رأيك أن نزور أم يعقوب يا خالة؟ حكاياتها حلوة شيقة، كما كنت أستمع لها، وأنا محبوسة داخل غرفتي في بيت أبي؟ أم يعقوب امرأة كبيرة السن، لكن حكاياتها الشيقة، تشدني إلى مجالستها.

رغم استغراب خالتي من هذا الطلب الذي لم تتوقعه مني أبدًا، لم تمانع أن تحقق لي أي رغبة أريد، لبست عباءتها، وغطت وجهها **بالغشوة**، وخرجنا متجهتين إلى بيت أم يعقوب، رغم بعد بيتها، كنا نتسلى بحكايات شتى، اغتنمت فرصة أننا نتحدث بعيدًا عن أمي، وعن عمتي فتحدثت لها بما في نفسي، حتى أني اعترفت لها بالولد المليح صاحب الدراجة، والجرس ذي الرنين، ضحكت خالتي حتى كادت أن تسقط أرضًا، قارنت بين موقف خالتي، وموقف أمي من تلك الحكاية التي لم تبدأ، هاتان الأختان وُلدتا من بطن واحد، لكن لكل منهما شأن مختلف، سألت خالتي:

- هل تظنين أن صاحب العجلة يعرف أنني تلك التي كانت تطل من النافذة؟

- لا يا عزيزتي، لا أظن، لقد ذهب لحال سبيله الآن، لا أظنه يتذكر تلك النافذة، والوجه البريء الذي يطل منها، وأنت الآن زوجة لرجل كريم كما تقولين أنت، وهو له الحق أن تتمسكي بالمحافظة عليه، وإكرامه كما هو يكرمك، عليك نسيان الفتي المليح هذا، والعجلة والجرس، قريبًا ما تصبحين أمًّا لأطفال

جميلين، وسوف تشترين للكبير عجلة بجرس أحلى وأعلى رنينًا من الجرس القديم.

وصلنا بيت أم يعقوب، استقبلتنا بفرح وانشراح، وأتت بالقهوة العربية والتمر، وزادت عليها بعلبة من البسكويت اللذيذ، قالت إن أحدهم جاءها بهذه الهدية، امتدحت طعم البسكويت، ومجاملة كما يفعل الكبار في مجالسهم، اعتدلت في جلستي وسألتها:

- كيف هي جارتك العجوز الغريبة يا أم يعقوب؟

- أي عجوز تقصدين يا مريم؟

- العجوز التي ظهرت فجأة في بيت الزعلان، أذكر حكايتك حولها يوم كانت ضمن المدعوين إلى دزة حمدة. أتذكرين؟

- نعم نعم، زعفرانة، حكاية غريبة جدًّا، نعم ما تزال تقطن بيت الزعلان، قليلة الكلام إلى حد الصمت، حاولت زيارتها بعد ذلك اليوم، قليلاً ما كانت ترفع رأسها ترد السلام، كبرتْ أكثر كما كبرتِ يا صغيرتي، وصرت تسألين عن الحكايات والقصص الشائكة، كبرتْ زعفرانة، وصارت حركتها ثقيلة أكثر من السابق، لولا صاحبة الدار، لكانت ماتت في غرفتها دون أن يعلم بها أحد، جزاها الله خيراً على رعايتها للعجوز زعفرانة.

التفت إلى خالتي عائشة، وقلت لها:

- لماذا لا نزور زعفرانة يا خالتي؟ سيكتب لنا أجر كبير إذا اهتممنا بها.

تعجبت خالتي من طلبي الثاني اليوم، وعدت بتلبيته قريبًا، لكننا الآن علينا بالعودة سريعًا، فلا تغضب عمتي أم زوجي من تأخري خارج البيت، ثم إنها قد ترفض أن تسمح لي بالخروج ثانية، وعدت خالتي بالمرور عليها، بدلاً من مرورها هي على بيتي كي نخرج معًا لزيارة العجوز زعفرانة.

كانت خالتي عند وعدها، كانت تلبس عباءتها، وتنتظر وصولي، وعندما وصلت قالت لنبدأ الزيارة الآن حتى نعود في وقت مبكر، وقد كان، كنا نتسامر في الطريق إلى بيت الزعلان، القريب من بيت أم يعقوب، ولم آتِ على ذكر صاحب العجلة وإن كنت أتلفت حولي، وأدقق النظر من خلف غطاء الوجه الأسود السميك، لعل الفتى يكون مارًا في طريقه من هنا، لكن طريقه لم يتقاطع مع طريقى بعد صفعة أمي تلك، حتى إذا وصلنا بيت الزعلان، رحبت بنا صاحبة الدار بشيء من البرود، وشيء من الاستغراب، لم تمانع في زيارة العجوز، فقد حملت خالتي لها موزًا وتفاحًا، مما يأتي به زوجها السيد خليفة، وقد صار يعمل في شركة النفط القريبة، لم تمانع صاحبة الدار في زيارة العجوز، دون أن نذكر لها أننا نعلم عن هويتها شيئًا، فما تزال صاحبة الدار، تكرر أن تلك العجوز امرأة فقيرة لا أحد لها في هذا العالم بعد وفاة الزوج، والأبناء، فسمح لها بالبقاء في البيت طلبًا للأجر من الله، هززنا رأسينا تأكيدًا لتصديق الحكاية، ثم قمنا إلى الدار الخارجية حيث العجوز.

باردة جدًّا دار العجوز، لا يدخلها النور إلا من شق في الحائط، يعمها الظلام، وهي لا تعبأ بالظلام اليوم، وقد ذهب النور من عينيها، وربما لم تعد تشعر بالبرد من شدة جفاف جلدها الذي يشبه صدفة بحرية، دخلنا الدار بحذر، نادينا عليها بالسلام، فردت السلام بصوت خفيض، جلسنا بقربها، تدخلت خالتي لتبدأ الحديث، وما الحديث إلا السؤال عن الحال:

- كيف أنت يا خالتي؟ جئتك وابنتي هذه للسؤال عنك؟ جئتك بموزة، وتفاحة، أرجو أن تكوني تحبين التفاح الأحمر.

تناولت العجوز الموز، أعادته لتقشره خالتي، ثم بدأت في قضم لقيمة، ثم أخرى من الموز الطري، لا أسنان تستطيع بها أن تقضم التفاح، أعادت التفاح إلى خالتي التي رأيت دمعاتها تنزل حزنًا على مشهد العجوز التي قالت وهي تعيد التفاحة إلى خالتي:

- في المرة القادمة، اسلقي التفاحة في الماء الساخن حتى تلين، فأستطيع أن آكلها بيسر.

كانت لي ولخالتي مرات قادمة كثيرة لزيارة زعفرانة، خالتي تسلق التفاحة حتى تصير رخوة، تضعها في وعاء، وتأتي بها للزيارة، فتشرع العجوز بالأكل، وتساعدها خالتي بوضع الملعقة في فمها، فتتلذذ بالطعم الحلو للتفاحة المسلوقة، زادت خالتي من إعداد الأكل الطري للعجوز، بطاطا مسلوقة، ومهروسة، دجاج مطبوخ لدرجة الاهتراء، كل أنواع الخضار المتوفرة، كانت خالتي تطبخها حتى تكون هريسة سهلة للبلع والهضم، كنت أثناء زيارتنا هذه، أنظف

دار العجوز، بناء على طلبها، أشد الحبل المربوط بين باب غرفتها، ودار قضاء الحاجة، فعندما يرتخي الحبل، لا تستطيع أن تبلغ غايتها إلى الحمام، كنت أتأكد من قوة شد الحبل في كل مرة أزورها مع خالتي، أتينا لها بلحاف دافئ للأيام الباردة، وملابس نظيفة، حتى صارت صاحبة الدار تترك لنا مهمة العناية بالعجوز، تركت لنا حرية أن نزورها متى شئنا، وصارت العجوز أكثر تلقائية معنا في الحديث الذي لا يعدو كلمات متقطعة، حتى إذا وقعت خالتي ذات يوم في حفرة لم تعمل لها حسابًا، وجلست في بيتها أشهرًا لا تستطيع الحراك، داومت على زيارة زعفرانة، ولا أنسى أن أسلق التفاح الذي تحبه العجوز، وأذهب به إليها.

سألتني يومًا إن كنت متزوجة، وإن كان لي أولاد، فأجبتها، لا حمل حتى الآن، أمسكت بيدى، وطلبت مني أن أردد:

يا حاسب يا محاسب..

يا فاعل يا مفاعل..

يا نور يا منير..

اجعل من نورك بذرة تسقط في رحم هذه المرأة لتنمو.

قرأت وراءها ما قالت، رددت الكلمات ثلاث مرات كما قالت، ثم سألتها:

- ما هذه الكلمات والأدعية يا خالتي؟

- شيء من كتاب قديم.. حفظته عن ظهر قلب.

الفصل الخامس
زعفرانة والجبل

لم أكن أعرف سوى رائحة البحر عندما خرجت مع عبيد من الذخيرة، أعرف التراب الرطب البارد، والصخور الحادة على الساحل، كما أعرف الحجية فاطمة، وكل ما علمتني إياه لكني لم أكن أعرف الجبل، وقسوة الجبال الصخرية، لا أعرف فنون الرعي التي أتقنتها فيما بعد، كنت غريبة لا أجيب أحدًا عن أصلي إلا بكلمة (الذخيرة) فتمط النساء شفاههن، ويتندرن على عبيد الذي ذهب بعيدًا، وغاب كثيراً، ثم عاد بهذه الصامتة ذات العين اللامعة، لم أرفضهن، ولم أعبأ بالشفاه الممطوطة، ولا بحركات اليد، التي تعني اللا مبالاة بوجودي، أحببت كل ما قدمه لي عبيد من لوازم الوجود هنا، حتى الحصيات التي أضربها ببعضها البعض لتشعل النار في الحشائش الجافة. فقط هي شامة، زوجة أحمد، أحد أقرباء عبيد، من قريب أو بعيد، شامة قضت في صحبتي نهاراً كاملاً حتى أتمكن من إشعال النار في الحشائش بضرب الحصى الخاصة تلك، بعضها ببعض.

لم تحمل شامة الكثير من الفضول تجاه المكان الذي جئت منه، واكتفت بما ذكرته لها حول الذخيرة، إنها بعيدة، كانت تطيل النظر

في عيني، وهي تتحدث معي، تعلمني كيف أغزل الخيام، والألحفة التي تقاوم البرد الشديد هنا، كيف نغزلها من صوف الماعز والخراف، حتى صباغة تلك الألحفة، كان لها أسلوب خاص تعلمته من شامة، أظن أن كل ما يملكه عبيد هنا، هو هذا البيت الصفيح، وأربع عنزات حلابات، وتيس واحد هزيل. كانوا عنزة واحدة، وتيس عندما ترك عبيد بلدته هذه وذهب بعيدًا، ذهب ليأتي بي كما قال لاحقًا، وضع العنزة والتيس الفحل - بحسب ذلك الوقت - وضعهم في أمانة أحمد، حتى صارت العنزة أربع عنزات، لا بد أن شامة كانت تغذي تلك الأمانة، حتى توالدت، وكبرت.

علمتني شامة مهنة الرعي، وبارك زوجي عبيد هذه العلوم التي لا حياة دونها هنا، كنا نخرج في الصباح الباكر، ولا نعود مع الأغنام حتى المغرب، هناك في المراعي الجبلية، تجد الأغنام مرعاها، خاصة بعد موسم الأمطار الذي يعرفه عبيد ويعرفه الجميع هنا، وعند العودة يكون وقت تجهير الأكل للزوج والعائلة، كان عبيد هو عائلتي، ولم يجيبني عندما سألته أين الأهل والعائلة، فقط قال:

- أنا مثلك يا زعفرانة.

رضيت بإجابته تلك، ولم أنظر خلفي منذ وصلت إلى هذه الديار الجبلية، الصخور قاسية، والمشي عليها للرعي يلزمه ما يحمي الأقدام من وعورة الصخور، لم أبال، مشيت فوق الصخور

الحارة حافية دون أن تحترق قدمي، استغربت شامة من قدمي السليمة، فلا جراح ولا شقوق في قاع قدمي، نظرت إليّ ولم تسأل، ولم أُجب عن سؤال سقط من عينيها.

كل ما يلزم الحياة، يأتي من الجبل اليوم، تتحدث النساء هنا عن أكياس الأرز والطحين والسكر، التي كانت تصل إلى الجبل بشكل مستمر، حتى الأقمشة الملونة وخيوط التطريز، كانت تصل إلى ما يسمى سوق الجبل، هو على مسافة ربع يوم سيراً على الأقدام، لكن سوق الجبل هذا قد أقفل بابه قبل شهور طويلة، ولم يعد الطحين والسكر يصلان إلى جبلنا، ولا ما يحيط بنا من هضاب، وجبال.

- إنها الحرب.

قالها عبيد، وقالها أحمد لشامة، وقالتها النساء نقلاً عن أزواجهن "إنها الحرب".

- لم تعد السفن التجارية تأمن على نفسها من المرور في البحار المفتوحة، وإذا وصلت لبلادنا إحداها، فإن ما تحمله من بضاعة - غالية الأسعار - إنما تكون لعلية القوم، وليس لنا، نحن أبناء الجبل الفقراء.

قالها عبيد في غضب مكتوم، ولم يزد على ما قاله كلمة، تكفي تلك الكلمات أن أعمد إلى صنع الطحين من الفطر المجفف والمسحوق، أنواع كثيرة من الفطر تنمو هنا في الجبل، علينا أن نعرف فقط ما هو الفطر المفيد من الفطر السام، أُعجب زوجي

بالخبز الذي صنعته من الفطر المجفف، كما أعجبه السكر المستخرج من حبات الرطب، في طوره لأن يصير تمرًا، ثم دبسًا من التمر، إذا كانت الحرب هي السبب لعدم وصول مقتضيات الحياة، فلتكن مقتضيات الحياة أقل مما كانت سابقًا، لم أكن لأشتكي من قلة ما بيدي، فيدي مشغولة بما يشتهى عبيد، وما يشاء عبيد.

صيد البحر كان يصل إلى الجبل كل ثلاثة أو أربعة شهور، عندما يقرر أهل الساحل صعود الجبل، وبيع الأسماك المجففة، لم يكن من وسيلة لأن نأكل أسماكًا طازجة ما دامت تلك الحرب قائمة، فحتى أهل الساحل، لا يأمنون السلامة على الطرق الجبلية الوعرة، عندما تصل الأسماك المجففة، يكون لنا شبه عيد في الجبل، سنغير طعم لحم الأرانب والماعز، إلى شيء أكثر ملوحة، أسماك مجففة، نعمد إلى تغميسها في الماء ليوم كامل، حتى تتخلص من الملوحة التي حفظتها من التعفن، خاصة في شهور الصيف الحارة، وحين تجهز وليمة الأسماك الجافة، لا بد أن أقتنص منها جزءًا لشامة، وأطفالها، فأحمد غير قادر على شراء السمك المجفف.

جاء عبيد بكل أنواع الصيد التي تؤكل، وتعلمت أن ألتهم كل ما يأتي به عبيد، سواء كان ضبًا أو ظبيًا، فكل الصيد حلال، وإن كان أرنبًا وإن كان ثعلبًا، كان علينا، أنا وشامة، ومجموعة من النساء ممن مطظن شفاههن عند لقائي لأول مرة، كان علينا أن نحسب حساب الذئاب والثعالب، ونحن في رحلة الرعي اليومية الشاقة،

الذئب يخشى الكثرة، لكنه قد يجرؤ على من يبتعد عن الجمع، سواء كان عنزة، أو امرأة ترعى الغنم، لو ابتعدت إحدانا لتقضى حاجتها، كما حدث مع عفيفة، الفتاة الضعيفة التي أجبرها مرض أمها على الخروج للرعي مبكرًا، ولما شعرت بالحاجة إلى التبول، انسحبت بهدوء من الجمع، ولم تشعر بها النساء، فإذا بصراخها يعلو من خلف الجبل المحاذي، صفقت النساء يدًا بيد، وقلن إن عفيفه أكلها الذئب، فلنذهب بثوبها إلى أُمها.

لا أدري المسافة التي ركضتها على الصخور الحارة، حتى وجدت عفيفة تتوارى وراء صخرة صغيرة، بينما الذئب يقترب منها بهدوء واطمئنان، يخرج كامل لسانه في الهواء فتبدو أسنانه الحادة لامعة، فقد وجد وليمة اليوم الصغيرة دون عناء، ودون عناء مني قذفت على الذئب حصاة صغيرة لشد انتباهه، التفت الذئب نحوي، أقفل فمه، توقف عن العواء، أدار جسمه كاملاً نحوي، تقرفص في مكانه، تقوقع على نفسه، أنزل رأسه وخفض جسمه صار كالكرة الصغيرة، صار عواؤه أنينًا منخفضًا، ثم بدأ في الانسحاب خطوات إلى الخلف، يمشي للخلف خطوة خطوة، وهو يركز نظراته نحوي، عاد إلى الخلف كثيرًا ونظر إليّ، وأنا أُركز نظري نحوه، حتى اختفي، فما عدت أراه، ولا تراه عفيفة الصغيرة، عدت بعفيفة التي لا تدري حتى الآن ما الذي جرى، ولا أنا أدري.

منذ ذلك اليوم، لم تعد النساء يمططن شفاههن أمامي، كانت كل منهن ترجو صحبتي، وترجو رضاي، ولا أدري لماذا؟

وحدها شامة كانت تسألني من حين لآخر إن كنت حبلى أم لا، حتى عبيد لم يكن يسأل هذا السؤال، كنت أراه ليلاً فقط، لا أجده بجانبي في الصباح، تعودت ألا أجده بجانبي في الصباح، لا يتكلم عبيد كثيراً، هو فقط يقول إن مكاني الحقيقي هو هنا، وليس هناك، لم أعد أفكر كثيراً في هناك، صار ذلك بعيد جدًّا، لكن هنا، تبدو الأشياء قريبة جدًّا، وواضحة جدًّا، حتى الذئب الذي انحنى أمامي، ثم هرب في سلام، لم أجده إلا شيئًا يجب أن يكون، على الذئاب أن تخشى زعفرانة، كما يجب أن يخشاها كل ظالم ومتجبر.

أوراق كثيرة عند عبيد، ليست كلها بالعربية، لكن منها الكثير باللغات الأجنبية، كيف لي أن أعرف أين تعلم عبيد اللغة الأجنبية، لم يذكر لي شيئًا عن المدارس التي درس فيها، لكني حين أغمض عيني، أرى عبيد، الطويل جدًّا والنحيف جدًّا، يتحدث إلى أغراب بلغة غريبة، يكون محتدًا في الحديث أحيانًا، وأحيانًا يتحدث في ثقة وقوة دون صراخ، لكنني أبدًا لم أره يبتسم مع هؤلاء الأغراب، لم أر أحدًا من هؤلاء، وعيني مفتوحة أبدًا، ولم يمر أحدهم إلى الجبل الذي نقيم على سفحه، عبيد يقضى ليله بعيدًا عن فراشي، ولا يقدم لغيابه الليلي بأي مقدمات، لكنه لا يغيب أكثر من سبع ليالٍ متواصلة، عندما يعود، يجدني في انتظاره، وكأني أعرف موعد عودته بالساعة والدقيقة، أكون بخرت بيته ببخور اللبان، ولبست حلة من الحرير، فتلمع عيناه، ونلتحف.

وحدها شامة، تشتهي أن تراني حبلى كما تقول، ولا أجد ما أقول

سوى أن كل شيء بقضاء، وعندما حملت طفلها الخامس، بعد أربع بُنيات جميلات يطفن حول أمهن بدلال، فكانت دلال الرابعة التي تملك كل دلال أمها وأبيها، صار الطفل الخامس يكبر في أحشاء شامة حتى صار أوانه، عرفت عندما انفتح الرحم واندفق ماء الحمل من حول الجنين، عرفت أن ما كان يدق بطنها أربع أرجل، وليس اثنتين، وأن ما كان ينطح البطن في داخله هو رأسان وليس رأسًا واحدة، كانت شامة تحمل طفلين، وليس طفلاً واحدًا، والآن صار للطفلين أن يخرجا للوجود، لكن الرأسين كانا شبه متلاصقين، عجزت قابلة الجبل في فك عقدة الجنين أو الجنينين، وطُلب مني أن أقرأ القرآن على رأس شامة، فهي ميتة لا محالة، بما تحمله من جنين وجنين، فقرأت الآية 31 من سورة يونس ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وصرت أكرر الآية، في حين شامة قد خارت قواها، وغابت عن الوعي، دفعت القابلة جانبًا، واتخذت مكانها لنفسي، ووضعت يدي حيث سيخرج الطفل الأول، وأمرته بالخروج باسمه الذي سوف لن يعيش به أكثر من عشرين عامًا "زيد"، فسقط في يدي في شيء من الزمن غير المحسوب، ناولت زيدًا للقابلة التي فتحت فاها ذهولاً، أعدت الكرة ووضعت يدي استعدادًا لالتقاء الطفل الثاني الذي ناديته باسمة "ذيب" وهو من سيمنحني حفيدًا لن أراه من ابنتي شهلا، سقط ذيب في يدى دون أن تصحو شامة من غفوتها، سقط في يدي كما سقط أخوه في يدي قبل دقائق، ناولت ذيب للقابلة، ثم غسلت وجه الطفلين بماء دافئ مُعد سابقًا، قرأت لهما كلمات،

جاءت إلى رأسي، أو أنها كانت تدور في رأسي منذ زمن، في تلك الساعة، نطقت بالكلمات التي لم تفهمها قابلة الجبل، غسلت يدي، ووجهي بنفس الماء الدافئ المُعد للولادة، وخرجت لجمهرة النساء أمام غرفة الصفيح الباردة، التي ولد فيها زيد وذيب، أخبرت النساء أن القابلة استطاعت أن تخرج الطفلين من رحم الأم، وأن شامة بخير، وأنها ستفيق بعد قليل، لكن القابلة أشارت لي بصمت، وصارت تقول لهن:

- هي.. هي.

أفاقت شامة، وجدت طفليها يتصايحان بقوة أمامها، حاولت الاعتدال قليلاً لتبدأ في إرضاع أطفالها الأصحاء، شكرت الله وشكرت القابلة الغارقة في ذهولها، تردد:

- هي.. هي.

منذ ذلك اليوم، صارت النساء تجلب أبناءهن الصغار لي، عندما تلتهب أجسادهم بالحمى، أقرأ ما أقرأ، أغسل جسد الطفل جيدًا، وأعاتب أمه إذا كانت قذارة ثيابه سببًا للمرض والحمى، هناك صوت معهود يدلني على ما أفعل، وكثيراً ما ربطت خرقة حول رقبة الطفل، أشد الخرقة للأعلى ذقن الطفل المريض، كثيراً ما يشعر الطفل بالاختناق، لكنه بعد إجراء رفع اللوزتين هذا، تخف حرارة جسده، ويبدأ يشعر بالبرد، ثم برغبة من الأكل، ولا يعود الطعام يخرج من معدته كما كان قبل شد اللوزتين إلى الأعلى، فإذا كان الطفل نحيفًا جدًّا، ولا تستطيع الخرقة أن ترفع اللوزتين، فإنني

أُدخل سبابتي في حلقه، رغم كره الطفل لهذه الحركة، لكنني، وبالسبابة أستطيع أن أفعل ما لم تفعله الخرقة، ليبدأ الطفل في التحسن، فالسبابة تكون مدهونة بصبغة الصبر، التي أجمعها من بين نباتات الجبل حولنا، تلك الصبغة وردية اللون، تخرج من عناقيد حمراء صغيرة، لا تنمو إلا بعد هطول أمطار أول الموسم، أجمع منها ما يكفي لعلاج مرضاي من الصغار لمدة عام كامل.

بعض الأوراق البرية الخضراء لها فعل السحر في علاج أمراض محددة، جمعت منها الكثير، جففت تحت الشمس منها الكثير، طحنت وخلطت بعضها ببعض، وأضفت بعض العصارات على الخليط هذا أو ذاك، وكونت شيئًا من المخلوط العطري، للشم فقط دون الأكل، أو المضغ، شم الخلاصة بعمق حتى يشعر بالهواء البارد المحمل بالخليط العطر ينتشر في صدر من يشكو من الربو الدائم، وبعض العصارات للمسح على الجلد الخارجي فقط، ومن لحاء بعض الأشجار العجوز يخرج صمغ دافئ، ومن بعضها يخرج زيت معطر، الصمغ دواء لبعضهم، والزيت دواء لبعضهم، باسم الشافي المعافي، وكلما جربت شيئًا جديدًا على من يصلني طالبًا علاجًا، أكرر له جملتي:

- الشافي هو الله، فلا تحزن إن لم تجد الشفاء في علاجي.

لكن خلطاتي كانت دومًا تفيد مرضاي، وتفيدني بالسعادة في المساعدة لهؤلاء الضعفاء، شاع في الجبل اسمي وشاع ذكري عند أهالي المنطقة وما حولها، وأصبحت مقصدًا لكل من عجز

الطبيب المحلي عن وصف العلاج له، وبنى لي زوجي غرفة إضافية في بيت الصفيح الذي نعيش فيه، كي أقابل فيها هؤلاء الذين صاروا يتجشمون عناء السفر من مكان بعيد، طمعًا في علاج أو رقية. وأما العلاج، فكان إما بالقراءة مما يمليه عليّ الصوت الذي بات معهودًا لرأسي، أو بالخليط الملون الذي اختلط لونه، أيضًا بقراءة الكلمات، كلمات من كتاب الغزال.

عاد عبيد ذات يوم بعد أن غاب سبعة أيام، وجدني أشعلت البيت بالبخور الذي يحب، ومسحت جسدي بعصارة نبات صغير الوريقات، لا ينمو إلا في قمة الجبل، ما بين المطر والمطر، له عطر لا يضاهيه عطر آخر، وضعت عصارة التوت الحمراء على شفتي، ولبست ثوبًا طرزت حاشيته بنفسي، كما علمتني شامة، دخل عبيد وهو يعلم أني أنتظره.

- أما اشتقت أن تكوني أمًّا؟
- متى أردتني أن أكون.. أكون.

أخرج عبيد ورقة صفراء من جيبه، عليها كلمات لا تشبه الكلمات، وضعها على بطني، وصار يتمتم، وأنا أقول "حيا"، سبع مرات يتمتم وأقول "حيا"، حتى أعاد الورقة الصفراء إلى جيبه، ثم التحف بي، والتحفت به.

كانت ابنتي شهلا أول من جاء إلى عالمي، أول من وضعته على صدري، ورضعت حليبًا خرج لأجلها ليدخل جسدها الصغير، شهلا قوية البنية منذ وصلت لي من عالم آخر، عنيفة تصرخ لأجل

أي شي تريده، لكنها تصمت إن لم تكن في حاجة لشيء ما، شهلا حلوة وذكية، لماحة أخذت من أبيها حنانه وصدقه، وأخذت مني بريق عيني، وحب العدل والشرف والأمانة، ثم أتى يعرب أخوها الذي لم يطل انتظارنا له إلا سنة واحدة بعد وصول شهلا، يعرب أتي بجسد نحيف كأبيه، لكنه صارع كل أنواع الأمراض التي تهطل على الأطفال، ويومًا بعد يوم، تغلب يعرب على كل الأمراض التي زارته تباعًا، لم يحتج مني جهدًا للعلاجات، فقد كان جسده الصغير يقاوم، وينجح في المقاومة، ثم يعاود المقاومة، حتى أصبحت لا أخشى عليه من المرض، وإن كان الصداع الذي لا يفارقه منذ صغره، شيء عجزت عنه، وعجزت عنه أدويتي، والمخلوطات التي أصنعها للآخرين.

وأما صالح، فقد جاء بعد أخته وأخيه بخمسة أعوام، كان ضعيفًا، يرقد في فراشه أكثر مما يلعب مع أطفال الجبل الأصحاء، حتى في الأوقات التي يكون فيها في أحسن حالاته، فإن النعاس يهاجمه، والدعوة إلى النوم تناديه، فيعود إلى فراشه، عودته على أكل الهريسة التي أجيدها، خفيفة، وتجمع اللحم والقمح والسكر في إناء واحد، أحبها صالح، كما أحبها عبيد ويعرب، في حين شهلا، لا تحب إلا مرقة اللحم خالصة، لا تخالطها الخضار الجبلية، التي أعرف الآن أين أجدها، وكيف أصل إليها ومتى، ولا أكَلّ من جمع الخضار في مواسمها، البعض منها للتجفيف، والبعض منها للطبخ المباشر، أو غير المباشر، المهم ألا ينتهي موسم ما، إلا وقد جمعت منه ما جمعت من خضار، أو أوراق عطرية، أو توت

محروق، أو زهرات ملونة لها دورها في تكوين بعض الخلطات، كما يقول كتابي القديم.

حين بلغت شهلا التاسعة من عمرها، كنا، أنا وعبيد، قد اتخذنا القرار، أن تذهب مع يعرب إلى أقرب مدرسة، والمدرسة القريبة كانت تبعد مسافة يوم كامل من هذا المكان، لكن شهلا ويعرب قد خلقا للعلم والعلوم، كما أعلم أنا وعبيد، وكان لا بد من المدرسة القريبة، أن نكون أقرب، قرر عبيد أن يبني لنا بيتًا قريبًا من المدرسة، بناء البيت من الحجارة والطين، أخذ من وقت عبيد سبعة أيام، ساعده في البناء، أُناس أغراب، يتحدثون لغة غريبة، يفهمها عبيد، ولا أفهمها، وعندما صار البيت جاهزًا للسكن، ودعت شامة، وأخذت زجاجاتي الصغيرة، والمخاليط والعطور، جمعتها كلها في صندوق خشبي، وضعه عبيد على ظهر الحمار، وسرنا على الأقدام يومًا كاملًا، كان صالح محمولًا على صدري، أغلب الوقت، فإذا تعبت، وضعته على ظهر الحمار بجانب الصندوق الخشبي الغالي، الذي يحوي فيما يحوي، كتابي وأوراقي، وأوراق عبيد، تلك المكتوبة بالعربية أو المكتوبة بالأجنبية، صالح مستسلم للرحيل، ما دمنا نرحل جميعًا، وشهلا ويعرب أشد تحمسًا للرحيل، حيث حياة جديدة ستبدأ هنا.

كما رأيت في أحلامي الأولى، شهلا ويعرب يقفزان من فصل لآخر دون عناء، تكبر شهلا، وأنا أجمع النباتات العطرية الأخرى، والزهور التي تنمو هنا، تختلف عن نباتات الجبل الأول، لكننا ما

نزال في الجبل، وهنا جبل آخر، أقرب إلى التحضر وأقرب إلى المدرسة، لا تكتفي شهلا بكتب المناهج الدراسية المقررة، لكنها تأتي بكل ما تمتد يدها إليه من مجلات، أو كتب ذابلة الأطراف، أحبت القراءة حد العشق، وكأنها هنا تكتشف العالم من خلال المجلات، تتصفحها بشغف، وتكرر أنها ستذهب يومًا إلى هذا العالم الذي تأتي منه تلك المجلات، وأعرف أن ابنتي تعني ما تقول، وأعلم أنها ستفعل، لكنني أمام يعرب وصالح، أظل تلك التي لا تعرف، ولا تعرف أنها لا تعرف.

توقفت الحرب التي أوقفت السفن التجارية التي لم تعد تصل إلى ديارنا، توقفت الحرب، وعاد السمك الطازج يصل إلى جبلنا، وصرنا نذهب إلى سوق الجبل لننتقي أثوابًا جديدة، بل صرنا نشتري الكيروسين، سائل برائحة نفاذة، لكن القليل منه على الأخشاب الجافة والحشائش، يبقى نار الطبخ مشتعلة لساعات "يجب الحذر عند استخدام الكيروسين" قال عبيد، وصرت أحدد لقارورة الكيروسين، مكانًا خاصًّا في بيتنا الجديد، شرفة علوية، لا تصل لها يد صالح، ولا حتى شهلا ويعرب. أصطحبهم معي إلى سوق الجبل، صارت أكياس التمر تباع هنا جاهزة، حتى دبس التمر الذي طالما أرهقنا، يُكبَس التمر حتى تخرج حباته ما فيها من الدبس، الدبس بديل السكر في أيام القحط والحروب، إنه اليوم يباع في قوارير نظيفة خاصة به، لم أشترِ الدبس، لأنني تعودت أن أستخرجه من التمر، لن أصرف قروش عبيد في شراء ما تعودت على صناعته، لكنني اشتريت خيوطًا ملونة، سأنسج منها طاقية لزوجي.

صالح دخل المدرسة في سن مبكرة عن أخويه، فقد صار بيتنا هنا قريبًا من المدرسة، التي تضم عددًا من الطلاب ميسوري الحال، ومن العائلات ذات النفوذ في المنطقة، أتعبني صالح في تلقي علومه، كان عليّ أن أجالسه كل يوم من أجل تكرار درس العلوم، ودرس الحساب، وأما القرآن، فقد كان ولدي حاضر الذهن دومًا لتلاوة القرآن، فلا خوف عليه من التأخر في حفظ القرآن.

لم تمضِ شهور على انتقالنا إلى بيتنا الجديد، حتى وجدت شامة بقربي، اقتنع أحمد بضرورة المدرسة لأبنائه، زيد وذيب، ولتلتحق أيضًا دلال بالمدرسة التي تقبل كل الأعمار، ودلال ذات الدلال لم يأت أوان زواجها بعد، في حين أن أخواتها الثلاث اللائي يكبرنها، قد تزوجن وهن بين الحادية عشرة، والثالثة عشر، حتى أن شامة، احتضنت حفيدها الأول، بعد انتقالنا من الجبل القديم.

أراد أحمد أن يبني بيتًا له وزوجته وأبنائه، على غرار البيت الذي شيده عبيد في سبعة أيام، لكن بناء بيت أحمد قد أخذ من وقته ثلاثة شهور طويلة، كانت شامة خلالها تمنى نفسها بالانتقال قريبًا من المدرسة وسوق الجبل، لم يجد أحمد من يساعده في بناء البيت سوى عبيد، تأخر البناء لأن الأخشاب اللازمة لسقف البيت، لم تكن متوفرة في السوق، ذهب أحمد وعبيد إلى محافظة المهرة في اليمن، وعادا بعد سبعة أيام بالتمام، ليكتمل البيت.

اكتمل البيت، وجاءت شامة ودلال والتوأم، زيد وذيب، كم كانت سعيدة شامة بوجودها في شبه مدينة، لها سوق ومدرسة، وعيادة بها طبيب، لكن شامة وكل النساء هنا وهناك، ما كن يؤمن إلا بما أقدمه لهن من خلطات، وكلمات مقروءة، لم ينسَ عبيد أن يخصص لي في بيتنا الجديد، غرفة واسعة، لزواري أو مرضاي، لا يبخل على هؤلاء بقارورة من الزيت أو دبس التمر، أو قماشة ملونة أخيطها لشهلا، الكثير من لازم البيت كان يأتي من الزائرات الباحثات عن حلول لهن، أو لأطفالهن، حتى جاءت إحداهن لي بمعطف من الصوف المتين، الذي لا يقاوم شتاء الجبل إلا مثله، فقد عادت ابنتها لزوجها، بعد أن كانت تراه في شكل ثعبان ضخم، يهجم عليها لعضها، ساعدني كتاب الغزال، لأقرأ منه، وأنا أضع يدي اليمنى على رأس الفتاة، ثلاث جلسات مع الفتاة، القراءة قبل أذان المغرب، فإذا ارتفع صوت الأذان، توقفت عن القراءة، وتوقفت الفتاة عن الصراخ من ألم الرأس، وألم آخر لا تعرفه، في الجلسة الثالثة، بدأت الفتاة في إخراج ما في بطنها من عصارة، عجبت الأم مما خرج من جوف الفتاة، قالت إنها لم تذق الطعام منذ سبعة أيام، فمن أين خرجت العصارة السوداء؟! مع تلك العصارة خرجت خيوط حمراء متشابكة، معقدة، خيوط كثيفة ومترابطة، أخرجت العصارة أو أن العصارة أخرجتها، فتحت بعدها الفتاة عينها، وكأنها تفيق من سبات عميق، قرأت آية الكرسي وأنا أمسح وجهها بقماش نظيف، ثم بدأت بالبكاء.

المعطف الصوفي كان من نصيب عبيد، صار رفيقه في الحل والترحال، طوال الشتاء القارس، لكن عبيد ومنذ ذلك اليوم الذي عاد فيه من المهرة باليمن، وهو يطيل التحديق بالسماء، كما يطيل الحديث عن المحافظة الجميلة والحديثة، ويكرر ماذا ينقصنا لنكون كالمهرة في اليمن، ثم إنه عاود السفر إلى المهرة مرتين، ودومًا يعود لي بأشياء لم أعهدها، وفي كل مرة يقول:

- يا ليتنا نصير مثل المهرة.

في المرة الثانية، لم يعد عبيد بأشياء جميلة مثل قلادة، أو مشط خشبي أو مرآة، عاد عبيد هذه المرة بجواز سفر مهري، ليضيفه إلى جواز سفره الذي لا يسمح له بالتنقل بحرية كما قال، كان عبيد سعيدًا جدًّا بجواز سفره الجديد، سيمكنه هذا من السفر إلى عدن أو الكويت أو العراق متى شاء، تذمر عبيد كثيراً من قائمة الممنوعات هنا.

- تعلمين يا زعفرانة الممنوع هنا أكثر من المسموح به، يمنع بالقانون التدخين، وركوب الدراجات، لعب كرة القدم، فتح مطعم، قص الشعر، ارتداء الحذاء، امتلاك راديو، الهجرة.. الهجرة ضمن قائمة الممنوعات القانونية! لم يعد أمام أي منا إلا أن يكون خارجًا على القانون في هذه البلاد، جواز سفري الجديد سيفتح أمامي عالماً واسعًا.

لم أحاول إيقاف عبيد عن مشاريعه، أعرف من كتاب الغزال، أن عبيد سوف يطوف هذه البلاد، وتلك.

الفصل السادس

زعفرانة وخيوط الحكاية الظفارية

عندما عدت إلى دوحتي، كنت أعرف أن مشروع التخرج قد صار واضحًا في رأسي، ظفار والحرب، قدمت ملخصًا للمشروع لأستاذ المادة، قرأها بتوجس، منذ أن رأى العنوان الذي اخترته، كانت عيناه تنفتح أكثر مع كل سطر يقرؤه.

- لماذا يا زعفرانة؟ لماذا هذا الموضوع الشائك؟ ستدخلين في دائرة من الصعب الخروج منها.
- أنا مقتنعة يا أستاذ بموضوع البحث هذا؟ وأريد التعمق فيه.
- لا تنسي أن أمامك ثمانية أسابيع فقط لتقديم البحث، قد تحتاجين لهذا الوقت، وأكثر لتجدي مراجع موثوقة في هذا الموضوع.
- نعم أعلم يا أستاذ، بالفعل بدأت البحث عن المراجع، وجدت البعض في مكتبة قطر الوطنية، وتحدثت مع صديقة لي سترسل لي أكثر من مرجع من القاهرة.
- عليّ الآن أن أحذرك أن الأحداث في تلك الحقبة التاريخية، ما

يزال يلفها الكثير من الغموض والضبابية. عليك بالتفكير مليًا قبل تقديم تسجيل البحث بشكل رسمي وملزم.

- إذا لم يكن هناك مانع قانوني أو إداري، يختص بالقانون المحلي، أو سياسات الجامعة، إذا لم يكن في تلك السياسيات ما يعيق تسجيل هذا البحث، فأنا أصر على اختيار هذا الموضوع بالتحديد، بعد إذنك بالطبع يا أستاذ.

- لك ما شئت يا زعفرانة، أتمنى لك كل التوفيق.

حديثي الأخير مع حامد قلب كل الموازين في رأسي، إذا كانت تلك الزعفرانة الأسطورة في جبال ظفار، فما علاقة جدتي مريم بها؟ لماذا لم تُخبر أحدًا أنها عرفت زعفرانة هذه في يوم من الأيام؟ حتى أمي، لا تعرف سر إصرار جدتي على تسميتي بهذا الاسم الغريب!

حاولت أن أحاور أمي، أسألها عما تعرفه عن الذخيرة، لكن أمي التي جاءت إلى الدوحة، وهي في الثالثة من عمرها، لا تعرف عن الذخيرة سوى اسمها، وهي كما قالت لم تزر الذخيرة طوال هذه السنين، اليوم فقط جئتها بطلب زيارة الذخيرة، قلت لها أنني أريد أن آخذ جدتي ونذهب إلى مسقط رأسها هناك، لا بد أن هذه الرحلة ستعني لها شيئًا كثيراً، كما طلبت منها الاطلاع على ألبوم صورها القديمة، وهي طفلة، هو ألبوم جدتي مريم في حقيقة الأمر، أذكر أن أمي أطلعتنا عليه، ونحن صغار، كان الألبوم بغلاف ورقي أحمر اللون وصفحات سوداء، حجم الصور الصغيرة

بالأبيض والأسود، يكفي أن تثبت كل أربع صور في صفحة واحدة، كل صورة تثبت بواسطة غلاف فضي صغير يكفي لزاوية من زوايا الصورة الأربع، فتظهر الصورة وكأنها معلقة داخل إطار فضي، تظهر زواياه الأربع لتثبت الصورة على الصفحة.

وصلني في اليوم الثاني طرد بريدي من صديقتي المصرية ليلى، طرد يحمل ثلاثة كتب، كتابان يحملان كلمة "ظفار" على العنوان، وآخر رواية بعنوان وردة، على غلافها صورة لامرأة عمانية تمسح بندقية، وتلبس ملابس حربية، تعرف ليلى ضعفي الشديد أمام الروايات، فاختارت لي هذه الرواية، قالت إن العم مدبولي صاحب المكتبة، قد نصحها بهذه الرواية، قال لها:

- إذا أرادت أن تعرف شيئًا عن ظفار في تلك الحقبة الزمنية، فهذه روايتك.

بدأت القراءة في رواية وردة، كتبها روائي معاصر، لا بد أنه قرأ الكثير، ليكتب كل التاريخ المتشابك في ظفار، بدأت القراءة، لأعرف يعرب وشهلا.

يعرب وشهلا، أخ وأخته، من جبال عمان الجنوبية، بالتحديد من منطقة ظفار، ينتقلان من ظفار إلى القاهرة في مرحلة حساسة من التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية في مصر حينها، الهدف كان الدراسة الجامعية لكليهما، لكن الأخوين متشوقان للدخول في عالم يضج بتلك التغيرات التي تصيبهم بالدهشة والانبهار، رحلة شيقة لشهلا العمانية، اتسعت الرحلة من القاهرة إلى مسقط

وبيروت وصنعاء وصلالة، وعدن باليمن وصحراء الربع الخالي، التقت فيها شهلا بأطياف اجتماعية وأيديولوجية عديدة، أفكار لم تكن تعرفها شهلا قبل أن تغادر ظفار، لكن كان لديها ذلك الاستعداد الخفي، لتكون جزءًا من ذلك الجيل، الذي يطمئن أنه القادر على تغيير العالم، صاحبت شهلا، وأخوها يعرب، شيوعيين وناصريين وقوميين، وتنظيمات انتشرت حولهم في تلك الحقبة، التغيير إلى الأفضل هدفها، لكن لكل منها هدفًا، وليلى خاصة به يغني عليها، ومن أجلها، عبرت الرواية ثلاثة عقود من الآمال والأحلام والبطولات والهزائم والخيانات والخيارات الشاقة.

طفت مع شهلا ويعرب صفحات الرواية الضخمة، وكأنني عرفت شهلا، وكأنني قابلتها في مطار الدوحة، أو في الجبل الأخضر الذي عدت منه قبل أسبوع واحد، أنهيت الرواية التي حرمتني النوم لأيام، شهلا التي عرفت باسم حركي داخل عمان هو وردة، مذكراتها السرية التي تصف كل ما عرفته، وكل ما اكتشفته عن عالم، تشكل الخيانة فيه، جزءا من الحياة التي دست شهلا / وردة نفسها بداخله، أحسست بود غريب نحو وردة التي لا أعرفها، أود لو أنني أعرف لها رقمًا هاتفيًّا فأتصل به الآن، ماذا كانت ستقول لي شهلا، وقد عاشت في منتصف القرن الماضي، بينما أنا في نهاية الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، هذا الهاتف الذي أردت أن أحدثها منه، لم يكتشف بعد، على أن أنسى حكاية هذه الأمنية.

أخرجت لي أمي الألبوم الأحمر القديم، تضعه أمى في كيس من البلاستك المتين، كي تحافظ عليه من التلف، بعض تلك الصور القديمة، قد زال مفعول الصمغ من ظهرها، فسقطت متناثرة في الكيس البلاستيكي، ناولتني أمي الألبوم داخل غطائه البلاستيكي، تناولته بشغف شديد، ألبوم جدتي مريم، التي عرفت الكاميرات، والتصوير في الذخيرة، قبل أن تنتقل إلى الدوحة، كان جدي الذي لم ينفك يعمل لدى عائلة الزعلان حتى نهاية عمره، كان شغوفًا بكل الأدوات، والاختراعات الجديدة التي قدمتها التكنولوجيا في عصره، فهو من جاء بالكاميرا والأفلام، ليسجل نمو أبنائه، أمي وخالي ناصر، وخالتي عائشة، جاء جدي بالفونوغراف عندما خرج من الذخيرة إلى الدوحة، كان يحب الاستماع إلى أغاني أبو بكر سالم، صاحب المليون أسطوانة، وكان للتلفزيون مكان في بيت جدتي، ثم كان التلفزيون المُلوَن الذي صارت الجارات يأتين خصيصًا ليعرفن الألوان التي تلبسها المذيعات، وهن يقرأن برامج اليوم مع بداية البث كل يوم.

رحم الله جدي الذي اشترى هذا الألبوم في إحدى زياراته التجارية إلى بلاد الهند، اشترى معه عددًا من تلك اللصقات الفضية التي تثبت كل أربع منها، صورة واحدة على الصفحات السوداء، ربما كان جدي هو من صف هذا الصور لأول مرة داخل الألبوم، القليل من تلك الصور ما يزال مثبتًا في مكانه الأصلي، والكثير منها انزلق داخل الكيس، اختلطت الصور الصغيرة الحجم، والكبيرة نسبيًا، بعض الوجوه لا أعرفها، ويبدو في بعضها

صور لبيوت قديمة، كتلك التي تصورها الدراما الخليجية عن فترات زمنية قديمة.

استوقفني أن يصور جدي سيارته الكاديلاك السوداء، وهو يقف بجانبها متفاخرًا بسيارته، التي ربما لا يملك مثلها، إلا بيت الزعلان أنفسهم، يبدو رقم السيارة واضحًا في الصورة، وصورة أخرى لسيارة من نفس النوع برقم آخر، كما أدخل جدي الكاميرا، والمسجل ذا الشرائط المدورة، أدخل أيضًا جهاز التكييف لمواجهة حر الصيف، وجاء بالسيارة الفاخرة لتقف أمام بيته في علامة واضحة للتباهي أمام الآخرين.

هنا صورة لأمي وأختها عائشة، ما بين الخامسة والسادسة من العمر، الطفلتان تلبسان ثوبًا مخططًا، عرفت من أمي أن ألوانه هي الأحمر والأصفر، جاء جدي أيضًا بهذه الأثواب من الهند لابنتيه، الثوب له أكمام قصيرة، ويصل إلى ما تحت الركبة بقليل، تظهر في الصورة يد أمي، وهي تمسك بالطفلة عائشة التي تريد أن تهرب من المشهد، أما جدتي، فقد خصص لها جدي أجمل الصور، بأجمل الثياب التي يأتي بها من خلال رحلاته المتكررة إلى الهند.

عدد من الوجوه لا أعرفها، عدد من سكان الذخيرة كما يبدو، صغار يلهون في شارع غير مرصوف، وسيدات يلبسن العباءات السوداء، يقفن في صف واحد أمام الكاميرا، لا بد أنهن أقارب جدي، وأطفال يدسون رؤوسهم لتظهر في الصورة، أكثر تلك الرؤوس المندسة بين النساء أو الرجال، هو هذا الولد الذي يبدو

شقيًا ومشاغبًا، ضحكت أمي عندما سألتها عن هوية هذا الولد، قالت إنه خالي ناصر، كان بالفعل شقيًا، دائم الحركة، والدوران حولنا، حتى أتعبت والدي شقاوته تلك.

- هذه صورة خالك ناصر، وهو في السادسة من عمره، هذه الصورة الرسمية لتسجيله في المدرسة الابتدائية، وقد ألبسته جدتك مريم ثيابًا جديدة للمناسبة.
- لماذا يلبس خالي هذه الطاقية العجيبة؟
- نعم إنها جدتك مريم من ألبسته هذا الثياب، وهذه الطاقية من أجل الصورة.

دققت النظر في طاقية خالي ناصر، لا تشبه الطاقية التي يلبسها الرجال هنا تحت الغترة، طاقية عميقة، ومطرزة، تشبه طاقية حامد، نعم كأنها طاقية عمانية، لمعت عيناي، وكأني وجدت ما أبحث عنه، أو ربما ما يمكن أن يصل بي لما أبحث عنه، السؤال الذي لا يهدئ في رأسي "لماذا أسمتني جدتي باسم زعفرانة؟ وما علاقتها بزعفرانة الأسطورة في ظفار؟".

أخرجت هاتفي النقال، الذي يملك من الإمكانيات التكنولوجية الكثير، وجهت كاميرا الهاتف إلى صورة خالي الذي يلبس الطاقية، التقطت للصورة صورة رقمية في هاتفي، ثم بدأت في تكبير الصورة شيئًا فشيئًا، ظهر أثر جرح في جبهة خالي، كان قد سقط على صخرة وهو يلعب الكرة مع أصحابه، واستغرق الأمر أسابيع حتى اندمل الجرح، كما قالت أمي، ركزت تكبير الصورة

على طاقية خالي التي تبدو باهتة الألوان ربما من كثرة ما غسلت، الطاقية المطرزة برسوم غريبة، دققت فيها النظر حتى اتضح لي الرسم على الطاقية، الرسم متداخل بكتابة حروف عربية، ع ب ي د، عبيد، الاسم الذي كتب على الطاقية هو "عبيد".

كالملسوعة من هذه المفاجأة، ركضت إلى أمي أسألها:

- أين الطاقية يا أمي؟

عجبت أمي من السؤال:

- كان خالك في السادسة من عمره، وهو الآن في الثلاثينيات من العمر، وأنت تسألين عن تلك الطاقية التي ألبسته إياها الجدة؟

- نعم يا أمي، هذا شيء يهمني جدًّا؟ هل يمكن أن أسال خالي؟ أو أسأل جدتي؟

- تعرفين رقم هاتف خالك، وتعرفين مكان جدتك، وتعرفين التنقل بسهولة بسيارتك، فما شأني أنا بتلك الأسئلة؟

أرسلت الصورة الرقمية التي صارت في هاتفي، أرسلتها إلى خالي ناصر، على سبيل المزاح أولاً، خالي صار سفير بلادي في تنزانيا، سيضحك كثيراً عندما تصله الصورة، ربما أستطيع أن أسأله عن تلك الطاقية، التي خاط عليه أحدهم، أو إحداهن اسم "عبيد"، ترى من يكون عبيد هذا الذي تحتفظ جدتي بطاقيته القديمة، والباهتة، هل يعرف، خالي شيئًا عن طاقيته القديمة؟

لم يتأخر جواب خالي، رن هاتفي، لأجد خالي ناصر يقهقه بعد أن وصلته صورته، بآثار جرح في جبينه، وطاقية غريبة الشكل، وهو يقف وقفة عسكرية أمام عدسة المصور، في أول ستوديو يزوره في حياته.

- من أين لك بهذه الصورة يا شقية، ظننت أنني تخلصت نهائيًا من هذه الصورة، التي لا أريد لها أن تدخل سجلات وزارة الخارجية، فأبدو كم كنت غبيًا بلبس هذه الطاقية.

- الصورة وجدتها في ألبوم جدتي القديم، أنا أيضًا أعجبتني الطاقية يا خالي، هل تعلم أين هي الطاقية الآن؟

- مستحيل يا زعفرانة، مستحيل أن أعرف أو أتذكر، لكني أتذكر أن أمي مريم، أخذتني ذلك اليوم إلى الاستوديو لعمل الصورة، وهناك، أخرجت الطاقية من حقيبة يدها وألبستني إياها، حاولت التخلص من لبس الطاقية، لكنها أجبرتني على أخذ الصورة بالطاقية، وإلا فلا صورة ولا مدرسة؟ هكذا قالت.

- ثم إنها تركت لك الطاقية لتلهو بها مع الأطفال؟

- لا، بل استعادتها فور انتهاء المصور من مهمته، وأعادتها إلى حقيبتها، ولم أرها بعد ذلك، حتى جئت بها اليوم بالشكل الرقمي؟ لكن ما سر اهتمامك هذا؟

- مشروع التخرج يا خالي، متعلق بظفار والتاريخ العماني، لذا

وجدت شيئًا من الثقافة العمانية في طاقية جدتي، طاقيتك أنت يا خالي لمدة دقائق فقط!

- اسمعي، لماذا لا تزوريني أنت ووالدتك في نهاية هذا الأسبوع؟ ثلاثة أيام حتى لا يتأثر جدولك الدراسي، سوف أذهب بك إلى زنجبار، ستعرفين هنا أي أثر تركته الثقافة العمانية على المناطق الساحلية الشرقية لإفريقيا.

تركت لخالي أن يرتب أمر الرحلة المقترحة مع أمي وأبي، وعدت للقراءة في بعض المراجع العلمية حول تاريخ ظفار، الأستاذ المشرف على مشروعي لم يوافق على أن تكون رواية وردة مصدرًا للبحث المطلوب، فهي عمل أدبي، وليست بحثًا أكاديميًا يمكن الاعتماد عليه في البحث المطلوب، عاودت قراءة كتاب ضخم امتلأ بالأسماء والتواريخ الدقيقة، ولم أجد فيها اسم زعفرانة، ولا اسم عبيد.

في زيارتي التالية لجدتي مريم، أمسكت بيدها، وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة.

- لماذا أسميتني زعفرانة يا جدتي؟

- ألا يعجبك اسمك يا صغيرتي؟

- بلي، لكنه غريب هنا! فقط أريد أن أعرف يا جدتي، هل عرفت ذات يوم، السيدة زعفرانة القادمة من عمان؟

طأطأت جدتي رأسها الضعيف.

- الله يرحمها.

- إذن تعرفينها؟

- هذه قصة قديمة جدًّا، لا شأن لك بها.

- هل تركت لديك شيئًا؟ أي شيء يا جدتي.. أي شيء؟

- مثل ماذا؟

- كتاب مثلا؟ كتاب قديم؟

- لا، لا، لا شيء عندى، لا كتب قديمة عندي.

انتفضت جدتي مع سؤالي الأخير، رفضت الحديث عن أي شيء آخر، رفضت أن تخوض في هذا الأمر، فلم أستطع أن أسألها عن طاقيه خالي، أو لعلها طاقية عبيد، من يعلم، كم عامًا لبسها عبيد قبل خالي الصغير، ولا أظن أن أحدًا لبسها بعده، لكن جدتي كانت متحمسة أن تزور الذخيرة عندما اقترحت عليها ذلك، حتى أنها نسيت غضبها بعد أن طرحت حكاية زعفرانة القديمة.

صحبتنا أمي إلى الذخيرة، كانت متحفظة، وغير مطمئنة إلى أن والدتها سوف تتحمل الطريق الذي يمتد إلى أكثر من ساعة من الدوحة، على الطريق السريع، كان الوقت قد فات على إلغاء الرحلة، فجدتي هي المتحمسة لهذه الزيارة التي طالما تمنتها منذ سنوات، اصطحبت أمي وجدتي، والكرسي ذا العجلات، في سيارتي ذات الدفع الرباعي، لا تنسى أمي أن تأخذ ثلاجة صغيرة

لزجاجات الماء البارد، وبعض الفاكهة، وكمًّا من الشيكولاته المنَوعة، ذكَّرتُ أمي أننا سنعود قبل صلاة الظهر إلى البيت، فردت في تمسك بتنظيمها للرحلة:

- لا بأس، لا مانع من أخذ بعض التموين للطريق.

في الطريق، عملت على تشغيل المسجل بأغان تحبها جدتي، أغانٍ بصوت عوض الدوخي، الفنان الكويتي ذي الًصوت الرخيم، ونجاًح سلام، الفنانة اللبنانية الأصل، التي ذاع صيتها زمن عاصرته جدتي مع المذياع، خففت تلك الأصوات، وتلك الألحان، زمن الرحلة بالفعل، رغم خوف أمي على والدتها، وحين وصلنا إلى الذخيرة، كان جزءًا كبيراً منها قد استوى بالأرض إلا من أكوام من الحجارة، وبعض الجدران ما تزال متماسكة، وربما تكون على وشك الانهيار، جزء آخر من القرية النائية، قد تم تحديثه، فصار الشارع الرئيسي فيها يتكون من محال ومقاهٍ، وعلى جانبه، ظهرت بيوت حديثة من طابقين أو ثلاثة، بتصاميم جميلة تناسب نسيم البحر الذي زارنا منذ أشرفنا على الذخيرة.

مشيت بالسيارة بسرعة هادئة جدًّا، لأعطي جدتي فرصة للنظر نحـــو البيوت القديمة، والحديثة، عرجت نحو شاطئ البحر، فكان شاطئًا ترابيًا نظيفًا، ومعدًا للمشاة والمتنزهين، وما عادت تظهر الصخور الحادة التي تشق الأقدام، وما عادت السلطعونات الصغيـرة قابلـــة للصيد هنا على شاطئ، أو كورنيش الذخيرة الجديد.

عدت، بهدوء نحو الجدران الطينية المتهالكة، حتى طلبت جدتي أن أتوقف في نقطة معينة، توقفت، وأخرجت كرسي العجلات لأُجلس جدتي، طفت بها بين أنقاض ما كان بيوتًا، رغم صعوبة جر الكرسي على الأرض الصخرية، لكن جدتي كانت تشير إلى موقع معين، ذهبنا في اتجاهه، الحائط الذي تشير له جدتي ما يزال واقفًا، والباب الخشبي الصغير، ما يزال متمسكا بالجدار، لكنه يذهب يمينًا وشمالاً بحسب اتجاه الريح. في مقبض الباب، تعلق حبل قصير، قديم ومتهرئ، تطوف به الريح حيث شاءت، وجدت جدتي تمسح دمعاتها قبل أن تطلب العودة.

لا أزال أتواصل مع حامد منذ عدت من عمان، سهلت تكنولوجيا التواصل الاجتماعي، هذا النوع من الاستمرارية في المعرفة، أرسل لي حامد بعض الصور التي حصل عليها من أقربائه عندما عاد إلى صلالة، صور بالأبيض والأسود، لرجال مسلحين لا أعرفهم، ولا أعرف حكاياتهم، لكنه لا بد أن لهم دورًا في حكاية زعفرانة الأولى، سألته إن كان عرف تفاصيل أخرى حول الأسطورة زعفرانة، هل لها قبر هناك مثلاً، هل لها أبناء يمكن التواصل معهم، لكن حامد كرر لي ما قاله سابقًا، وهو أن قصة زعفرانة تشبه الأسطورة، لا أحد يعرف من تكون، ولا إلى أين ذهبت بعد الحرب.

في زنجبار، وبتنظيم من خالي ناصر، وجدت عمانيين بلا عُمان، السوق هنا يشبه سوق مسقط في صورة مصغرة؛ أثواب عمانية، وطاقيات عمانية، يتحدث الزنجباريون بعض العربية وبعض

السواحلية، كلمات عربية تدق مسمعي ونحن هناك "كانت زنجبار ضمن سيطرة الإمبراطوريه العمانية" قال خالي، واستفاض في الشرح حول تاريخ المنطقة، فهو مبهور، كم في زنجبار من تأثر عماني حتى اليوم، على جدار أحد المحال المبنية من الأخشاب، لوحة لصيادين في سفينة تشبه سفن جدي التي كانت تبحر إلى بلاد الهند، كان كل الرجالات حول السفينة بالزي العماني، والطاقية العمانية المزركشة.

كنت أسأل كل من يتحدث العربية، هل سمع يومًا باسم زعفرانة؟ أغلبهم يرد بالنفي، والبعض يرد بالنفي السريع والغاضب، ومن يتردد في الإجابة، أخبره بأن اسمي زعفرانة، وإنني أريد فقط أن أعرف إذا كان اسمي له شبيه هنا في زنجبار، يحاول خالي التقرب من الناس البسطاء، قدم بطاقته التعريفية لمن يرى اهتمامه باسم زعفرانة، طالبًا منه الاتصال به لو أنه يعرف شيئًا عن هذا الاسم.

لم ينس خالى أن يدخل ضمن زيارتنا هذه، المرور على بيت الأميرة العمانية، التي أحبت وأحبها رجلٌ ألماني، فتركت الإمارة والعيش الرغيد، وغادرت معه إلى بلاده في أوربا لتكون أسرة، ثم تكتب حكايتها في كتاب، متوفر اليوم في الأسواق، قال خالي هذا، وهو يشجعني على قراءة الكتاب لأعرف أكثر.

زادت زيارة زنجبار وبيت الأميرة التي أوقعها الحب في المحظور، من تفكيري في زعفرانة، هل صار لزعفرانة ما صار للأميرة العمانية، هل اختطفتها نشوى الحب، فرحلت من بلاد إلى بلاد،

خيط مهترئ مثل ذلك الحبل القديم المعلق بباب خشبي مستند على جدار لم يبق منه إلا الحطام، خيط ضعيف بين زعفرانة الأولى، والأميرة، لكنه قد يكون مفتاح الحكاية.

اتصل حامد هاتفيًا، لأول مرة يتصل هاتفيًا، فقد تعودنا على الرسائل النصية، أو الصوتية منذ عدت من عمان.

- وجدت ضالتك يا زعفرانة.
- ماذا وجدت يا حامد؟ أخبرني.
- عرفت من بعض المسنين في منطقتي، أن هناك قبراً لزعفرانة بالفعل، وأن القبر قد صار مزارًا لبعض الناس الذين يعتقدون جهلاً، أن زعفرانة سيدة مباركة، وأن زيارة قبرها وسؤاله عن حاجتهم ستلبي لهم تلك الحاجة.
- صحيح! هل تحققت بنفسك عن هذا القبر؟ أين مكانه بالتحديد؟
- سأبدًا بالسؤال الأخير؟ عند الأطراف الجبلية لمدينة صلالة، هناك فوق جبل محدد اسمه جبل أيوب، وعنده ضريح لا يزال قائمًا، يقال إنه ضريح النبي أيوب، ضريح طويل، وكأن من دفن هناك يزيد طوله على خمسة أمتار.
- ماذا عن ضريح زعفرانة؟
- بالقرب من ضريح النبي أيوب، الذي هو مزار بالفعل، يشد البعض له الرحال، بالقرب منه، وعلى نفس الجبل، كان هناك ما يسمى ضريح زعفرانة.

- كان، تقول كان؟

- نعم كان، فقد انتبهت الحكومة قبل عشر سنوات، انتبهت إلى حركة مريبة تتعلق بزيارة هذا الضريح، لم ترض السلطات بهذا الأمر الشائك، فقامت بهدم الضريح، ونقل الرفات.

- نقلت رفات زعفرانة؟ إلى أين؟

- صبراً أختاه، نعم تم هدم الضريح، ولكن كانت المفاجأة أنه لا يوجد في القبر أي رفات، لقد كان فارغا تمامًا.. إلا من...

- إلا من ماذا؟

- أوراق؟ بعض الأوراق المهترئة جدًّا؟ أوراق صفراء وقد تآكلت أطرافها، ومحيت الكلمات منها، لكن تلك البقايا محفوظة هنا في المتحف المحلي.

- إذن لا نعلم حتى الآن إذا كان في القبر جسدًا سابقًا، وتمت سرقته أم لا؟ ولا نعلم ما تكون تلك الأوراق المدفونة بدلاً من جسد السيدة الأسطورة!

- صحيح، لا أحد يعلم كامل الحقيقة، أما عن الأوراق، فالبعض قال إنها بقايا كتاب الغزال، والبعض قال إنها مذكرات ابنتها شهلا.

بعد عودتنا من زنجبار، كان جدتي في حالة مرضية شديدة، عاد خالي من مكان عملة لرؤية والدته المريضة، منذ زيارة الذخيرة كانت جدتي في حالة صمت شديد، وعزوف عن الطعام، حتى

وصل خالي ناصر، ابنها المدلل، شربت من يده رشفة ماء، نطقت بالشهادة، وأسلمت الروح.

كل ما تركته جدتي، ملابس قديمة، وقصاصات من صحف قديمة، تحمل أخبار ناصر عندما تخرج في الجامعة، وعندما استلم جائزة التميز، وعندما تم تعيينه سفيراً لبلاده، كانت جدتي قد قسمت كل ما تملكه من ذهب، ومصوغات كان يأتي بها جدي من الهند، بالتساوي ما بين ابنتيها، شيخة / أمي، وعائشة / خالتي، وكل ما تبقى من جدتي جاء إلى بيتنا في ثلاث حقائب سوداء، وصندوق وريقات، تركتها أمي في غرفتي، أثواب للصلاة، ومصحف بحروف كبيرة، وأكثر من سجادة ومسابح، أخرجت حاجات جدتي، أترحم عليها، وأدعو لروحها بالجنان، أخرجت من الحقيبة ثوبًا أخضر، بكم قصير، ويغطي إلى ما تحت الركبة، صندوق ممتلئ بأوراق الرزنامة القديمة، كل ورقة كتبت عليها جدتي كلمة، أو كلمتين لحدث عاشته يومها، عرفت جدتي كتابة المذكرات دون أن تدري، ثم أخرجت من الحقيبة طاقية قديمة، نقش عليها اسم عبيد، ومظروفًا صغيراً، مخبأ في حقيبة يد قديمة، مظروفًا قديمًا، بداخلـه خصلة شعر تميل للاشقرار، وورقة صغيرة كتب عليه "ابنتي زعفرانة".

الفصل السابع

مريم تخرج من الذخيرة

فرحت أمي بحملي أكثر من عمتي أم زوجي، كانت تخاف ألا أكون الزوجة المناسبة التي اختارتها العمة كزوجة لابنها الكبير، كانت أمي تسأل كل شهر عن موعد دورتي الشهرية، ثم تمط شفتيها خيبة إذا عرفت أنني لست حاملاً اليوم، حتى جاءتني بقطعة قماش مربوطة على شكل كرة صغيرة، طلبت مني أن أضعها تحت وسادة زوجي، بعد أن يكون عشاؤه ذلك اليوم مرقة لحم ضأن لا يشوبه العظم، تعودت ألا أرفض لأمي طلبًا أو أمرًا، لكنني هذه المرة، لم أضع كرة القماش تحت وسادتي أو وسادة زوجي، ولم أُعد له المرقة التي وصفتها أمي، فهو لا يرغب بمرقة اللحم في المساء.

بعد واحد وعشرين يومًا، من قراءة العجوز زعفرانة كلماتها تلك، بعد ثلاثة أسابيع بالتحديد، بدأت علامات الحمل من قيء وصداع تظهر عليّ، تأخرت عن زيارة زعفرانة في بداية حملي، ونابت عني خالتي عائشة في العناية بها، خالتي صارت عرجاء من السقوط في الحفرة اللعينة، لكنها تستعين على العرج بعصا، جاء

بها السيد خليفة من عيادة شركة النفط التي يعمل بها، قال لها مازحًا:

- توقعت أن أبدأ السير على عكاز قبلك يا عائشة، يبدو أن العكاز قد أعجبك أكثر مني.

رغم العرج والصحة المعتلة، كانت خالتي تذهب إلى زعفرانة بالموز، والتفاحة المسلوقة، لم تكن زعفرانة تسأل عن غيابي، لكنها كانت تسامر خالتي فيما تطرحة الخالة من قصص قديمة، زعفرانة حذرة في الحديث عن قصصها القديمة، دوما ما تردد "رحمهم الله جميعًا".

حين اشتد حالي، وانتهت علامات الوحم الصعبة، كنت باشتياق إلى زعفرانة، ذهبت، وخالتي ذات العرجة إليها، استغرق الطريق أكثر من المعتاد بسبب عرج خالتي، والمشى البطيء الذي أمشيه حفاظًا على الطفل في أحشائي، وصلنا، واتجهنا إلى غرفة زعفرانة الخارجية، كانت تصلي، أظنها كانت تصلي الضحى، فالوقت كان قبيل أذان الظهر، جلسنا ننتظرها تنتهي من الصلاة، أطالت الصلاة وأطالت رفع يدها إلى السماء والتمتمة، تشاغلت وخالتي بتنظيف غرفتها من بقايا الطعام الناشف، وإعداد فراشها، لتنام عليه بسهولة.

ما أن انتهت زعفرانة من صلاتها الطويلة، حتى التفتت نحوي، وهي التي لا ترى! التفتت نحوي ثم قالت:

- كيف أنت، والحمل يا صغيرتي؟

- لقد جئت أبشرك بالحمل يا خالتي، كنت أعاني من أعراض الحمل، ولم أستطع زيارتك الأسابيع الماضية.

- هل أنت أحسن الآن؟

- نعم، أفضل بعض الشيء، لكني ما أزال لا أشتهي الطعام، رغم حاجتي له.

- هاتي لي كوبًا من الماء.

ناولتها كأس الماء الوحيدة في غرفتها الموحشة، بعد أن ملأتها بالماء النظيف الذي آتي به لها في كل مرة، تناولت الكأس، قربتها إلى شفتيها، ثم صارت تتمتم، وتتمتم، حتى زادت على الوقت الذي احتاجته للصلاة، وأنا وخالتي في ريب من الأمر كله، ناولتني كأس الماء، وقلت بلهجة آمرة "اشربي".

التفت إلى خالتي، وأنا لا أعرف ماذا أفعل، أومأت لي الخالة بالموافقة، رفعت الكأس إلى فمي، وشربت الماء الزلال، كانت تقول "لا تتركي شيئًا في الكأس"، انصعت لأمرها، شربت كأس الماء كاملةً، لم أترك نقطة في قاعها، رفعت رأسها نحوي، وكأنها تراني:

- عليك وعليها سلام، ونور.

لم أفهم ما تقول زعفرانة، لكنني وخالتي، كنا نستعجل العودة إلى بيوتنا، قبل أن تلحظ أمي أو عمتي، هذا الغياب الطويل وأنا الحبلى لأول مرة.

وجدت شهيتى مفتوحة للأكل بمجرد أن عدت إلى بيتي، تناولت ما أعدته عمتي من أرز ومرقة دجاج، حتى استغربت عمتي هذا التحول المفاجئ، فوجئت بنفسي، لا أشعر بالدوار أو بالرغبة في إخراج ما في جوفي، بل إنني ليلتها، اشتهيت حضن زوجي، الذي كان سعيدًا باقترابي منه بعد شهرين من البعاد، لم أشعر بعدها بالأعراض المرهقة، قررت أمي أنني بحاجة أن أقرأ على نفسي آية الكرسي، والمعوذات من القرآن الكريم، فها هنا الجارات يراقبن كل صغيرة وكبيرة، منذ أن يُزرع الجنين في أحشاء أمه، وحتى يصرخ رافضًا الحياة قبل أن يراها، كلنا - كما قالت أمى - علينا أن نحترس من هؤلاء النسوة، وإن بدت إحداهن في شكل ملاك.

قبل أن يحين موعد ولادتي، كانت خالتي في زيارة معتادة إلى زعفرانة، طلبت أن تناولها كأس ماء ممتلئة، فعلت خالتي، رفعتها إلى فيها - كما فعلت سابقًا - تمتمت ثم تمتمت كثيرًا، كما أخبرتني خالتي عائشة، أعادت زعفرانة الكأس إلى الخالة، طلبت منها أن تغسل به وجهي عند الولادة، دون استفسار ودون معارضة، أخذت خالتي كأس الماء، ذهبت بها إلى بيتها، صبت الماء في قاروة زيت فارغة، ثم أتت إلى بيت زوجي لتحكي لي ما جرى مع زعفرانة، فوجئت خالتي أن آلام الوضع قد هجمت عليّ فجأة، وأن عمتي أرسلت في طلب أمي، وطلب قابلة الذخيرة، وقد أُعدت للولادة خرقًا نظيفة وماء ساخن، كما تطلب القابلة، تركتني عمتي في عهدة خالتي، حتى ترسل من يستعجل القابلة التي تأخرت في

المجيء، أخرجت خالتي القاروة من تحت عباءتها، غسلت بالماء وجهي وصبت منه على رأسي وهي تسمي باسم الله، وتكرر "بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله".

لم تصدق عمتي عندما عادت إلى غرفتي مع القابلة، أن حفيدها الأول قد وصل إلى الدنيا بالفعل، وأنه فتاة جميلة بين يدى خالتي التي كانت في حالة اندهاش أكثر من القابلة، قامت القابلة بما يلزم من قص الحبل السري، وتنظيف الطفلة ولفها بالمهاد، والعناية بي، كما تستدعى مهنتها كقابلة.

أكثر من تعجب من ولادتي السهلة، هي أمي، احتارت كيف لخالتي أن تقوم بتوليدي، وهي التي لم تلد قبل اليوم، وهي التي لم تحضر ولادة قط، تعجبت أمي، ولم تستطع إخفاء العجب والحيرة، وسألت خالتي بكل وضوح:

- كيف استطعت القيام بهذا العمل يا أختي؟

وجدت خالتي فرصتها، لتحظى بشيء من الاحترام أمام أختها، التي تعتبر الإنجاب للمرأة، هو الواجب الأول في الحياة، تمططت خالتي، وأجابت في خبث نسائي:

- قد علمني الله بعلمه يا أختاه.

لم تقتنع أمي بالإجابة طبعًا، لكن لم يكن أمامها إلا أن تقول:

- زادك الله من علمه يا أختي العزيزة.

حاولت أن أقنع أمي بتسمية فتاتي باسم "زعفرانة"، لكن أمي انتفضت عندما سمعت هذا الاسم، وهي لا تعلم عن زياراتي المتكررة مع خالتي إلى بيت زعفرانة، رفضت أمي رفضًا قاطعًا، هذه التسمية، وحتى زوجي، لم يوافق على هذا الاسم الغريب كما قال، عمتي أيضًا رفضت أن تحمل حفيدتها الأولى، هذا الاسم، فهو اسم ليس لنا، كما قالت.

كنت أتمنى أن آخذ ابنتي إلى زعفرانة، وأن أقول لها أنني أسميتها باسمها حتى تكون في مثل علمك وغزارته، لكنني في نهاية الأمر، رضيت - كما أقنعتني خالتي - أن أطلق اسم شيخة، اسم أمي، على المولودة، هذا ما جعل أمي تنتفخ أمام جاراتها، وأمام عمتي التي لم تطلب تسمية الطفلة باسمها، خوفًا من أن تموت قبل أن تتم الطفلة عامها الأول، كما تقول الأسطورة القديمة.

بعد عودة زوجي من رحلة تجارية إلى الهند، دامت ثلاثة أشهر من الزمن، أخبرني أن رب بيت الزعلان الذي يدير له تجارة اللؤلؤ، والذهب، أخبره أنه بصدد أن ينتقل إلى مدينة الدوحة، وقد صارت - بعد الاستقلال، أو الانفكاك عن الانتداب البريطاني - مليئة بالمحال التجارية بكل أشكالها، واتخذت المدينة شكل المدن الحديثة، تصل الكهرباء إلى كل أحيائها وشوارعها، فإذا انتقل بيت الزعلان بتجارته إلى الدوحة، فلا بد لنا أيضًا أن ننتقل إلى الدوحة، أسهم زوجي في سرد قصص حقيقية أو غير حقيقية عن جمال

الدوحة، والخدمات المتوفرة هناك لأجل تسهيل الحياة والاستمتاع بها، بينما زوجي يتحدث عن مزايا الانتقال إلى العاصمة الدوحة، كنت أفكر بقلق، ماذا سيحدث لزعفرانة لو حدث، وانتقل بيت الزعلان إلى الدوحة، هل سأكون قادرة على زيارتها هناك، هل ستكون على مقربة من بيتنا الجديد، هل ستتحمل أن تنتقل إلى مكان جديد؟

بدأت عمتي في إعداد لوازم البيت التي ستحتاج إليها في بيتها الجديد، فجهزت مواقد الكيروسين، ومشاعل الإضاءة، أو ما نسميه "فنر"، كذلك الأخشاب للطبخ إذا نفد الكيروسين من المواقد، حاول ابنها الكبير / زوجي، أن يقنعها أن بيتنا في الدوحة، قد وصلت إليه الكهرباء، وأنها ستجد فرنًا تشتعل مواقده بتلقائية بمجرد أن تقرب عود الثقاب إليها، وأنها ستجد في غرف البيت أيضًا، مكيفات للهواء، تعمل على تبريد البيت بالكامل، فلا نشعر بالحر، أو بأشعة الشمس الصيفية الحارقة، عمتي كانت تستمع، ولكنها لا تصدق القول، وأصرت على حمل كل متاعها، حتى البساط الأرضي القديم، وصل معنا إلى الدوحة.

كانت ابنتي شيخة في الثالثة من عمرها، وكنت حبلي في الشهر السابع، عندما قرر زوجي أن الرحيل إلى بيتنا الجديد في الدوحة سيكون غدًا، ما يزال رأسي مشغولاً بزعفرانة، أعرف أن خالتي ستعتني بها رغم العرج في رجلها، لكني لا أعرف إن كنت سأراها في الدوحة، عندما يقرر ماجد الزعلان الانتقال إلى بيته الجديد في

الدوحة، وقد حكى لي زوجي أن العم ماجد، قد أقام لنفسه في الدوحة بيتًا كبيرًا، يشبه القصور، وأن بيت الزعلان الكبير، له حديقة كبيرة ومتسعة، يمكن أن يجمع فيها سياراته الأمريكية الثلاث.

أخذتُ شيخة الصغيرة معي إلى زعفرانة، كانت زيارتها الأولى لها، كانت طفلتي خائفة جدًّا من الغرفة المظلمة والمكان الموحش، والرائحة التي تجمع العفن، والعرق، وربما البول أيضًا، بدأت طفلتي في البكاء والصراخ، رافضةً الدخول، حملتها على كتفي، ودخلت بها إلى زعفرانة التي كانت قابعة في زاويتها، محنية الظهر كالعادة، لم تعلق على صراخ الطفلة، ولم تتضايق منه، ردت السلام الذي حييتها به، وتجاهلت وجود الطفلة معي.

عند وصولي، كان أمام بيت الزعلان، سيارة نقل كبيرة، تحمل السجاد، والمفارش **السدو**، وأدوات المطبخ، لم تكن السيارة الأولى التي تخرج من هنا إلى الدوحة، كان النقل مستمرًا منذ أيام، كما سمعت من زوجي، وكما رأيت تلك الشاحنة التي أراها لأول مرة في الذخيرة، تقف أمام بيت الزعلان قبل أيام، أظن أنه اليوم الأخير الذي يتم فيه نقل المستلزمات إلى بيت الدوحة.

لم تشأ زوجة ماجد الزعلان أن تعطيني أية معلومة حول مكانهم الجديد، لم تشأ أن تؤكد لي إذا كانت العجوز ستكون معهم في البيت الجديد، قالت إنها لا تعلم، وإن الأمر متروك لزوجها، ولسان حالها يقول "لا شأن لك بذلك".

حملت ابنتي شيخة، والحزن والغضب يملآن قلبي، دخلت غرفة زعفرانة، لا أعرف كيف أقول لها، إنني أنتقل من هذا المكان، ولا أعرف أين سأراها بعد اليوم، كانت بشوشة، وقد انتهت لتوها من صلاة العصر، أشارت لي بالبقاء حتى تنهي دعاء العصر، صبرت، وطفلتي تتعلق في رقبتي، وتشد عباءتي، وخماري الأسود، انتهت زعفرانة من الدعاء المطول كالعادة أيضًا، ثم التفتت نحوي وقالت:

- أنت وحدك تستطيعين حفظ أمانتي.

- وما أمانتك يا خالة؟

دست يدها تحت الفراش القديم والمهترئ، وأخرجت خرقة بالية، تبين لي فيما بعد أنها طاقية مطرزة، وقد بهتت ألوانها من كثرة الغسل، إلا أن بقعة داكنة، ما تزال واضحة على طرف الطاقية.

- هذه الطاقية، وهذا المظروف المغلق، سأتركهما معك، فإذا قدر لنا أن نلتقي سأستعيدها منك، وإن لم نلتق فأنت حرة فيما تفعلين بها.

- حاضر يا خالتي، سأحتفظ بها، وسوف أردها إليك عندما أراك قريبًا بإذن الله، سأبحث عنك هناك، وسوف نلتقي يا خالتي، سنلتقي بإذن الله.

- هيا إلى بيتك، سيكون لك طفلة ثانية بعد شهرين من الآن، فلا تجهدي نفسك كثيرًا، كل شيء على ما يرام.

- سيكون لي طفلة أُخرى يا خالة، ألن يكون لي ولد.. يومًا ما؟

طأطأت العجوز رأسها، وأغمضت عينها، رغم أنها لا ترى، حتى وهي مفتوحة العينين، خفضت رأسها، ثم رفعته إلى الأعلى، وقالت:

- سيكون لك ولد، فلا تيأسي.

- أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

- في حفظ الله يا صغيرتي.

حملت طفلتي الباكية، وحملت الطاقية، والمظروف المغلق تحت عباءتي، وخرجت في طريقي إلى بيتي، مررت على خالتي عائشة التي كانت تنتظر مروري عليها، وهي التي صارت صديقتي، ورفيقتي، وأمي الناصحة الحنون، رجوتها أن تقنع السيد خليفة بالانتقال إلى الدوحة، لنكون قريبين من بعضنا البعض.

- حاولت كثيراً إقناعه بالانتقال، قال إنه ولد في الذخيرة، وإنه قضى العمر هنا على ساحل هذا البحر، وإن إخراجه من هنا، سيكون كإخراج سمكة من الماء، كما أن عمله اليوم في شركة النفط، أقرب إلى هذا المكان، وسيكون من الصعب أن يترك بيته، ويترك عمله في آن واحد.

لم يعد أمامي إلا أن أودع خالتي الغالية، والحزن يلف قلبي، ويجعل خطواتي الحبلى أكثر ثقلاً وقسوة، ستزورني خالتي في الدوحة، لكني لن أعود إلى الذخيرة إلا مع حفيدتي زعفرانة بعد ذلك بسنوات.

أعد زوجي البيت الجديد للسكن بكل المستلزمات، ما كان لي أن أختار الستائر، أو طقم الصالون، لا يهم، فكل شيء جديد هنا، في الصالون، وضع طقمًا من الكراسي المنقوشة بألوان عدة، لم يكن لدينا مثله في الذخيرة، وضع ساعة حائط على الجدار، وعلى الطاولة الجانبية، وجدت هرمًا من الورق المقوى، وكمًّا من الأوراق الصغيرة، قال لي إنها "رزنامة" لنعرف التاريخ، قطَع ورقة منها، وقدمها لي، إنه تاريخ اليوم، كما قال، دسست الورقة في حقيبتي، لاحقًا كتبت عليها "انتقلنا إلى الدوحة ".

لم يكن من الصعب على أمي أن تقنع أبي بالانتقال إلى الدوحة، كان أبي قد ثقُل وزنه كثيرًا، وصار خروجه من البيت صعبًا، وما عاد قادرًا على مجاراة أمي في ما تقول، وفي ما تطلب في كل حين، باع أبي قطعة أرض على الشاطئ، كان قد ورثها عن أبيه، طالما طلبت منه أمي أن يبيعها، وكان يرفض ذلك دومًا، أما وقد صار جسده غير قادر على المماطلة، وصار بحاجة إلى طبيب من حين إلى حين، فلم يمانع، فتلك الخدمات التي ما تزال الذخيرة لا تملكها، ولا يتمتع بها إلا أهالي الدوحة الكرام، حيث المستشفى الحديث بكل التخصصات، ومستشفى آخر للنساء، والولادة، حيث وضعت ابنتي الثانية "عائشة".

وافق والدي غير سعيد بالانتقال إلى المدينة، باع قطعة الأرض، وباعت أمي قطع مصاغها الذي جمعته عبر السنين، مما يقدمه لها والدي، أو تشتريه هي بعد أن تدبر من مصروف البيت، شيئًا من

المال، فيزيد الذهب لديها، ليوم كهذا اليوم، كل ما تجمع في يد أمي وأبي، أعطياه لزوجي، ليشترى لهما بيتًا في الدوحة، على أن يكون قريبًا من بيتنا، قريبًا من بيت ابنتي، وحفيدتي، كما قالت أمي، وقد كان، صار بيت أمي مقابلاً لبيتنا، لم أكن أستطيع الخروج دون إذن مزدوج، من عمتي، ومن أمي أيضًا، وأما زوجي فقد ترك حرية الرأي لأمي، وأمه، احترامًا للكبار، أبقت أمي على قطعتين ذهبيتين، ستُهدي إحداها لابنتي في يوم عرسها.

لم يكن هنا لي خالة كخالتي عائشة، لأهرب إليها أو إلى أم يعقوب، أو إلى زعفرانة، كلما ضاق صدري من وحشة الدار، لا رائحة للبحر هنا، ولا صوت للموج، ولا صخور حادة على الشاطئ، لا أصداف بحرية جميلة أجمعها، ولا سلطعونات، ولا سمك يصل طازجًا كل صباح مع الصيادين، لكن زوجي كان يأتي بمستلزمات البيت، من السوق كما يقول، السوق القريب أو البعيد، لم يكن لي شوق إلى السوق، لكنني ذهبت إلى السوق لأعرف السوق، عرفته فما أحسست بالجديد.

دخول الكهرباء كان له أثر السحر على الحياة، هواء مكيف وبارد داخل البيوت، ثلاجة لحفظ الطعام، فرن للطبخ، غسالة لغسل الثياب، بدلاً من الغسل باليدين الذي جعل يدي خشنتين وجافتين، وهنا أيضًا التلفزيون الذي سوف يصبح ملونًا لاحقًا، ثم يوم جاء التلفزيون الملون إلى بيتنا، جلسنا والأولاد أمامه لا نفارقه لثلاثة أيام، حتى اعتدنا على الشاشة الملونة، كتبت على ورقة الرزنامة "صار التلفزيون ملونًا".

كل هذا، جعل الوقت كثيراً جدًّا، فلا إشعال النار في الخشب، ولا حلب للماعز للحصول على الحليب الطازج، كل هذا جعل الوقت غير المشغول، كثيراً جدًّا، والملل كثيراً جدًّا، ولا أحتمل حديث عمتي طوال النهار، فما أن سمعت في الراديو، بافتتاح مدارس لكبار السن، أو ما يسمى فصول محو الأمية، رغم أني أقرأ قصار سور القرآن، أُعتبر ضعيفة في القراءة والكتابة، ما إن أُعلن عن افتتاح تلك الفصول للكبار من الرجال ومن النساء، حتى استأذنت زوجي فوافق، صرت أذهب إلى المدرسة عصر كل يوم، رغم تذمر عمتي التي صار عليها أن تعتني بطفلتي، حتى أعود من المدرسة، أكملت أربعة فصول من فصول محو الأمية، وهو ما يعادل الشهادة الابتدائية، تخرجت بعد أربع سنوات، وأنا أشعر بالفخر بنفسي، قطعت ورقة الرزنامة، وكتبت عليها "أنهيت المرحلة الابتدائية" دسستها مع تلك وريقات الرزنامة السابقة، صار لأوراق الرزنامة صندوقًا خاصًّا، خاصًّا جدًّا.

صرت قادرة على متابعة دروس ابنتيّ، شيخة وعائشة، اقرأ كتبهما، وأراقب كيفية حل الواجب اليومي، حتى الأفلام الأجنبية التي يعرضها التلفزيون، صرت قادرة على متابعتها، وقراءة الترجمة العربية في أسفل الشاشة، عرفت عالماً آخر من خلال الشاشة، ابتعدت بي الحياة عن الذخيرة، ولم أفكر في زيارة خالتي عائشة، رغم أن أمي كانت تذهب للزيارة، كل حين وآخر، ولكنني كنت أنشغل بالدراسة أولاً، ثم بمتابعة دروس البنات، أو بالاعتناء بعمتي، وقد مرضت، وصارت لا تبرح الفراش إلا قليلاً، كان

ونسها الوحيد هو مداعبة الحفيد "ناصر" الذي ولدته بعد ذلك، وقد صارت ابنتي شيخة في العاشرة من عمرها، وصار اسمه عنوانًا لورقة الرزنامة يوم ولادته "ولادة ناصر".

حين جاءت خالتي لأول مرة إلى بيتي، لاقيتها بفرح الصغير المشتاق إلى أمه، فرحت بزيارتها، لكن طفلتي اختبأتا خلفي، فهما لا تعرفان هذه السيدة الغريبة، كدتُ أذكِّر صغيرتي شيخة: "ليست غريبة يا طفلتي، لقد ولدت على يدها" لكن شيخة، لن تفهم هذا الحديث إلا بعد أن تصير أمًا لزعفرانة أخرى، سألت خالتي التي ما تزال تعرج من أثر كسر رجلها، والذي لم يُجبر بالطريقة السليمة، سألتها عن كل شيء في الذخيرة، عن السيد خليفة المريض، عن بيتنا، وبيت الزعلان، حتى أني سألتها عن الفتى المليح صاحب العجلة، والجرس الرنان، هل عرفت من يكون؟

ضحكنا كثيراً، كعادتنا عندما نجتمع أنا وخالتي، وأما السيد خليفة، فقد صار تقريبًا لا يغادر البيت، وأما الذخيرة، فما تزال رائحة البحر تلفها، وأصداف البحر تنتشر على شاطئها، وما تزال السلطعونات الصغيرة، تلعب وتختبئ على صخور الشاطئ، وأما أم يعقوب.. فقد صارت في ذمة الله، قبل شهرين.

أحزنني رحيل أم يعقوب، رغم أنني لا أتذكر متى رأيتها آخر مرة، لا أعرف متى رحلت أم يعقوب بالتحديد، فكتبت على ورقة الرزنامة في اليوم الذي علمت بوفاتها "وفاة أم يعقوب"، ثم سألتني خالتي:

- ماذا عن زعفرانة؟ هل تعرفين مكانها هنا في الدوحة، هل وصلت لها أو تواصلت معها؟ هل هي على قيد الحياة؟

خجلت من نفسي بشدة من أسئلة خالتي، أجبتها بالنفي، فأنا لا أعلم شيئًا عن بيت الزعلان هنا، لا أعرف مكانهم، ولا أعرف إن كانت لا تزال تقيم معهم، لكني أعدك يا خالة، أنني سوف أبحث عنها، وأطمئن على حالها إن كانت حيةً ترزق.

يومها، طلبت من زوجي أن يأخذني إلى بيت الزعلان الذي يعرفه، في البداية لم يوافق، لكنني أصررت على زيارة بيت الزعلان، دون أن أذكر له اسم زعفرانة، منذ أن حاولت أن أُسمي ابنتي الأولى بهذا الاسم، وزوجي لا يطيق سماع اسم زعفرانة، قلت له إن بيت الزعلان عائلة كبيرة، لماذا لا تكون لي معهم صلات طيبة، فوافق، وحدد لي موعدًا للزيارة.

زوجة ماجد الزعلان كانت موجودة، رحبت ببرود معتاد بالزيارة، ذكرني باستغرابها لزيارتي الأولى إلى بيتها في الذخيرة مع خالتي عائشة، لكنني اليوم هنا وحدي، أتكلم بثقة، وثبات، أسأل عن أحوالهم في الدوحة، وأفتخر أمامها أنني أنهيت المرحلة الابتدائية، مع فصول محو الأمية، ثم إنني عرجت بالحديث حول زعفرانة، سألت دون مواربة:

- أين تكون زعفرانة اليوم، هل بإمكاني أن أراها إذا كانت هنا في هذا البيت؟

- لقد ماتت العجوز بمجرد أن وصلنا إلى الدوحة.

وقع عليّ هذا الخبر كالصاعقة، هل تموت زعفرانة، ولا أدري عنها شيئًا؟ هل ترحل سيدة مثل زعفرانة بهذا الهدوء، فلا يسمع برحيلها أهالي الذخيرة، أو أهالي الدوحة؟ كان هذا الجواب آخر ما توقعت سماعه، نعم هي سيدة عجوز، الأعمار بيد الله، لكنها زعفرانة، زعفرانة خاصة جدًّا، لا أحد يشبهها، ولا أحد يشترك معها في الاسم، فكيف تموت في هدوء؟ خيم عليّ حزن شديد، وصمت لم أستطع الخروج منه، حتى إذا خرجت السيدة، تقدمت مني ابنتها الشابة في حذر.

- اسمعي، زعفرانة لم تمت، لكننا منذ جئنا إلى هنا لم نرها، لقد قرر أبي وأمي أن تكون في رعاية دار المسنين في مستشفى الرميلة، فإذا استطعت زيارتها، أرجوك، طمئنيني عنها، فأنا أيضًا أحبها، أرجوك أيضًا لا تخبري أمي بما قلته لك الآن، فالرواية التي يكررها أبي وأمي.. تختلف عن الواقع.

سعدت جدًّا بما قالته لي الفتاة الطيبة، وكأنها أعادت لي الأمل في العثور على زعفرانة، شكرتها بنفس الحذر، لبست ثوب الحزن على رحيل العجوز عندما عادت السيدة بالقهوة العربية، شربت فنجاني الأول والأخير، وخرجت من بيتها، لأكتب على ورقة الرزنامة "زعفرانة في مستشفى الرميلة".

عرفت الطريق إلى مستشفى الرميلة الشهير، دون أن أخبر زوجي أنني أبحث عن زعفرانة، فتاة الذخيرة التي طمع في حبها كل فتيان الحي في زمنها، والتي دارت حولها كل الأحاديث والشائعات،

والتي تخلت عن اسم عائلة الزعلان، فتخلت عنها العائلة. لم أخبر زوجي إلا أن لي صديقة تشكو من آلام الظهر، وهي الآن هنا، فحملني إلى هنا، اتجهت مباشرة إلى قسم المسنين، المخصص لكبار السن ممن تصعب رعايتهم داخل البيوت، لحاجتهم الدائمة للرعاية الطبية، والمتابعة الصحية، هناك صرت أسأل كل من أراه عن نزيلة تدعى زعفرانة الزعلان، لكن لم أجد من يعرف الاسم في الإدارة، حتى عثرت على من يعرف زعفرانة، زعفرانة فقط، فقد تم تسجيلها هنا بالاسم الأول فقط، فلا تحمل اسم العائلة الثرية، والمعروفة بالعز والشرف، لا أثر لاسم الزعلان في سجلات المستشفى، قالت مسؤولة التسجيل:

- لم يدخل أحد إلى هنا من بيت الزعلان في السنوات العشر الأخيرة التي عملت بها في هذا المكان.

عاودت السؤال عن اسمها الأول، وكأنها لم تكن يومًا إلا زعفرانة فقط، قالت الممرضة المتعاونة مع سؤالي، إنها عرفت العجوز زعفرانة بالفعل، عجوز صامتة في أغلب أوقاتها، لم يزرها أحد منذ دخولها إلى المستشفى، لم تكن تشتكي، ولم تكن تتألم، لكنها دومًا ما كانت تصلي، ثم تتمتم كثيراً، كثيراً جدًّا.

- أين هي الآن يا سيدتي؟ أود أن أراها.

- للأسف، لقد خرجت من هنا في العام الماضي.

- خرجت! إلى أين؟ مع من؟

- لا أدري، ولن تجدي في سجلات المستشفى ما يذكر تفاصيل خروجها، فقط لم نجدها في صباح ذلك اليوم.

- تقصدين اختفت؟

- لا أستطيع أن أؤكد لك شيئًا، ولكن...

- لكن ماذا؟

- إحدى الممرضات العاملات ليلاً، تؤكد أنها رأت لأول مرة، رجلاً طويلاً جدًّا، ونحيفًا جدًّا، يدخل غرفة زعفرانة، ثم يخرج معها، وقد اعتدل ظهرها من الانحناء الدائم الذي تشكو منه، ثم إنه اتجه معها إلى خارج المستشفى دون أن يرد، أو ترد هي، على نداء الممرضة.

- ثم؟!

- ثم لم تعد زعفرانة حتى اليوم.

لم تتسع ورقة الرزنامة لأكتب، حكاية الممرضة، لكني كتبت على الورقة، "خرجت زعفرانة من المستشفى، ولم تعد".

الفصل الثامن
زعفرانة الأم

بقي عام واحد، ليحصل أبنائي، يعرب وشهلا، وأبناء شامة، دلال، وزيد وذيب، على شهادة التوجيهية، أو الشهادة الثانوية كما سُميت فيما بعد، التي تؤهلهم للوظيفة كمعلمين في قراهم، في ذلك الصيف الحار كعادته، اصطحبت أنا وشامة، الأولاد الذين ما عادوا صغارًا، إلا صالح الذي صار في نحو العاشرة من عمره، حملت ما نحتاج إليه خلال الصيف على ظهر الحمار الذي اقتناه لي عبيد، اقتناه لي لأتنقل على ظهره وأنا أجمع النباتات البرية النادرة، تلك التي تنمو فقط على قمة الجبل، والتي لا تزهر إلا تحت المطر، فصار للحمار أن ينقل يعرب إلى مدرسته، عندما يلازمه الصداع الذي عجزت عن مداواته، يعود الحمار تلقائيًا إلى البيت، عندما يصل يعرب، وإخوته إلى المدرسة.

ملأت ظهر الحمار، بأثقال من ملابس الصيف لي ولأولادي، وبعضًا من أدوات الطبخ التي اعتدت على استخدامها هنا في المدينة الصغيرة، حتى اختل توازن الحمار، وكاد يسقط أرضًا،

خففت بعض أثقاله، ناولتها لشهلا وصالح، وتركت يعرب يضغط على رأسه بيديه، ليخفف ألم الصداع، وفعلت شامة الشيء نفسه مع حمارها، وحمَلت الأولاد أحمالاً أكثر، فشامة تشترى من هنا، هدايا وهبات لبناتها الثلاث المتزوجات، وللأحفاد الذين ترجو التحاقهم بها في المدينة للدراسة يومًا ما، حملنا ما حملنا، وأغلقنا أبواب البيوت، واستودعناها الله إلى أن يبدأ العام الدراسي القادم، بدأنا السير في اتجاه قريتنا على مسيرة يوم، وليلتين في عراء جبال ظفار، حتى إذا وصلنا مشارف القرية، هللت شامة والعيال، لكنني شممت رائحة لم أعرفها بعد، كانت رائحة البارود تقترب، ثم تبتعد عن القرية، ثم تقترب مرة أخرى.

نهيق الحمارين أعلن لأهالي القرية عن وصولنا، تهافت حولنا النساء، والأطفال.

- أنتظرك يا زعفرانة من زمن للرقية على ابنتي.
- أنا أنتظرك لكيّ ابني الصغير، قيل لي أنك الوحيدة القادرة على الكيّ الصحيح.
- أرجوك يا زعفرانة، ابنتي في حالة ولادة صعبة، وتحتاجك بشدة.
- يا أم يعرب، سأمنحك كل ما تطلبين لو ساعدت أمي على المشي من جديد.

وأما شامة، فقد التف حولها بناتها الثلاث، اثنتان منهن لهن بطون منتفخة، وخمسة أحفاد بأطوال مختلفة، والكل متشوق لفتح الهدايا على ظهر الحمار.

مرت ساعات منذ وصولنا إلى البيت، شُغلت مع ابنتي شهلا بتنظيف البيت المغلق منذ تسعة شهور، كان واضحًا أن البيت قد هُجر لتلك الشهور التي ابتعدنا عنه فيها، حتى عبيد، لم يكن له أثر في البيت، لا دفء في بيتي، ولا أثر لطعام ولا شراب، لكن ما جلبته معي على ظهر الحمار، يكفي لعشاء الليلة، في حين أن شامة، أرسلت بقدر من حساء اللحم الساخن، من إعداد ابنتها الكبرى، أكل أولادي وشربوا، واستسلموا لنوم عميق، بعد رحلة شاقة، تحت شمس ظفار الحارقة، وأثقال محمولة، نام الأولاد، وتوقف نهيق الحمار أمام البيت، وبقيت أنتظر.

ظهر عبيد قبل ظهور أول خيوط الفجر، وقد استبدل حزام البطن الذي يثبت فيه الخنجر، كما يفعل كل أهالي المنطقة، استبدله به حزامًا جلديًّا يلتف حول الخصر، شريطًا عريضًا ملتصقًا بالحزام يلتف حول صدره إلى كتفه الأيسر، ثم يدور حول ظهره ليلتصق بالحزام مرة أخرى، كبرُ عبيد في الشهور التسعة الماضية، بانت على ملامحه قسوة الجبل الذي قضى في كهوفه الفترة الماضية، لكنني لم أر تلك الملامح، وذلك الحزام، والرصاصات المتراصة على طول الحزام، إلا هذه المرة، لم أر هذا المسدس الصغير المعلق في جيب خاص في الحزام، ولم أر البندقية المعلقة على ظهر زوجي قبل الآن.

لم أطلب من عبيد تفسيراً على هذا التغير المريب، والغريب، عرفت التغير الذي زار قريتنا منذ التقطت رائحة البارود على مسيرة يوم من القرية، خلع عبيد حزامه الجلدي المثقل بالرصاص، وضع مسدسه الصغير تحت وسادته، والبندقية الطويلة وراء ظهره، قال إن الصباح رباح، وهو يشتاق النوم الآن في فراش طري، ودافئ، لم ينس عبيد أن يقبل جبيني، ثم يغط بالنوم في اللحظة التي لامس فيها الوسادة، أحكمت الغطاء فوق جسده، وشعرت بالخوف لأول مرة منذ التقيت عبيد، عند الشجرة الظليلة أمام بيت عمي في الذخيرة.

شُغلت في نهاري الأول بعد هذا الغياب، شُغلت بالمهام التي وعدت بها أهالي القرية بالأمس بالعمل عليها، أما المرأة التي كانت حالة ولادة مستعصية، فقد قرأت حينها آيات القرآن وكلمات مُعَطَّرة على قطعة قماش كانت في يد أمها، طلبت منها أن تلقيها على وجه ابنتها التي ستلد ذكرًا، في صباح اليوم التالي، جاءت المرأة بلفافة من القماش الأبيض، تلف به وليدًا يتمطى في هدوء، جاءت أيضًا بجرة من الحليب الطازج، وسبع بيضات، كُن من نصيب زوجي وأولادي لإفطار اليوم التالي.

تحدث عبيد أمام أولاده، أمام أحمد الذي يلبس لباس الحرب مثل عبيد، أمام أولاد أحمد، زيد وذيب، فتح الأولاد، وأنا وشامة، كل الآذان لتخزين ما يقوله عبيد، ويردده أحمد، كل الكلمات غريبة، كل الإشارات غريبة، كل المخاوف غريبة، لكن عبيد كان

يبدو عارفًا بما يقول، متمسكًا بما يقول، مؤمنًا بما يقول، لا يسأل عائلته عن رأي أو مشورة، ولكنه سيحاول حمايتنا كما قال من الكيد، والعنف القادم، لم يكن لشهلا أو يعرب، وخاصة صالح، لم يكن لهم أن يتجانسوا مع ما يقوله والدهم، لكن شهلا، كانت تفتح عينيها لسماع الأقوال الغريبة، وأحيانًا كانت تردد:

- نعم نعم يا والدي، أنتم نِعم الرجال.

لم أعرف سر إعجاب شهلا بما يقوله عبيد، أدركت لاحقًا أن المدرسة التي تذهب إليها كل يوم، لم تكن لدراسة الشريعة، والآداب فقط، أدركت لاحقًا أن هناك من يهبط من الكهوف الجبلية إلى صلالة، ليحكي للأولاد، والبنات، قصة التغير القادم، التغير المطلوب، قصة جبهة تحرير ظفار، وآبائها الكبار، والتنظيمات، التحركات والتنقلات ما بين مسقط، وظفار وعدن، والكويت وبغداد، سرد عبيد أسماء تلك المدن على عجالة، كان فرحًا بتشجيع ابنته له، وكذلك التوأم زيد وذيب، وأما يعرب فقد كان أقل حماسة، وصالح هو الأقل استيعابًا، والأقل فهمًا لما يقال حوله.

أكمل عبيد حديثه، بعد أن سرد قصة التشكيل الجديد، والهدف المعلن من إنشائه، بالخروج من القوقعة، كما قال، والتخلص من الأغراب المتحكمين في مقدرات البلاد وخيراتها، قال إنه، هو ورفاقه سوف يبذلون الغالي والرخيص لأجل الهدف النبيل، قال إنهم مستعدون لبذل الدماء، فلكل الأهداف الكبرى ثمن كبير، ثم صاح في أولاده:

- هل أنتم مستعدون؟

- مستعدون.

صرخ الأولاد في صوت واحد، علا بينهم صوت شهلا التي تعلقت في رقبة والدها، طلبت منه أن يكون على حذر، قبَّل جبينها، وأوصاها أن تتذكر دومًا أنها ابنة عبيد وزعفرانة، طلبت من أبيها أن تصاحبه إلى الكهف الجبلي، فخاف عبيد من شدة تعلق شهلا بالأفكار الجديدة، قال لها إن عليها وجيلها، تحمل مسؤولية التغير بالعلم والدراسة، عليها أن تنهى دراستها أولاً، ثم إن شأنًا كبيراً سيكون لها، في التغير القادم لا محالة، لكن عندما طلب زيد وذيب مرافقة والدهما، وافق أحمد سريعًا، رغم شهيق شامة الذي علا في تلك اللحظة، كان أحمد فرحًا أيضًا باستعداد أولاده للمشاركة في التغير القادم، ما إن بدأت الشمس في المغيب ذلك اليوم، حتى تأبط عبيد وأحمد، ومعهما زيد وذيب، تأبط كل منهما حزامًا جلديًّا، تتخذ الرصاصات لنفسها جيوبًا خاصة حوله، ودعت شامة أولادها بدموع وحسرة، في حين كان أحمد يستحثها على تقصير لحظات الوداع التي لا تليق بالرجال، فما بالك بالأبطال، كما هم أولادها، ودع عبيد أولاده بمحبة، وأكثر من الوصايا، بألا نبتعد عن القرية، وألا نخشى أصوات الرصاص الآتية من بعيد، فإذا اقتربت، علينا أن نختبئ في بيوتنا، أوصاني عبيد بتخزين ما أستطيع من طعام مجفف، أو مملح داخل الدار، فالله وحده يعلم كم سيطول هذا الحال، حتى تتحقق الغايات النبيلة.

قفز أحمد من مكانه، وقد ربط رأسه بعمامة سوداء، ومثله فعل عبيد والأولاد:

- هيا يا رجال.

تحرك الرجال، مع شهقات شامة، ودمعات شهلا ويعرب، حيرة تحتويني، فلا أعرف لها - كما تعودت - سبيلاً للحل، حيرة تشبه حيرتي في علاج الصداع الذي يدق رأس يعرب في أغلب أوقاته، حيرة لا أستطيع بها التخفيف عن صالح الصغير، إحساسه الطفولي بعدم الأمان، وإحساسه البريء بأن شيئًا سوف يحدث، فعلينا الانتظار والحذر، كما قال والده عبيد، وشاركه أحمد الحماس، بثقة أكثر في الدور المنوط بهم، كما قال، لم أستطع أن أخفف عن صالح خوفه هذا، إلا بطبخ البيضتين المتبقيتين من أجله هو فقط، وافق صالح على تلك الهدية ليهدأ، ولا شيء يستطيع أن ينزع ذلك الرعب الذي دخل صدري، ولن يخرج منه، حتى يزورني عبيد في المستشفى لأخرج معه، بعد عمر لا أعرف حسابه.

صرنا نسمع أصوات الرصاص من بعيد، كما قال عبيد، صرنا نرى دخانًا أسود هناك على قمة الجبل، حيث لا يستطيع حماري أن يصل، صرنا نترقب الأخبار ممن أتى لزيارة أهله، وإن قلت الزيارات وتباعدت، صرت كأهالي القرية جميعًا، نجمع ما نستطيع من الطعام داخل البيوت، نحرص على رعي الأغنام، لنجد ما يؤكل لو أن الحرب التي يظهر دخانها اليوم، لو أنها صارت حربًا تشبه، تلك التي حبستنا في قُرانا قبل عدة سنوات، لم أعد وحدي

التي تجمع الأعشاب، وأوراق الشجر، النساء في قريتي صرن يحذون حذوي في التقاط ما قد يكون مفيدًا فيما لو اشتد الحصار، وأُغلقت علينا الطرق.

تمتلئ جبال ظفار بأنواع الفطر الغريبة، منها ما هو سام لا يؤكل، ومنها ما ينفع الناس كدواء، وهذا ما كنت أجمعه، وأجففه ثم أطحنه، ومنها ما يكون للأكل مفيدًا وإن كان طعمه يشبه الطين المخلوط بالماء، صارت النساء تجمع حبات الفطر الذي يفتقد الطعم، ولكنه يسد جوع الصغير والكبير، لو اختلط بمرقة لحم أو دجاج، كنت أرشد النساء إلى الأنواع المفيدة من الفطر، حتى لا تقع إحداهن في فخ الفطر السام، فيحصل ما لا يحمد عقباه.

سقطت إحدى عنزاتي في حفرة عميقة، انكسر لها أكثر من ساق، وصارت تموء كالقطة بدلاً من صوت الماعز الذي نعرف، نزلت داخل الحفرة في محاولة لإنقاذ العنزة، ربطتها بحبل متين اشتريته سابقًا من سوق صلالة، ربطت الطرف الآخر للحبل في رقبة الحمار، ضربت الحمار ليمشي، ويشد العنزة إلى الأعلى، تحرك الحمار، وارتفعت العنزة إلى الأعلى، وسط صرخات النسوة، راعيات الأغنام، تحركت العنزة المتألمة من الحركة، ومن السيقان المكسورة، ساعدت النساء في شد الحبل حتى خرجت العنزة من الحفرة، لكنها تلهث من الألم، وقسوة الطريقة التي خرجت بها من الحفرة، صرخت جارة لي، تعرف حول الأغنام أكثر مما أعرف:

- إنها تموت، يجب ذبحها الآن، قبل أن تصير ميتة لا يجوز أكلها.

التفت، فلم أجد بيننا من يحسن ذبح الماعز بالطريقة الحلال، أخرجت سكيني الحادة، سميت بسم الله الرحمن الرحيم، وجززت رأس العنزة المسكينة، فصار لحمها الآن حلالاً طيبًا، لنا أن نأكل ونشكر الله، عندما قامت الحرب اللعينة بعد ذلك، أكلنا الميتة، وأكلنا ما أكل السبع، عملاً بأن الضرورات تبيح المحظورات، وأما يوم سقطت عنزتي في الحفرة، فلم نكن قد وصلنا إلى مرحلة الضرورات التي تحدثت عنها الشريعة الإسلامية.

بعد ذبح العنزة المسكينة، نزعت كل شيء من جسدها للاستفادة منه، وأما اللحم فهو للأكل، أو للتجفيف ليبقى مملحًا لأيام وشهور. صنعت من جلدها معطفًا لصالح الصغير. القرون والحوافر، تفيد كسلاح وتفيد كأدوات للتنقيب عن النباتات الجبلية، أو عن الزواحف الصالحة للأكل. الأمعاء الداخلية للعنزة، وغلاف المعدة أو ما يسمى الكرش، يجهز للأكل بطريقة نعرفها نحن أهالي الجبال، ونفتخر بطريقة صنعها المنفردة. العظام والمفاصل، صنعت منه أحلى حساء، لابني يعرب، الذي فارقة الصداع بعد حساء الكوارع، والمفاصل، لأسبوع كامل.

مر أكثر من أربعة أشهر على خروج عبيد وأحمد، والأولاد زيد وذيب إلى الجبال، وما تزال رائحة البارود تزكم أنفاسي، تأتي من حيث اتجه عبيد ورفاقه، لم تكن شامة تلحظ رائحة البارود تلك، وإن كانت تسمع صوت الرصاص، في رشقات متقطعة، وأحيانًا، يكون متصلاً لفترة طويلة، لا نعلم مصدر الرصاص، ولا نعلم أهدافه، لكننا ندعو الله أن ينقذ أحبتنا من شر هذه الرصاصات، وشر ما تلاها.

عاد ذيب ذلك اليوم، رابطًا عمامته السوداء حول رأسه، يلف طرفًا منها حول وجهه، في شكل لثام أسود، لم يجب أمه عندما سألته عن زيد وعن أبيه، لم يتكلم، ولم يرحم توسلات أمه، حمل محراثًا يستخدم للزراعة، يعلم مكان المحراث، فاتجه إليه، أخذ المحراث وذهب إلى مكان عال في الجبل، شامة المسكينة، تركض وراءه لتعرف ماذا حدث لابنها، وزوجها، نظر ذيب إلى المكان، تلفت دون أن ينبس بكلمة، اختار نقطة تطل على الوادي، وتطل على القرية بكاملها، تقطعت أقدام شامة، وهي تركض وراءه تستعطفه، وهو صامت، ثم بدأ بالحفر، أدركت شامة المصيبة التي حلت بها، شقت ثوبها وصرخت:

- ولدي زيد.

صبت التراب على رأسها وهي تصرخ:

- حاسبك الله يا أحمد، قدمت ولدي للموت بلا ثمن.

ما أن انتهى زيد من حفر قبر أخيه، حتى ظهر عبيد في الأفق، يلف العمامة السوداء حول رأسه واللثام حول وجهه، حاملاً زيدًا بين يديه، تقدم من القرية في هدوء، تجمع الرجال لاستقبال عبيد، والفتي المحمول بين يديه، واصل عبيد مشيه وسط صرخات شامة، وعويل بناتها، ونحيب النسوة من حولهن، واصل عبيد المسير، يرافقه من تبقى في القرية من الرجال، وذيب يشير له بمكان القبر الذي جهزه لاستقبال أخيه التوأم، وصل عبيد إلى مكان القبر، وضع زيد الذي تلطخت ملابسه بالدماء، ووجهه

متوجه للسماء، وضعه على الأرض، في حين جاء أحدهم بكفن من مكان قريب، لُفَ زيد بالكفن الأبيض، ثم اصطف الرجال للصلاة، صرخت شامة:

- ألن تغسلوه؟

- الشهيد لا يغسل يا أم الشهيد.

رد عليها عبيد باقتضاب، ثم رفع الصلاة على الميت وقوفًا دون ركوع أو سجود، وخلف عبيد، ذيب المتجهم الصامت، وبعض رجالات القرية، أكملوا صلاة الميت على زيد، حتى وصل عبيد في صلاته إلى التسليم يمينًا وشمالاً، ثم أُودع الشهيد في قبره، وأُهيل عليه التراب، فصارت الحفرة، قبر زيد الذي ظلت شامة تزوره كل يوم لسنوات، إلى أن سقطت قذيفة على مكان القبر، فهشمت المكان، وتساقطت الصخور فوق بعضها البعض، فلم يعد أحد يعرف مكان قبر زيد.

عاد ذيب إلى أمه الثكلى، وأخواته الباكيات، حدثهن عن بطولة الشهيد زيد، وأن موته لن يكون بلا ثمن كما قالت شامة، قال إن الرفاق هناك انتقموا لأخيه، ولكن الأهداف النبيلة، تتطلب أثمانًا غالية، كانت هذه وصية أحمد لشامة، نقلها ذيب بعد دفن زيد في المكان العالي من الجبل.

عاد عبيد إلى بيته تلك الليلة، لا أجرؤ على الحديث معه، ولا سؤاله كيف قُتل زيد الحبيب، كان صامتًا كيوم عاد من الجبل مع أحمد، ليأخذ زيد وذيب معه إلى حيث لا نعلم، ولا ندري، بكى

يعرب كثيراً على صدر أبيه، وتعلق صالح بثوبه يرجوه ألا يغادر القرية مرة أخرى، وشهلا قاسية الملامح تردد:

- لكل شيء ثمن يا أبي، فلا تحزن.

لم يرد عبيد على شهلا، ولا على يعرب الباكي الحزين على فقد صاحبه، وقد اخترق رأسه الصداع، ولا على صالح المتعلق بثوبه، فقط ربت على ظهر ولده الصغير، والتفت إليّ:

- هل أجد لديك حليبًا ساخنًا؟

شرب زوجي الحليب المخلوط بالكركم، كي يهدئ حالته، ويشد قامته، أسقط على جسده ماءً باردًا ليغسل صور الأيام السابقة من ذاكرته، شد لحافه، وحاول النوم، لم يكن نومًا هذا الذي غاص فيه عبيد، كان شخيره العالي، وحركات جسده، تُعلم أن حالة نومه من النوع العسير الذي أعرف، النوع الذي عرفناه جميعًا لاحقًا، عندما صارت الطائرات تقذف الصواريخ الصغيرة والكبيرة، فلا نعود نعلم إن كنا سنموت تحت أنقاض البيوت، أم بتساقط حجارة الجبل فوقنا في عين النهار، لكن عبيد نام كيفما اتفق، وتركته حتى صحا مفزوعًا، بينما حيلتي هي قراءة آيات القرآن حول رأسه، حتى عاد ونام، ثم استيقظ في نهار آخر.

لم تكن لمواساة شامة أي أثر يُذكر، لم تكن لكلماتي أو لكلمات النسوة الأخريات، أثر يُذكر، كل ما يكون لنا أن نقوم به، أن نطبخ لأهل البيت طعامهم لثلاثة أيام على أقل تقدير، كما علمتنا الشريعة الإسلامية، أن نقدم لأهل الميت الطعام، فهم في

حالة لا تسمح لهم بإعداد الطعام، تسابقت نساء القرية على خدمة شامة، وبناتها في الأيام العصيبة، لا أذكر أن شامة كانت تأكل أكثر من بضع حبات من التمر في اليوم الواحد، عادت بعد أيام، وهي تلف عمامة ابنها الشهيد على رأسها، عادت لترعى أغنامها، وتلتقط الفطر القابل للأكل، لكن دون أن توجه لأحد كلمة حول ما صار لزيد.

وكما اجتمع عبيد مع أحمد مع الأبناء، وكان بينهم زيد الشهيد، اجتمع بهم، دون أحمد هذه المرة، فَضَّل أحمد البقاء في الجبل البعيد، مواصلاً المقاومة، كما يسميها عبيد ورفاقه، اجتمع عبيد بشهلا ويعرب ودلال وذيب، وقد اعتبر ذيب الآن ابنه كما أن يعرب ابنه، بعد أن ترحم على زيد وزاد في امتداح شجاعته، وإقدامه على المقاومة، بعدما قدم عبيد لما سيقول، بأن هذا ما اختاره هو وأحمد للأبناء الأربعة، بعد أن قدم شرحًا بأن الدفاع عن الوطن لا يكون بالبارود فقط، ولكنه أيضًا يكون بالعلم، والمعرفة، والتكنولوجيا الحديثة، التي يحاربنا بها الطرف الآخر.

بعد أن أنهى عبيد ديباجته، دون أن يجرؤ أحد على مقاطعته، أو الاستفسار عن المقصود بحديث البداية هذا، أعلن عبيد أن رغبته اليوم هو وأحمد، أن يكمل الأولاد الأربعة دراستهم في مصر، فلا يعودون منها إلا وقد انتهوا من الدراسة الجامعية، ويومها سيكون لهم، رجالاً ونساء، شأن كبير في الوضع المزري الذي نحن فيه، كما قال، سيكون لهم تولي قيادة المقاومة لأنهم الأقدر بالعلم،

والمعرفة التي سوف يتلقونها في القاهرة الحديثة، فالتغير سيحدث هنا كما حدث في القاهرة، سوف يكون لهم هناك فرصة التعرف عن قرب على ما حدث، وسوف يعودون بكل علم تعلموه، ليزرعوه هنا، في ظفار ليتم التغيير.

وكما شهقت شامة يوم قرر أحمد أخذ أولادها إلى الجبهة المجهولة، شهقت من إعلان عبيد قراره بسفر الأبناء إلى القاهرة، ولا أعرف كم تبعد القاهرة عن ظفار، ولا أعرف هل يكون السفر على ظهر الحمار، كما هو السفر ليعرب، على ظهر الحمار إلى صلالة، لمدة يومين، فهل تبعد القاهرة عنا كما تبعد صلالة، طرحت أسئلتي أمام عبيد، الذي كان جاهزًا بكل الإجابات، والأولاد في حالة من الصمت والذهول، بينما شهلا لا تستطيع أن تخفي سعادتها بقرار أبيها هذا، ولا يستطيع يعرب أن يخفي ضيقه، وهو يعلم أن لا سفر لشهلا دون أخيها.

كما هي خطة السفر التي وضعها عبيد للأولاد، سافر معهم إلى المكان البعيد الذي تحدث عنه، ثلاثة سافروا معه، شهلا ويعرب وذيب، إلا أن دلال فضلت أن تبقي بجوار والدتها، ولها أن تعلم الأولاد الصغار القراءة والكتابه وشيئًا مما تعلمته في مدرسة صلالة، فكان لها ما شاءت، فصارت تزور قبر زيد مع أمها في كل يوم، حتى مُسِحَت معالم القبر، وبذلت دلال نفسها في تعليم أبناء الحي القراءة والكتابة.

وعدني عبيد أنه سوف يصل بأبنائنا إلى القاهرة، وذلك بالسفر من خلال جبال ظفار التي يعرفها، إلى المهرة التي يملك جواز سفرها، ثم إلى عدن، المدينة اليمنية التي يتمنى عبيد أن تصير بلاده مثلها، ومن عدن سوف يستقل الطائرة إلى القاهرة، غريبة هي كلمة طائرة، أخبرني عبيد أنها جسم حديدي ضخم، يتحمل أن يصعد على ظهره أربعون أو خمسون شخصًا، وأنه يطير بهم، بسرعة كبيرة، حتى أن السفر الذي كنا نقطعه في شهور، صار اليوم بالطائرة لا يزيد على بضع ساعات، أخبرني عبيد أنه بعد القاهرة، سيذهب إلى العراق، إلى قضاء بعقوبة بالتحديد، لكنه سوف يرسل لي رسائل من هناك، علي ألا أقلق، فقط عليّ أن أهتم بنفسي، وبالولد صالح.

الرسالة التي وصلتني بعد ثلاثة شهور من الرحيل، كانت من شهلا، تخبرني أنهم جميعًا وصلوا إلى القاهرة بسلام، وأنها مع يعرب وذيب، وقد انتظموا في صفوف الجامعة، بعد معادلة أوراقهم الدراسية مع النظام التعليمي في القاهرة، وأنهم جميعًا بخير، وسوف يقومون بما يمليه عليهم الواجب من أجل مصلحة بلادهم، وأما والدها عبيد فقد غادر إلى بغداد بعد أن أطمأن على أحوالهم في القاهرة، المدينة التي لا تنام، كما تقول شهلا، والتي تزخر بحياة لم نكن نعرفها ولم نكن نتصور وجودها، هكذا قالت ابنتي، وأنهت شهلا رسالتها، بحبها، وشوقها للقائي.

انتظرت بعد ذلك ما قدرته بحسب حساباتي الخاصة مدة عشرين شهرًا حتى يعود عبيد، ولم تنقطع خلالها أصوات

الرصاص والبارود، والدخان الأسود من بعيد، حافظت على الولد الذي ظل بحضني، ليس لأنها وصية عبيد، لكن لأن صالح صار صغيري الوحيد بعد رحيل أخويه من أجل مصلحة الوطن، كما تقول شهلا، أكملت دلال تعليم الأولاد في القرية، ومن بينهم صالح الذي أظهر نبوغًا في التحصيل العلمي، كما قالت دلال، وعدته أن أخيط له طاقية خاصة أنقش عليها اسمه، صار صالح يسأل عن الطاقية كل يوم، وأنا أجمع الخيوط من بعض النباتات الملونة، أجمعها من الجبل إضافة إلى خيوط أحتفظ بها، كنت قد اشتريتها من سوق صلالة الذي صار بعيدًا، صار شراء الخيوط بعيدًا، إلا أن المتوفر لديّ يكفي لطاقية صالح، وطاقية عبيد.

عاد عبيد بعد عشرين شهرًا، وقد عرف من جديد الابتسام الذي اختفي من وجهه منذ زمن، جاء معه بأوراق كثيرة، بلغات لا أعرفها، قال إن عودته من بغداد كانت صعبة للغاية، فقد طار إلى الكويت، ثم ركب سفينة بحرية تأخذه إلى أبو ظبي، ومن هناك كان عليه هو رفاقه، أن يدخلوا إلى عمان عبر الطرق الجبلية الوعرة، وأن يأخذوا حذرهم الشديد حتى لا يقابلهم الغرباء، فتكون نهايتهم جميعًا، وأنه لولا وجود أحد الرفاق معهم ممن يعرف الطرق الجبلية، لكانت نهايتهم إما برصاص الطرف الآخر، أو تحت أنياب وحوش الجبل الضارية.

رائحة عبيد تختلف، هناك رائحة أخرى، غريبة، وإن عرفت ماهيتها إلا أنني لم أتكلم في شأنها، يهمني فرح عبيد بعودته إلى

بلاده، وعودته لي، وأتوجس من تلك الرائحة التي خلخلت كياني الأنثوي، تعمدت تجاهل هذا الحس الغريب، وتلك الرائحة، وددت لو أن عبيد لم ينطق بما نطق به، ولم يخبرني بما أخبرني به.

قدمت لزوجي كأس الحليب المخلوط بالكركم، كان بيتنا يفوح برائحة اللبان الذي يحبه، وقد اشتاق له بكل تأكيد، أسمعته كلمات حول اشتياقي له، ورأيت لمعة الدمع في عينه، أخرجت من تحت وسادته الطاقية التي عملت عليها لشهور طوال، طاقية عميقة، تغطي كل رأسه، كما يحب أن تكون طاقيته، رآها ولم يحك.

- هذا اسمك منقوش عليها بالألوان، صنعتها لك يوم تعود.

- أعدك ألا أخلعها عن رأسي حتى آخر يوم في حياتي.. ولكن...

- ماذا؟

- وددت أن أخبرك شيئًا، وأن أعطيك أمانة؟

- ماذا يا عبيد؟

- سامحيني يا زعفرانة.

- تكلم يا عبيد.. على ماذا تطلب السماح؟

- في بغداد.. لي ابنة في بغداد، أظنها أكملت عامها الأول الآن.

- تزوجت من امرأة ثانية يا عبيد؟

- سامحيني يا زوجتي الحبيبة، لقد طالت مدة الغياب.

- عرفت رائحة المرأة في جلدك.

- سامحيني يا زعفرانة.. وتقبلي أمانتي هذه.

- أمانة.. ماذا؟

- هذا مظروف صغير، به خصلة من شعر ابنتي "زعفرانة" أبقيه معك يا زوجتي، فلا أعرف متى يمكن أن ألقاها.

الفصل التاسع

على الساحل الإفريقي

أصر حامد على حضور مناقشتي لمشروع تخرجي، لا أنكر أنني كنت سعيدة بزيارته للدوحة لأول مرة، من أجل حضور جلسة علمية لمناقشتي، برر ذلك أن البحث الذي قمت به، يهمه كعماني، ويهمه أن يعرف إذا كانت زعفرانة الظفارية، هي تلك الزعفرانة إلى نشأت في الذخيرة، ثم عادت إليها لاحقًا، ليبرر حامد زيارته للدوحة كما يشاء، ففي داخلي ما يدعوني للاقتراب من حامد، وأظن أن لديه نفس الصوت الداخلي الذي يدعوه للاقتراب مني.

في وسط الاستعدادات والإعدادات ليوم المناقشة، فكرت أن أبحث عن أحد من بيت الزعلان في الجامعة، صارت عائلة الزعلان اليوم، من أكبر العائلات ثراءً في بلادي، محال للمجوهرات، وصياغة الذهب، وحتى افتتاح بنك الزعلان في العام الماضي، العائلة مترامية الأطراف، فالرجل الأول، قد تزوج مرات عدة، خاصة بعد انتقاله من الذخيرة إلى الدوحة، تزوج ثلاث نساء، بخلاف زوجته الأولى، كل زوجة منهن من بلد عربي شقيق، حتى

أطلق عليه بعض الظرفاء، اسم جامعة الدول العربية، وكل من الزوجات العربيات، أنجبت له ما بين أربعة وخمسة من الأطفال، وعندما توفاه الله، اتفق الورثة على أن يظل اسم الشركة الأساس، شركة الزعلان كما هي، وأن تتكفل الشركة بالإنفاق على جميع الورثة؛ الأرامل الأربع بالتساوى، ويتم الصرف على الأطفال القاصرين، من تكاليف دراسية وحياتية، حتى يبلغ كل منهم سن الرشد، فاذا بلغ سن الرشد، وهي ثمانية عشر عامًا، خصصت له الشركة قطعة أرض في الدوحة، ثم يُصرف له ثمن بناء بيته متى شاء، على ألا يزيد ثمن البناء عن رقم محدد.

تداول الناس هنا، أخبار بيت الزعلان بكثرة بعد رحيل الرجل الكبير، قيل إنه مات فقيراً معدمًا لأنه لم يكن يُخرج زكاة أمواله، وقيل إنه وضع ثقته في رجل آسيوي كان يعمل لديه، فقام بتحويل مال العائلة إلى حسابه الخاص، ولم يبق للرجل الكبير - الذي كبر حتى صار ملازمًا للبيت - إلا بيوت زوجاته، وفرع وحيد من محال الذهب الكثيرة التي تنتشر على مساحة البلد، وقيل إن ديون البنوك على الورثة، ستجعلهم يتخلون عن التفاخر والعجرفة، ليعيشوا واقعًا أكثر صرامة من أيام جدهم الأكبر في الذخيرة.

لكن ما حدث، أن اسم الزعلان ظل متساويًا في القوة والتأثير، قبل وبعد وفاة الرجل الكبير، حتى أن العائلة التي كانت بيتًا واحدًا، عندما تزوجت جدتي من جدي الذي ائتمنه الزعلان الأول على تجارته، أصبحت الآن عائلة كبرى، حتى أنها تزاوجت،

وتصاهرت مع أغلب العائلات في البلاد، ولا تكاد تذكر اسم العائلة، إلا وتجد أحد منتسبيها أمامك في التو واللحظة، فكرت في دعوة أحد من بيت الزعلان إلى مناقشتي، رغم أنني لن آتي على ذكر اسم العائلة في بحثي، ولكن إكرامًا لذكرى الرجل الأول وذكرى جدي، رحمهما الله، فقد كانا قريبين من بعضهما البعض، ربما حتى نهاية العمر، وربما، ربما يتذكر أحد من بيت الزعلان، إن هذا المال، إنما كان لزعفرانة، التي تنكر لها الجميع بمن فيهم، الرجل الكبير.

بحثت في سجلات الجامعة، عن اسم يحمل كنية الزعلان كعائلة، لم يكن من حقي الدخول إلى السجلات بالتأكيد، ولكنني استعنت بأخت صديقة لي، تعمل في قسم التسجيل، قالت إنها لن تعطيني، أي ورقة مستخرجة من السجلات الرسمية، لكنها ستخبرني إن وجدت هذا الاسم بين الطالبات المنتظمات اليوم في الفصول الجامعية، وافقت بالطبع، وانتظرت ثلاثة أيام حتى خابرتني هاتفيًا:

- وجدت لك اسمين من بيت الزعلان، مسجلتين حاليًا في الدراسة.

- رائع، أخبريني الاسمين.

- الأول، سارة الزعلان، لكن مع الأسف هي حاليًا في إجازة أمومة، وستعود بعد عشرة أيام.

- والثانية؟

- الثانيه، هي نورة الزعلان، مسجلة في قسم الكمبيوتر، تدرس

تخصص الأمن السيبراني، سأعطيك رقمها الهاتفي، وحتى رقم سارة، سأرسله لك.

- جميل جدًّا، أشكر لك هذه المساعدة التي لا تقدر بثمن.

- لكن عليك ألا تذكري اسمي أبدًا، لو سُئلت عن كيفية الحصول على أرقام الهواتف، لا أريد مشاكل تخص عملي.

- مفهوم طبعًا، اطمئني، لن أشير إلى اسمك أبدًا.

نورة الزعلان، قسم الأمن السيبراني، اتجهت إلى مقر قسم الكمبيوتر في كلية العلوم، وسألت عن القسم المطلوب، عرفت مكانه، ودخلت معمل الحاسوب، ثم سألت الفني المشرف على المعمل، هل معكم هنا نورة الزعلان.

لم أتوقع أن ترد علي سؤالي نورة نفسها، وجدتها، نورة الزعلان تلتفت نحوي.

- أنا نورة الزعلان، خيرًا؟

كانت تلبس ثيابًا فاخرة، وتعلق حقيبة يد غالية الثمن، لا يحصل عليها إلا الفئات المتميزة من الأثرياء، كانت نورة كما يجب أن تكون المنتسبات إلى عائلة الزعلان، تلعَثَمَتُ قليلاً في الرد عليها، وكأنني لم أجهز نفسي للحظة اللقاء هذه.

- أهلاً نورة، أنا اسمي زعفرانة، زميلة لك في الجامعة في قسم التاريخ، بعد غد سيكون لي موعد لمناقشة مشروع التخرج الذي عملت عليه في الأسابيع الماضية.

- مبروك مقدمًا، لكن ما لي أنا، وهذا الأمر؟

- نعم صحيح، كان جدي لأمي رحمه الله، يعمل لدى جدك ماجد الزعلان لسنوات طوال، نشأنا نسمع كل خير عن جدك وعائلتك الكريمة.

- شكرًا، لكن ما المطلوب مني الآن؟ رعاية لمشروعك مثلاً؟

- لا، لا، أبدًا لا أقصد هذا، فقط إكرامًا لجدي وجدك، جئت لأدعوك لمناقشة مشروع تخرجي، أنت، ومن تشائين من أسرتك الكريمة، قولي لهم زعفرانة، تود أن تراكم في هذا اليوم المميز جدًّا بالنسبة لها.

- شكرًا لك على الدعوة، لا أظن أنني قادرة على الحضور، فجدولي أيضًا ممتلئ بالانشغالات ما بين المعمل والمحاضرات.

- طيب ما رأيك أن نتواصل للمعرفة، إكرامًا لذكرى الإجداد كما قلت لك؟

- اتركي لي رقم هاتفك، وسوف أتواصل معك في وقت آخر أكون فيه أقل انشغالاً.

تركت رقم هاتفي عند نورة الزعلان، لكنها لم تلق بالاً للقائي، ولم تبد اهتمامًا بأمري، الأمر الذي كان مستغربًا بالنسبة لها، بل ولم تجد حكاية "ذكرى الأجداد" مبررًا كافيًا لها، كان لقاء نورة محبطًا لي بشدة، أزعجني بشدة أن تظن تلك الفتاة الثرية، أنني

أطلب دعمًا ماديًا لإكمال بحثي، أو إكمال دراستي، أزعجني ذلك اللقاء الذي ظننت أنني سأخرج منه بمعلومة حول زعفرانة الزعلان، لكني أخطأت التقدير، فعائلة الأمس، غير عائلة اليوم، حتى إنني لم أقم بالاتصال بالسيدة سارة الزعلان، تلافيًا للمزيد من الإحباط، وزعزعة الثقة بالنفس، ويكفيني الآن أن حامد قادم من عمان ليحضر مناقشتي، كما أن خالي ناصر، سوف يأتي في زيارة قصيرة إلى قطر، ليحضر هذه المناقشة، ويستمع إلى نتائج البحث.

بدأ أستاذي المشرف في تقديمي إلى السادة الأساتذة المحكمين، والسادة والسيدات الحضور، ومن بينهم أمي وأبي وخالي ناصر، وحامد الذي عرَّفته على عائلتي قبل أن تبدأ المناقشة، قدمني المشرف باسم الطالبة الشجاعة.

- الطالبة الشجاعة التي تصدت لهذا الموضوع الشائك، الذي يخشى الأساتذة منا الخوض فيه، أو الاقتراب منه، لتجنب أي إشكال غير متوقع، وأعترف لكم اليوم، بأنني حاولت أن أثنيها عن البحث، أو الاقتراب من هذا الموضوع، لكن شجاعة الطالبة زعفرانة، جعلتني أتحدى نفسي حتى لا أكون أقل شجاعة، وها أنا اليوم أشارككم نتائج بحثها حول تاريخ ظفار الحديث.

بدأت باسم الله وبالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل، ولكل من ساعدني في إدارة هذا البحث، وخصَصت خالي ناصر، والزميل حامد من عمان، لمساعدتهما الجليلة، ثم بدأت في استعراض تلك الأسباب، التي أدت إلى حالة التذمر بين الظفاريين، ليس في مرحلة الستينيات من القرن الماضي فقط، ولكن المراجع تذكر أن حالة التذمر، وبداية الحراك، قد بدأت في نهاية حقبة الخمسينيات من القرن العشرين، ثم استمرت ما بين صعود وهبوط، وما بين شد وجذب بين أطرافها العديدة، وما بين المركزية واللا مركزية، والاجتماعات المتكررة للظفاريين، سواء في ظفار نفسها، أو في مكان آخر مثل الكويت أو بغداد، وبالتحديد في قضاء بعقوبة في العراق، ومن ثم تكوين جبهة تحرير ظفار، ودورها في مقاومة الانتداب البريطاني المهيمن على منطقة الخليج العربي بأكمله، ومن يدعم تلك الهيمنة.

كان عليّ أن أكمل تقديمي للبحث المتوسع الذي بين يدي في عشر دقائق فقط، صرفت نصفها في أسباب التذمر وبداياته، ووجدت أن الحديث عن مؤتمر حمرين، الذي نظمة قادة الجبهة نهاية حقبة الستينيات، حيث وجدت من خلال ما قرأت من مراجع، أن هذا المؤتمر، كان مفصلاً هامًا لكل ما حدث في منطقة ظفار بعد ذلك، فقد تمخض المؤتمر عن نتائج هامة، مثل الالتزام بالعنف الثوري، وتبني الاشتراكية العلمية، وهنا كان أن ظهرت الانشقاقات بين القادة المجتمعين، ما بين اليمين واليسار، وانعكس ذلك إيجابيًا في نواح معينة، وسلبيًا في نواحٍ أُخرى.

لم أنس الإشارة إلى دور المرأة، والتوصية التي خرج بها المؤتمر، والتي تعدت دور المساندة اللوجستية السرية، إلى حمل السلاح، والمشاركة الفعلية في العمل المسلح، ومن أجل حماية هؤلاء القادة لأنفسهم، كما تم إقرار الإعدام كعقوبة وجزاء للخيانة العظمي، دونما تعريف محدد للخيانة العظمى، حتى صارت الوشاية المغرضة، أحد أسباب الإعدامات، ومن غير المعلوم إذا كان كل من تم إعدمه في تلك الفترة، قد ثبتت عليه تهمة الخيانة العظمى، أم أنها بقيت اتهامات بلا إثباتات ولا أدلة.

صفق الحضور كثيراً جدًّا، لم تلقه زميلتي الفلسطينية التي تحدثت عن ثورة القسام، رغم الجهد والنتائج التي وصلت إليها، صفق جميع الحضور، والأساتذة حتى ظننت أن هذا التصفيق ليس لي، ولكنني كنت في دائرة الضوء، حتى توقف التصفيق بمحاولة الأستاذ أن يلتزم بالوقت المحدد لي، وللسادة المحكمين.

أشاد كل من المحكمين بالجهد المبذول، والقراءة التاريخية العميقة، والتحليل الأكاديمي المنتظم، ولم يجد الأساتذة ما يمكن أن يقلل من القيمة العلمية للبحث، بل إن كليهما وجدا فيه بداية لبحث الماجستر، والدراسات العليا، فيما لو قررت أن أكمل دراستي الأكاديمية.

عندما احتضنني أبي فرحًا بهذا الإنجاز، قال:

- هكذا، ضمنت موافقتي على إكمال دراستك العليا في المكان الذي تختارين.

أما حامد، فقد شد على يدي بحرارة، قال إنه لم يفهم ما حدث في منطقته، حتى سمع شرحي المفصل، والموجز في ذات الوقت، طلب مني نسخة ورقية من البحث المكتوب، فقدمتها له سعيدة لسعادته، ولإنجاز التحدي الذي أخذته على نفسي، خالي ناصر كان فرحًا مستبشرًا بإنجازي هذا، قال إنني قد عرفته على تاريخ قريب، وبعيد في الوقت نفسه.

- أما هديتي لك، فستكون زيارة أخرى إلى تنزانيا، هذه المرة، لتقابلي أحد الصيادين هناك، صيادًا يدَّعي أنه يعرف اسم زعفرانة لامرأة من زنجبار، وأنها كانت هنا أو أنها ماتت، لا أعرف، الأفضل أن تكوني هناك لطرح الأسئلة.

لم تصحبني أمي هذه المرة إلى تنزانيا ومنها إلى زنجبار، كان حامد يتمنى أن يرافقنا في هذه الرحلة، فقد تلقى الدعوة نفسها من خالي ناصر، أظنه لاحظ اهتمام حامد بي، أو اهتمامي به، لا أدري إذا كان اهتمامي بحامد نابع من كثرة تواصلي معه في الفترة الماضية، والغوص في الثقافة الظفارية، حاضرها وماضيها، أو أن أسلوبه في المحاورة، واهتمامه بتاريخ بلاده، كما اهتمامه بمساعدتي، قد يكون هذا الأسلوب المهذب جدًّا، هو ما يجعلني، كثيرة التفكير في حامد، على كل حال اعتذر حامد لخالي في عدم قبول دعوته الكريمة هذه، ووعد بتلبيتها في وقت آخر، فعليه العودة السريعة إلى جامعته، واستكمال أوراق التخرج.

في زنجبار التي رأيتها مع خالي سابقًا، ذهبنا إلى السوق كما في المرة السابقة، هذه المرة، بعد أن حدد خالي موعدًا مع الصياد الذي اتصل به قبل أيام، ليخبره أنه يعرف امرأة اسمها زعفرانة، سأل خالي عن الرجل المنشود، حتى وصلنا إلى دكانه، دكان قديم ومظلم، يبيع فيه الحبال وشباك الصيد، ومسامير لصناعة السفن، وأشياء أخرى لا أعرفها، لكن يبدو لي أن جميعها من معدات الصيد البحري.

أجلسنا الرجل الأربعيني، وطلب لنا الشاي الأسود الغامق، تردد في قبول الورقة النقدية الكبيرة التي ناوله إياها خالي، لكنه، وبعد تردد قصير، دسها في جيب ثوبه الداكن، ذاك الذي يشبه ثوب حامد، ولا يشبه ثياب أبي البيضاء دومًا.

بدأت الحديث:

- يا عم، علمنا أنك تعرف سيدة هنا اسمها زعفرانة، فماذا تعرف عنها؟
- وأنت، لماذا تريدين أن تعرفي زعفرانة هذه؟
- أنا اسمي زعفرانة يا عم، ولم أجد في بلادي من يحمل هذا الاسم، فقط أريد أن أعرف إذا كان هنا من يحمل اسمي؟
- حتى لو كانت زعفرانة الزنجبارية معنا، فلن تعرفك، فلون بشرتك ليس أسمر كفاية كما هو لون بشرتنا، زعفرانة التي أعرفها، لها بشرة سمراء، هي زنجبارية، لكن تفهم العربية، دون أن تنطق بها.

- أين هي يا عم، أين السيدة زعفرانة الزنجبارية؟

- اشربي الشاي يا ابنتي، ألم تُعلم ابنتك تقاليدنا يا أستاذ؟

شربت الشاي الداكن، والمحلى بالكثير من السكر، حتى رأيت خالي، تكاد تفضحه الضحكة المكتومة، الظاهرة على وجهه.

- والآن يا عم، أين زعفرانة؟

- ذاك الدكان، في آخر الشارع، دكان الخيوط وزينة النساء، ذاك دكان زعفرانة.

- صحيح، هيا يا خالي إلى دكان زعفرانة.

- انتظري قليلا، زعفرانة ليست هنا، والدكان مغلق.

- مغلق، لم تأت اليوم إلى السوق، أين بيتها إذن؟ أم علينا أن نعود لها غدًا؟

- سيكون الدكان مغلقًا أيضًا في الغد، وبعد غد.

- خير يا عم! لماذا؟ أين زعفرانة إذن؟

- رحمها الله، ماتت زعفرانة قبل عامين.

- ماتت؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

- أي والله، مرضت وماتت، ومنذ ذلك الوقت، ودكانها مغلق، فوالدها المسكين، لم يفتح الدكان منذ وفاتها.

- والد زعفرانة، ما زال حيًا، أين هو الآن؟

تدخل خالي هنا، وقد اكتفى من العم بحكايات لا تأتي بأية نتيجة.

- ألا يكفي هذا يا زعفرانة؟ أظن أنك لن تحصلي على معلومات مفيدة أخرى.

- فقط هذه المحاولة يا خالي، لن أزعجك بعد ذلك.

عاودت الالتفات إلى الرجل الزنجباري الأسمر، الذي يتحسس الورقة النقدية في جيبه، ويطمئن على بقائها.

- ماذا يا عم، ماذا تعرف عن والد المرحومة زعفرانة، أين هو بعد وفاتها؟

- العم سعيد، المسكين، كانت زعفرانة هي من تعتني به هنا، وهي من يقف في الدكان بدلاً منه، كان الله في عونه.

- أين هو الآن يا عم؟

- في ممباسا، أخذه ابنه صالح بعد موت أخته، فلا أحد هنا يعتني به كما تعلمين، فهو رجل وحيد، لا أهل له.

- نعم نعم، صالح هذا، كيف نعرفه؟

- صالح، جميعهم هناك يعرفون صالح، اسألي عنه هناك، سيعرفون.

- أسأل من يا عم؟

- هناك في ممباسا، سيعلمونك عن صالح.

وصل صبر خالي إلى حده الأقصى، أمسك بيدى واقفًا، شكر الرجل على هذه المعلومات، وخرجنا من دكانه.

- غدًا سنذهب إلى ممباسا في كينيا القريبة من هنا، قبل أن تسألي، سنذهب.

قفزت فرحًا لاستعداد خالي أن يساعدني في ما أسعى إليه، لن أعود راضية عن رحلتي هذه، حتى أتابع الخيط الذي أمسكت به اليوم.

لم يكن الرجل الزنجباري مخطئًا، منذ وصلنا إلى ممباسا، دعاني الخال للمشي على الشاطئ الرملي الجميل، شاطئ برمل رطب منعش عند الدوس عليه حفاة الأقدام، حملت نعالي بيدي، وتركت لقدمي أن تغوص في الرمال الباردة، والخال لا يخرج من عباءته الرسمية كسفير، فترك أقدامه حبيسه الحذاء اللامع.

على الشاطي، تكاثر الباعة المتجولون حولنا، هناك من يبيع الشاي والقهوة، ومن يبيع النظارات الشمسية المقلدة، ومن يبيع جوز الهند الذي تتكاثر أشجاره على الشاطئ، لم يشترِ خالي شيئًا منهم، لكنه كان يخرج قطعة معدنية لكل من يقترب منا، وأنا أسأل البائع.

- هل تعرف صالح؟ ابن العم سعيد؟

- نعم إنه في المدرسة.

كل من سألته حول صالح، رد عليّ بهذا الرد، صالح في المدرسة، حتى ضحك خالي من الأجوبة الغريبة، عدنا إلى الفندق المتربع في هدوء على الشاطئ، سألت الموظف الشاب في الاستقبال.

- هل تعرف صالح؟ ابن العم سعيد؟

- نعم إنه في المدرسة، إنه مدير المدرسة في هذه المدينة.

كدت أطير فرحًا، بجواب الشاب الأسمر، الذي وعدنا أن يأخذنا غدًا في فترة استراحته، إلى المدرسة، حيث الأستاذ صالح، مدير المدرسة.

رحب بنا المدير بحفاوة، عرف خالي نفسه له بأنه سفير خليجي، قد جاء ينظر في حاجة المدرسة إلى الدعم المادي، كان واضحًا حاجة المدرسة إلى الدعم المادي في كل جانب، لإصلاح الجدران المشققة، أو توصيل التيار الكهربي المنقطع عن المدرسة منذ خمس سنوات، كما قال المدير، إضافة إلى الألواح السوداء والطباشير والكتب، وقبل كل ذلك زيادة عدد المدرسين، ودفع الرواتب.

وعده خالي خيراً، ونقده ما في جيبه من مال، حتى يتواصل معه وفد الجمعية الخيرية، التي سوف ينظم لها الخال زيارة خاصة للمنطقة، حتى إذا انتهى حديث المدير مع الخال، بدأت في السؤال عن العم سعيد، وهل حقًّا كانت له أخت تدعى زعفرانة، وقد ماتت قبل عامين، هل العم سعيد هنا؟

- نعم، كل هذا حقيقي، كيف عرفت ذلك عني؟
- لا يهم الآن، هل يمكن أن ترتب لنا موعدًا للقائه؟
- موعد، إنه هنا، يعمل حارسًا للمدرسة منذ أتيت به من زنجبار.

كاد الفرح يقضي عليّ وأنا أرى العم سعيد، والد زعفرانة الزنجبارية، الرجل السبعيني، يدخل علينا غرفة المدير الرطبة، ويبادرنا بالسلام.

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف أنت يا عم سعيد؟ رحم الله ابنتك زعفرانة، وغفر لها.

دمعت عينا الرجل المسن، مع سماع اسم ابنته المتوفاة، ورفع كفه بالدعاء لها، تركت له المجال للحزن على فراق ابنته، ثم سألته:

- هل لي أن أعرف لماذا أسميت ابنتك زعفرانة؟
- هذا ما طلبه مني أبي، والدي صالح، تيمننًا باسم أمه التي لم أرها.
- جدتك كانت زعفرانة؟ هل هي من هنا من ممباسا؟ أم من زنجبار؟
- لا من هنا ولا من هناك؟ أخبرني أبي أنها من عُمان، هناك بعيدًا، وراء البحر، لم أرها يومًا، لكنه ظل يذكرها طوال عمره، لم تقبل زوجته الزنجبارية، زوجته الثانية، أن تسمي إحدى بناتها باسم زعفرانة.

- أخواتك! هل لك أخوات؟

- لا، صالح هو خالي، أخ لأمي التي رحلت منذ زمن بعيد، وصالح خالي أخذني إلى هذه الديار، أخذني صغيراً جدًّا، حتى صارت ديارنا التي لا نعرف سواها.

- ماذا عن أبناء صالح نفسه؟

- لا أبناء من زوجته الأولى، دلال، قريبة خالي صالح، وكانت لي الأم التي لم أعرف سواها أمًا، لكن زوجة خالي الثانية، أنجبت ثلاث بنات، منهن من ذهبت إلى السودان، ومنهن من ذهبت إلى الصومال، لا أعرف الكثير عنهن.

- والسيدة والدتك، هل لي أن أعرف اسمها؟

- اسمها، شهلا.

اكتفيت بما عرفت من الرجل المسن، عن أمه وجدته، أشرت إلى خالي برغبتي في الخروج، خرجنا، وأنا أحاول أن أربط الأسماء والأماكن، لله درك يا جدتي، ما كان قصدك عندما أسميتني هذا الاسم؟!

لم يقبل خالي أن نخرج من ممباسا، دون أن يأخذني إلى مكان مميز، كما قال.

لم أكن أعلم أين نذهب، حتى سألني خالي، ماذا تعرفين عن ابن ماجد؟

- هو ملاح عربي شهير.

- هل تعلمين أنه عماني؟
- لا!
- هو ملاح عربي شهير بالفعل، ولد في جلفار بساحل عمان، وكتب مؤلفات كثيرة اعتُبرت من أهم المراجع الملاحية لعدة قرون.
- جميل، وما دخل العلامة أحمد بن ماجد، فيما نذهب له اليوم؟
- هنا يا عزيزتي، قريبًا من ممباسا، منطقة مالندي، المكان الذي انطلق منه ابن ماجد، في رحلته الشهيرة إلى الهند، ويقال أن البحار البرتغالي فاسكو دي جاما، قد استعان بمعرفته في علوم البحر، للاستدلال على الطريق من هذه النقطة في كينيا، إلى الساحل الهندي.

وصلنا إلى مالندي، هناك على الساحل، حيث تنطلق السفن في إبحار طويل، لوحة كبيرة، كُتب عليها، من هنا خرج الملاح العربي أحمد بن ماجد في رحلته الشهيرة إلى الهند، التقطت الكثير من الصور بهاتفي النقال، وفي نفسي رغبة شديدة لإرسالها إلى حامد لإخباره بما علمت عن ابن بلده؛ ابن ماجد.

ما أن عدت إلى بيت خالي في العاصمة التنزانية، دار السلام حتى بدأت في إعداد حقيبتي للسفر إلى دوحتي، بعد أن أرسلت صور ممباسا، ومالندي إلى حامد، رن جرس الرسالة النصية على هاتفي النقال، فتحت الرسالة:

- مرحبا أخت زعفرانة، اسمي سارة الزعلان، سأكون سعيدة بمعرفتك.

الفصل العاشر

مريم وأوراق الرزنامة

في بيتي في الدوحة، صار لديّ جهاز هاتف، له قرص يحمل الأرقام من الصفر، وحتى الرقم (9)، أمام كل رقم حفرة صغيرة في القرص الزجاجي الشفاف، شرح لي زوجي كيف أُدير القرص بحسب الرقم المطلوب، رقمًا تلو الآخر، عندما أنتهي من إدارة الأرقام كافة، أسمع رنين الهاتف عند الطرف الآخر، ثم يصل ذلك الصوت من السماعة التي توضع على الأُذن، لسماع الصوت القادم من بعيد، الطرف الثاني من السماعة، يكون قريبًا من الفم، ليلتقط الكلمات، ويذهب بها إلى من أدرت رقم هاتفه، كانت أمي أول من أردت سماع صوته، رغم أنها تسكن البيت المقابل لبيتي، وجاء صوتها على الهاتف محملاً بعبارات الامتنان لزوجي في تركيب الهاتف في بيته، وأيضًا في بيتها.

لم أخرج طاقية عبيد، القديمة، إلا مرة واحدة، ألبستها لابني ناصر، لآخذ صورة شمسية له عند تسجيله في المدرسة، أحسست أنني أود أن تراه زعفرانة، لكنها كانت قد خرجت من المستشفى، ربما مع عبيد، خرجت، ولم تعد، تركت الطاقية، وفي طرفها بقعة

داكنة، لم تنجح المنظفات في إزالتها، تبدو دقة التطريز في الطاقية، لا تشبه هذه الطاقية أية طاقية في الأسواق، فقط هو ابني ناصر الذي سوف يلبسها لهذه المناسبة المشهودة، ورغم أن الطاقية كبيرة على رأس ولدي الصغير، وجدت في هذه الصورة شيئًا من زعفرانة مع ناصر.

وظل المظروف الصغير الذي يحمل خصلة شعر يميل إلى الأشقر، ظلت الخصلة داخله في أحد أدراجي الخاصة، حتى زوجي لم يكن يفتح هذه الأدراج، حتى صارت جزءًا منسيًّا في أدراجي، لم أعرف إن كان من الأفضل أن أتخلص منها، أم أتركها في مكانها الهادئ، لكن رأسي لم يهدأ من التفكير في العجوز زعفرانة، هل تراها ماتت مجهولة الهوية في الخلاء، أو أمام مسجد عتيق؟

وكأن زعفرانة، التي عودتني أن تمنحني الإجابة قبل السؤال، زعفرانة كانت لا تبتعد عن أحلامي، أحيانًا أراها في وضح النهار، أحيانًا أراها شابة، تحمل الأخشاب، وتجمع أوراق الشجر من الأغصان الجافة، وأحيانًا أراها طفلة تلبس **البخنق**، وتلهو على ساحل الذخيرة، وأحيانًا أراها عجوزًا لا ترى ولا تسمع.

كثيرًا ما أرى زعفرانة أمامي أثناء الصلاة، كثيرًا ما قطعت صلاتي لألتفت إليها، فلا أجدها، لازمتني زعفرانة طيلة أيامي، ولا أستطيع أن أحكي لزوجي الذي نهرني من أيام زواجي الأولى، أمرني ألا أراها، ولا أزورها، هل يعاقبني الله على عدم طاعة زوجي في هذا

الشأن؟ لم يكن لي أن أتحدث حول زعفرانة، إلا مع خالتي عائشة، صارت خالتي أرملة وحيدة بعد وفاة زوجها السيد خليفة.

لم يكن لدى خالتي هاتف في منزلها، رغم أن الخطوط الهاتفية، قد وصلت إلى الذخيرة، وأدخلت جارتها هذه الخدمة إلى بيتها، فإذا أردت أن أتحدث إلى خالتي عائشة، كنت أتصل بالجارة أم حسن، أخبرها بأنني أود الحديث إلى خالتي، أم حسن سيدة طيبة، لا تتهاون عن خدمة جارتها الأرملة، تطلب مني إعادة الاتصال بعد ربع ساعة، بينما تذهب إلى عائشة، تخبرها بأمر الاتصال، تلبس خالتي عباءتها، تتحمل عرجتها، وتذهب مع أم حسن إلى بيتها، قبل انقضاء ربع الساعة، وعندما أُعيد الاتصال، ترد أم حسن بالكلمه الأولى: "ألو" ثم تناول خالتي سماعة الهاتف، وتنشغل بأمور أُخرى.

أقنعت خالتي بالانتقال إلى الدوحة، فما عادت الذخيرة بالمكان المناسب لها، بعد أن رحل كل من تعرفه من الأهل والأحباب، قلت لها إن زوجي يرحب بها في بيته، بكت خالتي التي لم تنجب أبناء، وكانت دومًا ما تغالب خوفها أن تموت وحيدة لا يعلم بها أحد، وجدت في هذا الدعوة ما يناسب حالها اليوم، باعت نصيبها من البيت الذي تعيش فيه إلى أبناء عمومة السيد خليفة، وجاءت إلى بيتي، وضعت كل ما وصل إليها من المال في يدي، وكذلك مصاغها الذهبي، دمعت عينها، وهي تكرر:

- أرجو ألا أثقل عليك يا بنتي.

- بل ستكونين بركة لهذا البيت، كما ترين البيت كبير جدًّا، وزوجي كثير السفر، وأنت صديقتي الوحيدة، أنسيت زياراتنا السرية لأم يعقوب ولزعفرانة؟

- لا يا حبيبتي، لم أنس، ولا أستطيع أن أنسى، زعفرانة تزورني دومًا في المنام، وأحيانًا في وضح النهار أراها، ولا أعلم سر انشغالي بها.

- صحيح يا خالة، إنني في نفس هذا الحال منذ علمت أنها خرجت من المستشفى، وليس لي أن أحدث أحدًا في هذا الشأن؛ لا أمي ولا زوجي.

- لله درك يا زعفرانة، ما الذي تفعلينه بنا؟

- نعم، وكأن لها شيئًا ما هنا، تود حراسته!!

لم تكن خالتي تحتاج إلى حبل كي تصل إلى بيت الراحة لقضاء الحاجة، هنا في هذا البيت، لكل غرفة حمامها الخاص، كما لخالتي التي تستطيع رغم العرج، أن تصل إلى دورة المياه، كانت قادرة على الوضوء، وأداء الصلوات الخمس، في موعدها، كل ما طلبته خالتي، ساعة منبه كبير، لتقوم قبل أذان الفجر، فتقرأ ما تيسر من القرآن، وتقرأ الأذكار، حتى ينادي المنادي لصلاة الفجر، فتتوضأ، وتصلي، ثم تعاود النوم.

وجود خالتي في البيت أدخل على قلبي السرور والطمأنينة، حتى أن زعفرانة الأصل لو جاءت اليوم، ستجدني في مكان واحد

مع خالتي، التي كانت تهرس لها التفاح المسلوق، كانت خالتي هي الجدة القريبة لأبنائي، خاصة بعد انتقال عمتي أم زوجي إلى بيت آخر، أقرب إلى بيت الابن الثاني للعائلة، الذي صار صاحب منصب رسمي عالٍ في الدولة، بيت آخر يسمح بتجمع الأبناء، والأحفاد في مكانٍ واحد، فصار بيتي، لأول مرة، لي، ولزوجي، وأولادي، ثم لخالتي عائشة.

كتبت على ورقة الرزنامة "جاءت خالتي إلى بيتي لتبقى، ما أحلاها من خالة"، الجملة الطويلة لم تكفيها ورقة الرزنامة التي تحمل التاريخ، فقلبت ظهر الورقة، لأسجل محبتي للخالة، قرأت الكلمة/ الحكمة في ظهر ورقة الرزنامة، كانت حمكة اليوم تقول "كل جميل في الحياة، يبدأ بالعائلة، وينتهي بالعائلة".

أنست بوجود خالتي داخل البيت، وضعت لها صندوقي المبُيت القديم في غرفتها، حتى تسعد بمنظره كل يوم، حتى زوجي اعتبرها بركة البيت، وهي خفيفة الظل حلوة المعشر، حتى أنها حكت لزوجي حكاية، الفتى المليح صاحب العجلة، لكنها استبدلت بطلة القصة، ووضعت نفسها مكاني في الرواية المحكية، زوجي، كأبنائي، آنسهم وجود خالتي عائشة، التي أخذت دوري في تحفيظ سور القرآن الكريم للأبناء، والأحاديث الشريفة التي تحفظها، وبقيت أتابع مع صغاري، دروس العلوم، والحساب والتاريخ، ذلك الذي أجهل منه أكثر مما أعلم.

لم تتوقف أحاديثي، والخالة حول زعفرانة، حتى أننا ظننا أنها

تقيم معنا، تارة أشعر بالعجوز تتحرك في غرفتي، وتقف أمام خزانتي الخاصة، وأحيانًا، تحدثني خالتي أنها رأتها في المنام، وربما في اليقظة، تخيط قطعة قماش مزركشة، ويوم قرر زوجي، استبدال أثاث المنزل، بقطع أثاث جديدة، وأكثر مناسبة للعصر، وقف هو أمام خزانتي الخشبية، تلك التي تحوي الطاقية ذات البقعة، وخصلة الشعر الغريبة، وقف أمام الخزانة، يشير إليها، متعاليًا:

- هذه الخزانة بما فيها من محتويات لا أهمية لها، لن تظل في بيتي.

- صبراً إلى الغد يا أبو ناصر، سوف أنقل ما يهمني إلى مكان آخر.

في تلك الليلة، التي قرر فيها زوجي التخلص من الخزانة القديمة، في تلك الليلة رأيت زعفرانة، قوية وذات بنية جسدية متينة، رأيتها في ثياب غير الثياب التي أراها بها، منذ يوم عرفتها، أو بدأت في زيارتها، كانت تمسك بسكين حادة، تذبح بها عنزة صغيرة، العنزة تنزف حتى تموت، وزغفرانة، تسلخ جلدها، وتقطع لحمها، ثم تنظر لي في غضب.

صحوت من نومي مذعورة، نقلت أمانة زعفرانة، من الخزانة الخشبية التي أودعتها بها، منذ قبلت الأمانة، نقلت الأمانة إلى مكان آخر، في غرفتي أيضًا، ولكن في مكان أبعد من أن تصل له يد زوجي أو يد أحد الأطفال، ثم عادت زعفرانة تزورني في ليلتي تلك، لكنها العجوز التي تمسك بالإبرة والخيط، رغم العمى الذي صار رفيقها، هذه المرة، اكتفت بالخياطة، ولم تلق بالاً لتحيتي.

أصابت أمي الغيرة من علاقتي المتينة بالخالة، أصاب علاقتي بها فتور ما أردته لنفسي، صارت ترد عليّ باقتضاب، وعلى سلامي بروح ليست معتادة، أستحث أمي للحديث عن الذخيرة التي أشتاق، فترد في فتور:

- اسألي خالتك عائشة، ربما تعرف أكثر مني.

- وهل لي غيرك يا أمي؟

عملت على تخطى الحاجز البارد الذي أصاب علاقتي بأمي، ما عدت أذكر اسم أختها، فلا أثير الغيرة المزعجة، على الرغم من أن أمي لا تعلم حتى الآن بزيارتنا، أنا وخالتي، إلى بيت الزعلان، أو بالأحرى زيارة زعفرانة، كانت تطلب مني زيارة بيت الزعلان الكبير، وقد صار اسم العائلة مرتبطًا بالعائلات الكبيرة والثرية، كنت أعتذر لأمي عن تلك الزيارة، فلا أريد لزوجة العم ماجد الزعلان أو ابنتها الطيبة، التي دلتني على مصير زعفرانة، لا أريد لأحد منهم أن يذكر زيارتي الأولى لهم، أو زياراتي القديمة لبيت الذخيرة، التي خصصتها فقط، لزعفرانة.

في البيت نفسه، الذي انتقلنا له من الذخيرة، حين كانت ابنتي شيخة، في الثالثة من عمرها، في ذات البيت الذي توجت أيامي الأولى به بولادة ابنتي عائشة، التي بشرتني بها زعفرانة، كما بشرت بولادة ناصر، فوضعت ذكرًا، بعد عشر سنوات من ولادة شيخة، في هذا البيت الذي استطعت بين جدرانه، أن أُكمل ما أُكمل من الدراسة، وأحصل على شهادة تسمي الابتدائية، في هذا البيت

أيضًا، وقبل أن يقرر زوجي الانتقال منه إلى حي جديد من أحياء الدوحة، في هذا البيت، جاء من يخطب ابنتي شيخة، وهي في عامها الجامعي الأخير، جاء من يطلبها زوجة له.

وكأنني لم أعلم أنها ستصير زوجة، وأُمًا يومًا ما، وكأني أردتها بقربي طوال العمر، وكأنني أنا التي خبرت ما خبرت من الحياة، كأنني ما خبرت منها شيئًا، وزوجي يُعلمني، إن من جاء يخطب ابنتي، هو من رجالات الذخيرة القدامي، قد رأتها زوجته، أم الخاطب، رأتها ضمن إحدى فعاليات الجامعة، فقررت العائلة أن تخطب شيخة، وكأنني لم أكن مستعدة لهذا الحديث اليوم، أو غدًا، أحقًا هذا شيخة التي ستكون عروسًا؟ صار لي أن أصدق ما يكون، فالخطبة جادة، والرجل ينتظر جوابًا.

لم أستطع أن أحجب الأمر عن خالتي، التي رأت أن تكون أختها، أمي شيخة وجدة شيخة الصغيرة، أن تكون أول من يعرف، وكانت حكمة خالتي هي من كسر حاجز البرود بيني وبين أمي، أخذت ابنتي شيخة معي لزيارة جدتها، في البيت المقابل، وهناك تحدثت بأمر العريس الذي ينتظر الرد، تركت لأمي أن تحاكي حفيدتها، وحاملة اسمها شيخة، لتقرر إن كانت جاهزة لدورها كزوجة في القريب، بكت شيخة الصغيرة، ولكني كنت قد لمحت لمعة في عينيها فرحًا بالخبر الجميل، سألتني أمي:

- أما قلتِ لخالتك؟

رددت بالنفي المشدد، فارتخت عضلات وجه أمي، وقالت ما تقول الجدات للحفيدة في هذا الموقف، تركت لشيخة وشيخة تبادل الآراء؛ النصائح من الجدة، والمخاوف من الصغيرة المقبلة على حياة جديدة، لكنها – ابنتي - ستكون في بيت خاص، ولن يكون عليها الطبخ لكامل العائلة، بإشعال النار في الخشب الجاف، هكذا أنا، وهكذا الجدة، قالت الجدة، فضحكت الصغيرة، وابتسمت "موافقة" قالت.

لم تزرني زعفرانة تلك الليلة، وأنا بين الصحو والإغفاء، كنت أتمنى إشارة من زعفرانة، التي أنبأت خالتي عن ولادة شيخة، وأرسلت لي الماء المخلوط بكلمات كتابها القديم، لتغسل به خالتي وجهي، فتطل شيخة، بصراخ هادئ، تمنيت أن تأتي زعفرانة التي تعودت وجودها حتى بعد خروجها القطعي من المستشفى، تعودت زيارة زعفرانة، وحتى وجودها بالقرب من الخزانة الجديدة التي تحوي أمانتها، تلك التي أتعبني الحفاظ عليها، وليس لي حيلة إلا أن أستمر في الحفاظ عليها.

مرت شهور على خطبة شيخة، قُدم المهر، أو ما يسمى الصداق، وانشغلت العروس بالتجهيز لعرسها القادم، رأت أن تقيم عرسها في أحد فنادق الدوحة، لم تكن الفنادق قد انتشرت بشدة كما هي اليوم، لكن عددًا فخمًا من الفنادق، صار ينظم حفلات الزفاف. كما شاءت عروسنا الحلوة، تم عُقد القران في حفل عائلي، امتلأ البيت فيه بالضيوف من عائلتي، وعائلة العريس، نساء أعرفهن،

وأُخريات لا أعرفهن، في الصالون والمجلس، وحتى الممرات الداخيلة للبيت، امتلأت بالضيوف.

حيتني بحرارة تلك السيدة، احتضنتني بحرارة، وتحدثت عن قسوة الأيام التي تفرقنا ونحن على قيد الحياة، قبل أن نغادر الحياة، تحدثت عن هواء الذخيرة الذي تفتقده، وأنها تصر على أن تعود ذات يوم إلى الذخيرة، بعد أن تبني بيتًا صيفيًّا على شاطئ البحر، لاحظت بعد كل هذا الحديث أنني لم أعرفها كما تعرفني، فبادرت في التعريف بنفسها:

- أنا حمدة، كنا معًا صغارًا نلعب على شاطئ الذخيرة، معك أنت، ونورة، وحصة، ألا تذكرينني؟
- حمدة! بنت أم جابر جارتنا؟
- هي ذاتها.. نعم أنا حمدة.
- يا مرحبا يا أهل الذخيرة الكرام، كم مر علينا من الزمن؟
- لا أدري يا عزيزتي، إلا أنني صرت ألف الخمار على رأسي جيدًا حتى لا يبدو الشعر الأبيض.

ضحكنا كثيراً، حتى نسيت أمر الضيوف، وأنا أستذكر مع حمدة، ذكريات الذخيرة وأهلها، علمت أن أم جابر قد غادرت الحياة قبل عشر سنوات، ولم تغادر الذخيرة أبدًا، حتى أنها دُفنت هناك بحسب وصيتها، فكان لها ما أرادت، لكن حمدة جاءت إلى الدوحة مع زوجها الأول كما قالت، تطلقت بعد أن أنجبت ولدًا

واحدًا، ثم تزوجت من رجل كريم آخر، ولها منه ثلاث أبناء ذكور، قالت إنها تحسدني على إنجاب البنات الذي لم تجربه، وأنها طالما حسدتني على قدرتي على المشي حافية على الصخور الحادة على ساحل الذخيرة.

- هل تذكرين يوم "الدزة" الذي أقيم في بيتك يا حمدة.
- نعم أذكر ذلك اليوم جيدًا، كانت دزة رائعة بصراحة، والحق يقال.
- في ذلك اليوم، ظهرت عجوز غريبة في بيتكم.
- زعفرانة؟
- نعم زعفرانة، هل تعرفين شيئًا عنها، ربما من والدتك رحمها الله؟
- كل ما أعرفه يا عزيزتي، أن أمي كانت تحذرني من الاقتراب من بيت الزعلان، والاقتراب منها بالتحديد.
- لماذا؟ بماذا بررت تلك التحذيرات؟
- لا شيء إلا أنها، أقصد زعفرانة، قرأت كتاب الغزال، فلا يُؤمن جانبها، ولا أمان في الاقتراب منها، هكذا قالت أمي رحمها الله، ولم أخرج عن وصاياها.
- بالطبع، هذا ما يجب، تعالي إلى حيث أمي وخالتي عائشة، ستفرحان لرؤيتك.

فرحت أمي وخالتي عائشة بالفعل للقاء حمدة بنت أم جابر، الجارة الطيبة التي قضيت سنوات في معيتها، والتفت إلى دوري في الترحيب بالضيوف، والنساء ممن لا أعرف في كل زوايا المنزل، وإن كنت شغلت بكتاب الغزال الذي ذكرت حمدة اسمه هل يكون هو الكتاب الذي قرأت عليّ زعفرانة شيئًا من كلماته، في أكثر من مناسبة.

بحثت في أمانة زعفرانة التي تركتها معي، هل هنا ما يدل على كتاب، أو صفحة من كتاب، فلم أجد سوى الطاقية ذات البقعة الداكنة، والمظروف الصغير الذي لا يحتوى سوى على خصلة الشعر الشقراء، وكلمة "ابنتي زعفرانة".

للمرة الثانية انتظرت زعفرانة أن تطل عليّ في المنام أو اليقظة، خاصة بعدما ذكرت اسمها بالصوت العالي مع حمدة، وبعد أن جاء ذكر كتاب الغزال علنًا في بيتي، وبين حشد من النسوة، التفتت إحداهن نحونا في خوف، نفشت في ثوبها وقالت:

- أعوذ بالله من شر ما خلق.

لم أعرف أنا وحمدة ما الذي تقصدة المرأة، بالتعوذ بالله عندما سمعت اسم الكتاب، لكن حمدة، قد تعودت - كما يبدو - على أن تأخذ اسم كتاب الغزال، كشيء يدعو على الخوف، والاحتراز، وأن الابتعاد عن ذكره، هو الأفضل والأسلم.

تزوجت شيخة، صارت زوجة، وخرجت من البيت العتيق، بكت خالتي أكثر مما بكيت مع خروج شيخة الصغيرة من البيت، قدمت لها العقد الوحيد الذي احتفظت به، بعد أن باعت كل مصاغها، العقد الذي قدمه لها السيد خليفة صباح يوم عرسها، أو ما يسمى **الصباحية**، وطالما تزينت به خالتي في المناسبات الجميلة التي كانت تحضرها، وتصحبني معها، عندما يكون زوجي في أحد أسفاره المعتادة.

أمي أيضًا، قدمت لحفيدتها العروس، شيئًا من ذهبها القديم، شيخة الخجول تلقت هداياها بالدمع، والكثير من الحب لجدتها، وجدتها، قالت إنها ستحافظ عليها ما بقيت، فرحت بقولها لجدتها "إنها لولا كلماتها المقنعة، لما وافقت على الزواج، ولبقيت معنا طوال العمر" أسعدت تلك الكلمات أمي الغيور من وجود أختها عائشة، وسط عائلتي، لكن شيخة بحسها التلقائي، قد أزالت ما في نفس أمي من غيرة وتوجس.

ثم إن أمي كانت أول من علم بحمل شيخة، طلبت منها أن تذهب إلى جدتها ففعلت، فرحت أمي بما يذكرني بفرحتها بحملي الأول، على الرغم من أن شيخة تزوجت قبل شهور فقط، كانت الجدة تعد الأيام للعروسين، حتى قالت:

- يجب أن نسمع خبراً جميلاً من شيخة هذا الشهر.

وجاء الخبر الجميل من شيخة، صار بيننا جميعًا منافسة جميلة لاقتناء أغراض الطفل القادم، أو الطفلة، بينما اهتمت أمي بالمهاد الأبيض، اهتمت خالتي بالتغذية السليمة للمرأة الحامل، حرمانها من الحمل والولادة، لا يعني أنها لم تكن تعرف، ما هي التغذية الجيدة للمرأة الحامل، حتى أنها جهزت **حبوب الرشاد**، لصناعة ما يسميه الناس هنا "**الحسو**" وهو حساء خاص، يصنع من حبوب الرشاد هذه، العطار الجيد فقط، هو الذي يمكن أن يبيع هذه الحبوب، ثم إن صنع هذا الحساء، بالتوابل الأصلية مهمة لا يتقنها إلا القليل من النساء، وتتقنها نساء الذخيرة بالطبع.

اهتممت بتجهيز غرفة خاصة لولادة شيخة، كانت غرفتها في الدور الأول، هذه التي كانت غرفة للضيوف، ستكون الآن لشيخة، والضيف أو الضيفة الصغيرة التي ستأتي بها شيخة، مكان هادئ هو غرفة الضيوف هذه، وهي بعيدة نسبيًا عن غرفة نومنا الرئيسية حتى لا ينزعج زوجي، جد الطفل القادم، من صراخ المولود، زوجي نفسه، أتى للطفل بسرير جديد، سرير جميل، هزاز، لم يكن مثل هذا السرير موجودًا وقت أنجبت ابنتي، لكنه اليوم، صار لطفلها.

جاء بعد عدة أشهر، خبر إشارات الولادة المتكررة، تهاتفني ابنتي كل ليلة تقريبًا، وهي تشعر بما يشبه آلام الولادة، حتى ذهبت لها إلى المستشفى خمس مرات منفصلة، قالت الطبيبة، للولادة إشارات جادة لا تخطئها المرأة، عودا مرة أخرى.

حين زارتني زعفرانة الغائبة منذ زمن بعيد في منامي، زارتني بصورة وصوت واضح، بثوب جديد لم أره قبل الآن، هذه المرة كانت بصحبة خالتي عائشة، لها رائحة التراب الرطب، لأول مرة، نظرت لي زعفرانة بعينها البراقة في عيني، نظرت حتى وقفت لا أدري أين، ثم قالت:

- زعفرانة ستولد غدًا.

هزت خالتي رأسها تصديقًا، ثم مضت الاثنتان معًا إلى حيث لا أدري.

تعوذت باسم الله وقرأت آية الكرسي وأنا أرتجف، توجهت من فوري إلى غرفة خالتي، التي أعرف أنها الآن تقرأ وردًا من المصحف الشريف، لكنها كانت في سريرها لا تتحرك، ولا ترد على صوتي المنادي، الحزين.

لم تزرني زعفرانة أو خالتي في المنام، أو في اليقظة بعد ذلك، لكن شيخة ولدت "زعفرانة" في اليوم الثاني، وصارت لها غرفة الخالة، وغرفة الضيوف صارت ملك زعفرانة منذ ولدت.

الفصل الحادي عشر

زعفرانة بعد شهلا ويعرب

لم ينظر إلي عبيد في عيني عندما أخبرني إن له ابنة في العراق، سلمني الأمانه، وهو يعرب عن أسفة لما حدث منه، صوت مختنق، وربما دمعة حزن أو ندم، عدل وضع الطاقية على رأسه، أمسك بيدى وقبلها، ضمنى إلى صدره، عصر جسدي بين أحضانه، لم يطلب مني الكلام، ولم أتكلم حول ما حدث في العراق.

خرج عبيد من البيت، كان يقف أمام البيت رجل أبيض يميل لونه إلى الإحمرار، فوجئ به عبيد، تحدث معه بلغة غريبة، أشار الرجل الغريب إلى ساعته، ثم أشار إلى ما وراء الجبل، ثم ذهب، تلفت عبيد قبل أن يدخل البيت ليأخذ بندقيته، ويخرج مرة ثانية، هذه المرة، كان أحمد في انتظاره ليسأل:

- من هذا الرجل الغريب الذي كان هنا؟

- لا تهتم، رجل فقير أساعده بالمال.

برزت من عين أحمد شرارة رأيتها لوحدي، ومضى مع عبيد إلى حيث يختفيان، لمدة شهور طوال.

كانت تصلني كل بضعة شهور، رسالة من شهلا، شهلا الحنون والقوية، تكتب رسائل تشبه بعضها البعض، وكأنها تنسخ الرسالة القديمة، رسائل تخبرني فيها بأنها بخير، وأن يعرب وذيب في أحســن حـــال، وأن الحياة في القاهرة جميلة، وأنها محاطة برفاق كرام وأفاضل، وأنها ويعرب سيعودان، لكن عندما تنتهي السنوات الجامعية.

اشتريت حمارًا ثانيًا، بعد أن استلمت قدرًا من المال، لما ساعدت امرأة على استعادة قدرتها على المشي، فاستغنت عن العكاز، وصارت تمشي كما الغزلان، لم يتمالك الزوج نفسه من الفرح الجميل، وسألني عما أطلب، طلبت حمارًا، فكان لي ذلك، الحمار الجديد قوي البنية، يستطيع أن يحمل ضعف ما كان يحمله الحمار الأول، وقد أبقيت الحمار الأول لتنقلات صالح، في القرية وما حولها، مع حماري الجديد، صرت أستطيع أن أذهب إلى سفح الجبل، لألتقط الزهرات الموسمية، وأعود قبل أن تغيب الشمس، وافقت شامة على أن ترافقني ذات يوم، على أن نعود مبكرًا فلا يفوتها موعد زيارة قبر الشهيد زيد، مع أذان المغرب.

صار الدخان الأسود يصل إلى أنوفنا، بعد أن كنا نراه من بعيد فقط، صارت بعض الطيور تتساقط من السماء مختنقة بالدخان، وبعض الثعابين تدخل جحورها، ولا تخرج منها، صرنا ندخل الجحور قبل غياب الشمس، لكن الله خلق النهار كي نسعى في مناكبها، فكنا نسعى قدر ما نسعى، توقفت الأسواق عن بيع أي من

لوازم الحياة، وعدنا نعيش قلب الحرب، ولكن هذه المرة بالصوت والصورة، واللون والرائحة، صارت الحرب، المفردة السائدة لدينا، لا حديث بين رجال أو نساء أو أطفال، دون ذكر الكلمة الشريرة، إنها الحرب المجنونة.

يأتي عبيد بعض الوقت، يرتدي الطاقية التي نسجتها له يومًا، يجالس صالح، كما يجالس خصلة الشعر، يحاكيها، ثم يعيدها إلى مكانها، ويعود إلى مكانه في تلك الكهوف البعيدة، لم أعد أمشط شعري قبل مجيئه، ولم أعد ألبس أجمل أثوابي في انتظاره، لكنني وقبل خروجه من البيت، لا أنسى أن أُعد له كأسًا من الحليب الدافئ بالكركم، ولا ينسى أن يقبل جبيني، ويكرر:

- سامحيني، أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

يخرج عبيد، غالبًا وصالح نائم، أسمع صراخ طفل يبكي، وعبيد يتحرك من فراشه ليلبس عمامته، وحزام الرصاص ويمضي، يخفت صراخ الطفل مع خروج عبيد من البيت باتجاه الجبل، يبتعد عبيد، ويبتعد صوت الطفل حتى يختفي طيف عبيد، وصراخ الطفل يختفى معه، لكن أحمد دومًا ما ينتظره أمام الباب، أو أنه يراقبه من بعيد، حتى يعدل بندقيته على ظهره، ويغلق الباب وراءه، استغربت سؤال شامة ذات يوم، وهي عائدة من زيارة قبر ابنها الشهيد:

- من هم الأغراب الذين يتكلم معهم عبيد، غالبًا خارج القرية؟

- أصدقاء قدامى.

لكني أدركت أن أحمد يحكي لزوجته، حكاية الأغراب الذين لا أعرفهم، ما عدت أعرف رائحة عبيد، بعد أن عاد من العراق، وصارت خصلة الشعر الشقراء، في أمانتي إلى الأبد، لماذا يهتم أحمد بالأغراب؟ ولماذا يحكي لشامة؟ وماذا تقصد شامة بسؤالها لي؟ أعرف أن لا أحد بريء من الخبث والمكر والدسيسة، هكذا علمني كتابي القديم، اشتقت للكتاب، اشتقت أن أعود إلى كتابي الذي خبأته في مكان بعيد، لكن كلماته تحوطني، حتى مع أصوات الحرب المزعجة، مع اشتداد الحرب ومع أصوات عالية، هي أكثر من صوت رصاص متقطع، صارت أصوات تفجير هنا وهناك، ومع أصوات القنابل الدخانية وغير الدخانية، صار رعي الغنم أكثر خطورة، وأكثر مقامرة، بالأرزاق وبالأرواح.

ولدى صالح، كبُر، وهو يسمع أزيز الطائرات القريبة من سماء القرية والقرى المحيطة، كبُر، وهو يسمع كلمة حرب، وكلمة حذر كل يوم ألف مرة، حين نعود من انتشارنا النهاري، يطيب له أن أحدثه عن إخوته، شهلا ويعرب، طال الاغتراب، إلا من رسائل متفاوتة، رسائل تصل بعد شهور طوال من كتابتها، ولكنها تعلن لي أن أبنائي سائرون على خطة أبيهم، وإن كان يعرب قد استهوته الحياة القاهرية وقراءة كتب الأدب والأدباء، صالح يقرأ رسائل إخوته التي تعد على الأصابع خلال السنوات الخمس الماضية، وكأنها صارت الورد اليومي للقراءة، كثيراً ما يسأل:

- ترى ما شكل يعرب، وما شكل شهلا اليوم بعد هذه السنوات؟

أخبرته أن شهلا قصت شعرها الأسود الطويل، قصته إلى ما فوق الرقبة، عينها تحمل اليوم بريقًا خاصًّا، أنا فقط من يستطيع أن يعرف هذا البريق، أخبرته، أن يعرب وجد علاجًا للصداع الذي يشتكي منه دومًا، وصف له أحد العطارين دواء يأتي به من مدينة السلوم، على الحدود المصرية مع ليبيا، من هناك، من تلك الشجرة التي مات تحتها ثلاثة جنود مصريين، لم يتعرف عليهم أحد، ودفنهم شيخ عجوز تحت الشجرة، من هناك، تنبت ثمرة خضراء، وفيها شفاء للناس.

- يعرب يا ولدي، أحد هؤلاء الناس الذين وجدوا الشفاء مع الثمرة الخضراء.

يستمتع ولدي صالح، وأنا أقص عليه ما أقرأ، وما يظن أنني أتمنى، يضع رأسه الصغير على رجلي، وأنا أحكي، وأرتب الشعرات على رأسه الذي امتلأ بأزيز الطائرات، حتى ما عاد يسأل، متى تنتهي هذه الحرب، وكأنها هي الحرب، جزء من كل شمس يراها في الصباح، ويودعها في المساء، ما عاد عبيد يتحدث عن انتهاء أزيز الطائرات، ولا ما تقذفه من موت محقق، حتى مات الشهيد زيد مرة أُخرى، عندما سقطت قذيفة على الجبل الذي يحوي قبره، فتهدم رُبع الجبل، أو نصفه، لكن الحجارة المتساقطة، وقعت على قبر زيد، والضريح الذي تزوره شامة كل يوم، ضاعت ملامح الجبل التي نعرفها، وتراكمت الصخور فوق الصخور، وصارت شامة تقرأ الفاتحة على ابنها كل يوم، وهي في بيتها.

مع قذيفة أخرى، ودخان أسود آخر، قتلت ثلاث عنزات سماناً، كن كل ما تملكه جارة لنا، صرخت حتى كأن السماء انشقت لصوتها، ثم عادت، وأمرت بذبح العنزات الميتة، لتأكل منها مع صغارها، موسم الشتاء القادم، فُرش اللحم المملح على سفح الجبل، حتى جف تماما بعد أيام، ولم يجرؤ أحد أن يقول لها أن أكل الميتة حرام.

تعلم صالح مني صناعة الخليط والأدوية، تعلم فن تمييز الرائحة العطرية، وتلك السامة، كما تعلم أن يمسك بيديه ثعبانًا تسلل إلى فراشه، أو عقربًا اندس بين الأوراق التي تكتب فيها دلال دروسها له، رفضت دلال أكثر من خاطب حتى لا تكون شامة وحيدة، بعد موت زيد، وغياب ذيب في القاهرة، صارت معلمة القرية الوحيدة، وصار صالح المعلم الثاني، بعد دلال، والعطَّار الثاني، بعد أمه / أنا، وما أزال أجد بين أوراق عبيد، أوراقًا بلغة أُخرى، ليس لها رائحة، وليس بها ما يدل على أخبار شامة ويعرب، أو يدل على زعفرانة في العراق.

رفضت دلال أن ترافق أباها إلى الجبل عندما طلب منها ذلك، قال إن الرجال والنساء سواء في قضية الوطن اليوم، رفضت فأنقذت شامة من صرخة تشق السماء، جاء أحمد بأنباء نساء أخوات للرجال، تحدث عن بطلة تسمى فاطمة، وأخرى لم يلقَها تسمى وردة. فاطمة ووردة، هناك في الجبل البعيد، تضعان الخطط، وتخرجان ليلاً للهجوم على مقار الأغراب ممن يتحكمون في

مصائر البلاد، أختا رجال هما، كما قال أحمد، لكن دلال، رفضت ببساطة أن تترك شامة، كما رفض صالح أن يتركني.

ذاع صيت وردة الجبل، كما ذاع صيت فاطمة، صارت الأنباء تأتي من القادمين من الجبل، بشجاعة وردة، وصمود فاطمة، ولكن الطائرات ما تزال تئز، وتأتي بالموت المحقق للعنزات وتبيد المراعي، ولما قتل رضيع، وأخته الصغيرة وشُج رأس والدهما، مع سقوط قذيفة لا تعرف الرحمة فوق بيتهم الصفيح، صاحت الأم حتى ماتت هي الأخرى، وهي تحتضن بقايا وليدها، فأهال الرجل - الذي تغطي الدماء وجهه - بقايا البيت، فوق بقايا أسرته، لف عمامته السوداء على رأسه، تلثم بأطرافها، وأدار وجهه نحو الجبل.

فقدت البيوت من حولي أعزاء لها، وفقدت حماري الأول، وهو يلتقط رزقه مما تُنبت الأرض، راح الحمار الأول، ولا عزاء لى، أو لابني صالح، الذي التصق بي، أكثر من إخوته، الذين أخذتهم علوم الحياة، من علوم الحرب، وعلوم الجبل، حتى جاء عبيد، الذي امتلأ وجهه بالتجاعيد والغضب، جاء يومًا يطلب كأس الحليب بالكركم، يمتدح تلك الفتاة، وردة، والأخرى فاطمة:

- نعم الفتاة، ونعم البيت الذي خرجت منه.

على الحمار الذي تبقى لنا، حاولنا التسلل ليلاً إلى قرية أخرى، قيل إنها أكثر أمانًا، كان الصوت القادم من هناك، يقول إنها أكثر أمانًا، أفاد عبيد بنفس المقال، هناك أكثر أمانًا، خرجنا سبع نساء، وثلاثة من الرجال، وأطفال كُثر، بعض الأطفال تحمله الأمهات،

وأعرت حماري إلى امرأة حامل ضمن القافلة الباحثة عن أمان أكثر، علينا أن نسير في ظلال الجبل حتى لا ترانا الطائرات، مسيرة يوم، أو يزيد، هي التي نحتاج إليها لنصل إلى تلك القرية الآمنة، لكن بكاء الصغار جوعًا أو تعبًا أو بردًا، لم يجعل لنا خيارًا إلا أن نحاول قضاء الليل في كهف صخري مظلم، أشعلنا به بعض الأغصان، كان الكهف حنونًا، وكان نعم المكان الآمن طوال الليل، وما أن بدأ النهار، حتى بدأنا المسير في اتجاه تلك البلدة، كنا قد سرنا ما مقداره أربع ساعات فقط.

في طريقنا، مررنا على بقايا طائرة تحمل كلمات لا نعرف قراءتها، ليست كبيرة هذه الطائرة، وليست صغيرة، تبدو أجنحتها متمددة وقد احترق أغلبها، تبدو بقايا بشرية في مقدمة الطائرة، كانت النار ما تزال تشتعل، وتخفت في أجزاء الطائرة المتبقية، اهتم الأطفال باللعب حول الكائن الحديدى الضخم الذي لم يروا مثله حتى الآن، أمسكنا بالأطفال حتى لا يقترب أحدهم، إلا أنه من الأعلى جاءت إشارات أخرى، نار تصب من السماء حول الطائرة المحترقة، هل تحاول تلك الطائرة أن تبعدنا عن جسم الطائرة المحطم؟ أم أنها تنسف كل أثر لطائرة كانت تقاتل، فصارت أثرًا بعد عين، أيما كان الذي يقصده ذلك الوحش الطائر، فقد أصاب هدفه، وقتلت امرأة، وصغيرها الذي كانت تحاول إبعاده عن الحطام، لاحقًا أُحيط حطام الطائرة بالأسوار، وصارت زوجة الطيار الغريب، تزوره مرة كل عام لتضع الزهور على مكان مقتله، لا تعلم أنها أيضًا تضع زهورًا حيث قُتلت المرأة وصغيرها، ربما بطائرة زوجها، ولم يعلم بهما أحد سوانا.

دب اليأس في الجماعة التي على الدرب، وبدأت المرأة الحامل التي استعارت حماري، في إطلاق صرخات ألم تشبه بواكير الولادة، رغم أنها بعد لم تكمل شهرها السادس، ظلت تصرخ، حتى خرج الجنين من أحشائها ميتًا، فبدأت البكاء، قرر الرجال والنساء معًا، العودة إلى قريتنا، فلا ماء يكفي ليوم آخر، ولا دواء لمن أصابه الشرر من الطائرة المحترقة، وأختها التي قذفتها بالشرر من السماء، قررنا العودة إلى قريتنا، بعد أن كفنا المرأة الميتة بثيابها مع صغيرها ذي العامين، وهممنا بالعودة إلى الديار، لا نحمل إلا شرف المحاولة، والنعي لأهل المتوفاة.

جاء أحمد يسال عن عبيد على غير عادة، قلت له ربما ذهب إلى العراق لزيارة أهله، فلم يعلق أحمد على قولي، ولم يرفع رأسه ليراني، فعادة الرجال ألا تنظر مباشرة للمرأة الغريبة، والغريبة هي كل امرأة ليست أمًّا أو أختًا أو زوجة، لم يرد أحمد عندما سألته عن وردة الجبل ذائعة الصيت، البطلة التي تشبه الرجال في شجاعتها، وحبها للوطن، قال أحمد "إنها بخير" ومضى، لأمضي نحو خصلة الشعر الأشقر التي ما تزال تختبئ في أوراقي، أمسكت بالمظروف الصغير بعنف حتى تكسرت أطرافه، صرخت حتى إنني لا أعرف أن كنت قد سمعت نفسي، أم أن أحدًا سمع صراخي، ثم قرأت المعوذات سبع مرات، أعدت المظروف إلى مكانه، وندمت على الصراخ.

لم يكن من عادة شامة، وغيرها، أن تخرج من بيتها بعد مغيب الشمس، لكنها في ذاك اليوم جاءت إلى بيتي مهرولة، تصيح

باسمي، حتى ظننت أن إحدى بناتها، أو أحفادها قد أصابته قذيفة في مقتل، أو أن أحمد تزوج إحدى فتيات الجبل، أو بطلات الجبل كما صرنا نسميهن، وإن لم نعرف أسماءهن الحقيقية، لكن ما كان عند شامة من أخبار، كان أيضًا يشبه القذيفة لكنها قذيفة باردة.

- زعفرانة، جئتك بنبأ جميل، نبأ جميل جدًّا يا زعفرانة.
- اشتقنا لأي نبأ يسعد القلب يا شامة، هاتي ما وراءك؟
- أنت كريمة يا زعفرانة، وأنا آتية لك من الجبل البعيد بنبأ يسعدك.. فماذا في المقابل؟ لن أرضى بغير لحاف من الصوف تخيطينه أنت بنفسك.
- لك أكثر من ذلك إذا كان النبأ يستحق وزيادة.
- يستحق، يستحق وزيادة يا زعفرانة.
- هات ما عندك يا امرأة، فقد عيل صبري.
- ابنتك شهلا.. وابني ذيب.
- ما بالهما، قد مضت سنوات خمس، وربما أكثر على سفرهما لتلقي العلوم في القاهرة، بضع رسائل هو كل ما وصلني من شهلا خلال هذه المدة، ماذا تعرفين عنهما؟
- أعرف أجمل الأخبار؟ ذيب وشهلا.. هنا.. في ظفار.
- وصلا إلى ظفار، ولم يأتيا إلى هنا؟ ويعرب؟ يعرب أيضًا جاء معهما؟

- لا أعرف شيئًا حول يعرب، لكن ابني وابنتك.. تزوجا يا زعفرانة.

- شهلا تزوجت من ذيب؟ دون أن أعرف؟ أو يعرف أبوها؟

- لا بأس الآن يا زعفرانة.. المهم أنهما معًا الآن.

- معًا! هنا في ظفار! متى وصلا إلى هنا؟ من جاء بهذه الأنباء؟ انطقي يا شامة!

- حاضر.. سأقول كل شيء.

- أحمد أرسل لي من يخبرني بهذه الأخبار، شهلا وذيب هنا في الجبل، مع المقاتلين، لقد تزوجا في القاهرة، قبل أن يشدا الرحال إلى جبال ظفار، كان يعرب ينوب عن أخته لعقد القران، ثم إنه ترك لهما حرية البقاء في القاهرة، أو العودة إلى ظفار، كلاهما اختار العودة، وعادا.. منذ عام، ونصف العام!

- عام ونصف العام؟ شهلا هنا منذ عام ونصف العام؟ ولا أعرف؟

- زعفرانة، عليك بالتحلي بالصبر والهدوء.. شهلا الآن لها اسم آخر تُعرف به في جبال ظفار، اسمها.. وردة الجبل.

وقع الاسم عليّ كالريح البارد، والعطر المعتق، هي وردة التي لا يقبل عبيد أن يتحدث عنها، وردة الجبل.. هي ابنتي شهلا؟!

- ما بالك يا زعفرانة، ألا تصدقين ما أقول؟

- بلى أصدق جدًّا.. وأعرف أنه ما زال لديك من الأنباء أكثر من هذا.

- صحيح.. كيف علمت؟

- تحدثي يا شامة، فقد أوجعني الصبر على حديثك البطيء.

- شهلا وذيب، لديهما طفل عمره الآن عام كامل.

- حفيدي.. صار عمره عامًا.. ولم أعلم بوجوده!

- ألم تقولي إنك كنت تسمعين صراخ طفل يا زعفرانة!

- نعم، ما يزال يصرخ، أسمعه، ولا أراه!

- أنت امرأة لها كرامات، وتملكين ما لا أملك أنا أو الآخريات، لقد جاءك صراخ حفيدك حيث أنت، بينما أنا لم أعلم عنه حتى جاء الخبر من أحمد.

- ربما يا شامة، ربما، فقط، أشتاق إلى شهلا، وطفلها بالطبع.

- وأنا أيضًا أشتاق إلى ذيب الذي صار أبًا، والى الطفل الجميل "سعيد".

- أسمياه سعيد؟

- نعم، ليكون سعيدًا، بعيدًا عن الشقاء الذي نراه كل يوم.

غادرت شامة إلى بيتها، صالح الذي كان يسمع حديثنا، ولا يعلق، اقترب مني.

- صرت خالاً لولد اسمه سعيد يا أمي!

- وصرت أنا جدةً لولد اسمه سعيد يا صالح.

تناولت مع صالح كل الاحتمالات، لماذا لم تطل شهلا أو ذيب على القرية؟ لم أبقيا زواجهما وعودتهما إلى ظفار سرًّا حتى عن أقرب الناس؟ ألم يستطع ذيب أن يأتي إلينا؟ إذا كانت شهلا قد منعتها الأمومة؟ فأين هو؟ لم نشعر بالطفل الذي ظهر فجأة دون أن ندري، وحيث سعيد وأبواه، وربما جداه، عبيد وأحمد، من داخل الصورة التي كانت سرًّا، منذ عام ونصف العام، لم ينس صالح أن يسأل:

- لماذا اليوم يا أمي؟ لماذا اليوم فقط يأتي هذا النبأ؟

صدق صالح، وصدقت في كل ما سألت به نفسي، كنت أود لو أحكي مع عبيد حول معرفته، أو عدم معرفته، نام صالح مع خيوط الفجر الأولى، واتجهت إلى حيث خصلة الشعر المحبوسة في المظروف الصغير، نفخت في الخصلة الشقراء، وسألتها هل تعرف شيئًا، فلم ترد، ولم يأت من السماء طير بالجواب، ولا كتابي قدم لي جوابًا، شاغلت نفسي، بترتيب شعرات الخصلة حتى أعدتها إلى مكانها، وغلبني النوم، فنمت.

جاء سعيد يجرى، رمى نفسه في حضني، ذيب من ورائه، ولا أثر لشهلا، جاء سعيد، وهو يعرف جدته، ويعرف ذيب الذي ولد على يدي، ولا أعرف أي يد التقطت سعيد عند الولادة، لكنه يعرفني وينطق اسمي، ترك ذيب ابنه في حضني، رفع يده إلى السماء مودعًا، ثم ابتعد دون أن ينطق حرفًا، فزعت من نومي هذا، ومن

ذلك الحلم الذي لم أكن في انتظاره كما يحدث لي عادة، ذكرت اسم الله وقرأت المعوذات، صببت الحليب بالكركم في كأس من المعدن، قبل دخول عبيد إلى البيت في غير موعد، قدمت له الكأس وسألته عن الطفل.

لم يستنكر عبيد سؤالي هذه المرة، قال إن ابنتنا وابنها بخير، وأنه يود أن يبعد سعيد عن الجبل بمجرد أن يتم فطامه، قال إن الجبل ليس للطفل، لكن شهلا وذيب اختارا هذه الحياة الشرسة، وقد قدما خدمات جليلة للوطن بوجودهما بين أبناء وطنهما، كان لذلك أثر بعيد في نفوس القريب والبعيد، لكن سعيد ليس مكانه الجبل.

أتم سعيد الفطام، لم أره، ولم أر شهلا طوال الوقت، صار دخان الطائرات، وأزيزها أكثر عنفًا وفتكًا لكل من يسير في الجبال، أو يختبئ في كهوف الجبل، يعرف عبيد كيف يلف نفسه بأغصان الشجر، ويمشى الهويدا، وإن كان ليلاً، وإن كان صحوًا أو مطرًا، جاء متلفعًا بأغصان تساقطت أوراقها في طريق رحلته، أيقظ صالح من منامه، نظر في عيني أصغر أبنائه، ذكر اسم الله عليه ثم قال:

- الوقت ضيق يا صالح، اسمعني جيدًا ولا تناقش، لقد اتفقت مع ربان السفينة التي تبحر من صلالة إلى زنجبار بعد ثلاثة أيام، دفعت له قيمة الرحلة، ستكون أنت وسعيد الصغير على متنها، ستبحر إلى زنجبار مع ابن أختك، ولا تعود حتى أرسل لك طلبًا للعودة.

- أبي، لا أريد أن أذهب خارج هذه الديار، أو أن أترك أمي.

- لست هنا للتشاور، وليس لك اليوم أن توافق أو ترفض، ستفعل ما آمرك به، فهو خير لك، ولسعيد الذي ما يزال يتفتح على الحياة أمامه.

- لكن...

- هذه وريقات نقدية، ستحتاج لها عندما تبدأ حياة جديدة هناك، لا تقل إنك من ظفار، قل إنك من عمان.. فقط.

- ...

- سوف ألقاك ومعي سعيد على ساحل صلالة حيث تنطلق السفن، بعد غد صباحًا، فخذ ما خف وزنه، خذ ما يلزم لرحلتك مع طفلٍ بلغ الفطام.

- هل لي أن أذهب مع أمي؟

التفت عبيد نحوي، وأنا التي تصمت، ولا تعلق على حديث يدور حولي.

- لن تذهب أمك معك، حتى لو طلبت منها ذلك، لا تنسى حرفًا مما قلته لك.

تلثم عبيد مرة أخرى، ولف أغصان الشجر حول جسمه، ومشى واقفًا أحيانًا، وحبوًا أحيانًا أخرى، لم ينطق صالح، ولم أنطق، لكنه بكى كثيراً.

أعلمت شامة بما كان من عبيد، والخطة التي وضعت لسفر حفيدي، وحفيدها إلى زنجبار، صمتت، حتى ظننت أنها لا تسمع، فلما كان اليوم الثالث الموعود، ركب صالح حماره، وحمل معه ما يمكن حمله من خبز جاف، وعسل نحل، ولحم مقدد، قَبَّل رأسي ويدى، وبكى كثيراً، ثم مشى قبيل طلوع الفجر، وجدت شامة، تركض نحوه، ومن ورائها دلال، في يد شامة صرة من القماش، ركضت وراء صالح حتى استوقفته رغم أزيز طائرة قريبة، دفعت دلال نحوه:

- خذ دلال يا صالح، هذه دلال، وهذه القطعة الذهبية التي أملك، لا تتركها هنا ولا أريد أن أزور قبرها مع القبور التي تصنعها الطائرات.

دفعت بدلال الباكية نحوه، وهو الرجل الصغير الذي عليه أن يحفظ كلمة وعد أباه بها.

- تزوجها يا صالح، اجعلا من سعيد ابنًا لكما، نحن العجائز نموت هنا، فلا تحزن.

تَكَبَرُ دلال صالح بسبع سنوات، لم يفكر صالح في الزواج من دلال أو غيرها، لكنه ساعد الفتاة في الصعود إلى ظهر الحمار حتى لا يضيع المزيد من الوقت، لم يمنعني بكاء دلال من سماع أزيز الطائرة يعلو، ثم يعلو، مع اختفاء الحمار وركابه، كانت الطائرة فوقنا مباشرة، فرفعت رأسي نحوها، رفعت حصاة صغيرة، قربتها إلى فمي، وقرأت، ثم قرأت وقرأت، ثم قذفت الحصاة إلى

سماء الطائرة، فلم تصبها، ولكن دخانًا أصفر صار يخرج من مؤخرة الطائرة، فابتعدت.

غاب عبيد كثيراً بعد ذلك اليوم، غاب أحمد أيضًا، لكننا عرفنا أن صالح ودلال وسعيد قد ركبوا البحر في الطريق إلى زنجبار، ولن يعودا، كما أشار الكتاب.

كدت انتهي من خياطة معطف صوفي جديد، سأجعله هذه المرة لأحمد، جد حفيدي الثاني، لكن أحمد جاءني بنفسه دون أن يدري ما أصنع، طرق الباب، وظل واقفا أمام الباب، أعطي الباب ظهره، فلا أراه ولا يراني، لكنه سمع صوتي، أُهلل به:

- يا أم يعرب، إن الله حق، ولقد حقَّ الحق، أنت امرأة مؤمنة وتعلمين أن لكل أجل كتابًا، وزوجك قد حل أجله اليوم، الله أخذ أمانة عبيد.

- عبيد.. مات عبيد!

- أمرت القيادة بإعدامه، لما له من تحركات مشبوهة مع الأعداء.

- عبيد.. الأعداء؟

- تم القبض عليه في الجبل البارحة، وتم تنفيذ الحكم صباح اليوم.

- عبيد.. أُعدم؟!

- جئتك بطاقيته، اعذريني يا أم يعرب.

هذه طاقية عبيد فعلا، بقعة الدم هذه، لزوجي عبيد!! خرج أحمد، تحسست طاقية عبيد، والدم اللزج المتلصق بها، بقعة كبيرة من الدم، ونقاط أخرى صغيرة، ما يزال الدم لزجًا، وكأن أحمد جاء بالطاقية فور وقوع عبيد قتيلاً، أحمد كان هناك وقت قتل زوجي، كان ينتظر وقوعه ليأتي بطاقيته لي، عصرت بقعة الدم على الطاقية، التصق بأصابعي شيء من دم عبيد، مسحت به على جبيني وشفتي، شممت رائحة عبيد الأولى، تلك التي خرجت بها من الذخيرة، شممت رائحة عبيد الذي التحفت به لأول مرة، رائحة تُشبه رائحة الزهور البرية في خريف ظفار، أخذت نفسًا عميقًا من رائحة عبيد، أغلقت الباب بعد ذهاب أحمد، وقد عرفت غدره بزوجي، وددت لو ألقيت على أحمد لعنة من كتاب الغزال الذي علمني التواصل مع روح الكون، فأعرف الغدر في أعين الغادرين، أغلقت الباب، وفتحت صفحات قلبي لأقرأ، صوت شامة يدق الباب يقطع القراءة، لم تكن تعلم، لكنها كانت تلهث:

- يقال يا زعفرانة، يقال.. إنه عهد جديد، والحرب سوف تنتهي.

الفصل الثاني عشر

زعفرانة تبحث عن زعفرانة

أجريت أكثر من مقابلة عمل في الدوحة بعد زيارتي الأخيرة لزنجبار، تلاحقني صورة سعيد العجوز الذي ما يزال يبكي على ابنة له تحمل اسمي، رجل عاش مغتربًا لسبعين عامًا، لا يعرف سوى الكلمات العربية التي تعلمها من خاله صالح كما قال، وتطفو اللغة السواحلية على حديثه أكثر من العربية، لم يعرف انتماءه الحقيقي، ولا من هي شهلا/ وردة، التي صارت أسطورة، كوالدتها، زعفرانة الأولى، فتاة الذخيرة.

طلبت من خالي أن يسهل للعم سعيد زيارة إلى بلدي، ومن هنا، سنخرج إلى عمان، سنزور الجبل الأخضر، ويكون حامد في صحبتنا، كما صحبني في زيارتي الأولى، هذه المرة، سآخذ العم سعيد معي إلى عمان، إلى ظفار، حيث حامد له أهل، وأحبة وأقارب، سوف أعلمه من يكون، قد يكون هو الخيط النشط المتبقي من زعفرانة، قد تكون زعفرانة تبحث عنه في مكان ما؟ سأبحث في هذا مع حامد.

التقيت سارة الزعلان في أحد المقاهي، سارة في الثلاثينيات من

عمرها، قالت إنها انتظمت في الدراسة الجامعية بعد ثماني سنوات من الانتهاء من الثانوية العامة، وإنها فضلت الزواج وتكوين أسرة قبل أن تكون للحياة الجامعية، وما أن بدأت عجلة الدراسة الجامعية، حتى وجدت نفسها حاملاً في طفلها الرابع، لكنها أصرت ألا يؤثر هذا في تعطيل مسيرتها، عادت قبل عشرة أيام من إجازة الوضع، تحاول أن تلحق بزميلاتها في الدراسة.

- أخبرتني ابنة عمي نورة، أنك تبحثين عن شيء له علاقة بأسرتنا، بيت الزعلان، أعرف أن نورة المدللة، لا تهتم لتاريخ العائلة، أو المعارف القديمة، حكت لي في مناسبة عائلية أنك مررت بمعمل الكمبيوتر الذي تقضي فيه ساعاتها، أخبرتني أن اسمك زعفرانة! بصراحة اسم غريب! لكنه يدق في رأسي شيئًا.

- دعيني أشكرك يا سارة على تعاونك، وعلى اتصالك وعلى هذا اللقاء، كم أقدر لك ذلك بالفعل، اسم بيت الزعلان كان يتردد كثيراً في بيت جدي، جدي الذي عمل مع جدك الأكبر طوال حياته، انتقل معه من الذخيرة إلى الدوحة، عندما قرر جدك الكبير أن ينقل أسرته، وينقل تجارته إلى العاصمة، الدوحة.

- هل قلت الذخيرة؟ جدتي أيضًا ذكرت لي مرارًا بيتهم الكبير في الذخيرة، بيت كبير، وحوش واسع أمامه شجرة ظليلة، حتى أن أمي حدثتني كثيراً عن تفاصيل ذلك البيت الكبير في الذخيرة، هل كنت من سكان تلك البلدة يا زعفرانة؟

- في الحقيقة، جدي وجدتي مريم - رحمهما الله - هما من كانا من سكان الذخيرة، أنا فقط أحاول أن أجد المشترك بيني وبين بيت الزعلان.

- المشترك؟ مثل ماذا؟ هل كانت بين عائلتينا علاقة مصاهرة؟

- لا، لم أسمع بهذا أبدًا، لكن.. اسمي؟ ماذا يعني لك؟

- اسمك ليس غريبًا عني رغم غرابته؟ هل تفهمين ما أقصد؟

- أحاول أن أفهم.

- اسمعي، أمي بالطبع تعرف أكثر مني في هذا الشأن، لكن للأسف أن أمي...

- رحمها الله.

- لا، أمي على قيد الحياة، لكنها كثيرة النسيان اليوم، للأسف.

- يؤسفني هذا يا سارة، شفاها الله وعافاها.

- أصابها فقدان الذاكرة البطيء هذا، ليس بسبب الشيخوخة، ولكنها المشيئة.

- هل تظنين أنها تعرف شيئًا عن اسمي؟

- تعرف أكثر من ذلك.

- أكثر من ذلك؟ مثل عائلات الذخيرة وسكانها؟

- نعم أظن، أيضًا، أمي لديها صندوق معدني، به صور فوتوغرافية كثيرة بالأبيض والأسود، صور صغيرة الحجم.

- هذا يشبه ألبومًا أحمر كان لجدتي مريم.

- عندما بدأت أمي بفقدان الذاكرة، أخذت منها الصندوق، فأنا مهتمة بشكل القرى القديمة حول الدوحة قبل أن تدخل المدَنيَّة بلادنا.

- هذا رائع يا سارة، أظن أنك سوف تختارين تخصص التاريخ لدراستك الجامعية، واسمحي لي أن أكون مرشدة لك طوال سنوات الدراسة إذا قررت ذلك.

- شكرًا لك يا زعفرانة، سأفكر في هذا العرض المغري إن شاء الله.

- من كان يلتقط تلك الصور التي جمعتها الوالدة؟

- هي بنفسها، أمي أحبت هذا الجهاز الصغير الذي اسمه كاميرا، أحضر لها جدي أول كاميرا في حياتها قبل الانتقال من الذخيرة إلى الدوحة، أخبرتني أنها، كانت تخرج كل يوم، لتصور بيوت الذخيرة الطينية، والساحل الصخري.

- هذا توثيق رائع لتلك الفترة. سلمت يداها الوالدة الغالية، هذه الصور ستكون كنزًا لمتحف قطر لو قررت أن تهديها له.

- سأفكر في هذا أيضًا، لكن لنعود إلى اسمك! نعم أذكر أن أمي ذكرت هذا الاسم حين كانت ذاكرتها في أكمل حال، بالطبع لا تقصدك أنت؟ فأنت لم تكوني قد ولدت بعد أثناء تلك الفترة، هناك زعفرانة أخرى، ربما.

- نعم، هذا صحيح، هناك زعفرانة أخرى، أسمتني جدتي على اسمها.

- في هذه الحالة، سوف تشرحين لي كل ما عندك، وأنا من طرفي سوف آتي بالصدوق المعدني، والصور الفوتوغرافية المحبوسة فيه.

- اتفقنا.

سعدت بلقاء سارة، واهتمامها الذي ازداد بعدما عرفت قصتي مع اسمي، وحكاية جدتي مريم مع أوراق الرزنامة، قررت أن أعود إلى أوراق الرزنامة التي جمعتها جدتي دون ترتيب، قررت أن أصنفها بحسب التاريخ، الأقدم فالأكثر حداثة، فقد تكون مذكرات جدتي المجزأة تلك، تحمل خيطًا أبحث عنه، وعدت سارة بلقاء آخر، قد يكون في بيتها، أو بيتي، لتأتي بصندوق الصور القديمة، وأنا أحضر أوراق الرزنامة، قد نلتقي عند نقطة.

قَبِل حامد وظيفة عُرِضت عليه في متحف قطر الوطني، لم أخفِ سعادتي بمجيء حامد إلى بلدي، يعرف أبي سر سعادتي دون أن يفصح عن ذلك، لكن وشوَشة دائمة صارت بينه وبين أمي، تجاهلت الوشوشة، وأعربت لحامد عن سعادتي لقراره هذا بالانضمام إلى فريق الباحثين والباحثات في متحف قطر، شجعني حامد على تقديم أوراقي أيضًا في نفس المكان، لكنني وجدت ضالتي في مكتبة قطر الوطنية، أحببت أجواء المكتبة خلال تلك الساعات التي قضيتها فيها، أقرأ عن كل ما يتعلق بظفار، وتاريخها

الزخم، صرت خبيرة في أرشفة الكتب بها، وأعلم أين أجد ضالتي، أشعر أنني أنتمى إلى هذا المكان، وقد عقدت فيه صداقات، وعلاقات مع عدد من العاملين فيه في تلك الفترة، حتى إنني ما أن تقدمت بطلب التوظيف، مشفوعًا بسيرتي الذاتية، حتى تلقيت اتصالاً هاتفيًّا، وموعدًا للمقابلة الشخصية، كان من يقابلني سيدة من بلدي، كانت تجلس تحاورني أحيانًا خلال ساعات البحث التي أقضيها هناك، لم أعلم أنها إحدى المسؤولات عن التوظيف بالمكتبة، قبلت العرض المقدم لي من السيدة المسؤولة، كما قبلٍ حامد وظيفته في متحف قطر.

حلمت أن تضم المكتبة يومًا كتابًا باسمي، لا شيء سوف يسعدني قدر هذا، ربما ستكون رسالتي الأكاديمية للماجستير، هي كتابي الأول في مكتبة قطر، تركت للأحلام الجميلة أن تأخذني حيث شاءت، وأنا أرد على رسائل حامد النصية، يسأل عن أيامي الأولى في وظيفتي الجديدة التي أحببت، حتى أنني حكيت له عن الحلم، بأن تضم المكتبة يومًا كتابًا لزعفرانة.

- وما أدراك أنها لا تضم اليوم مثل هذا الكتاب؟

أشعل حامد - كما يفعل دومًا - في رأسي شعلة من الأفكار النابضة، توجهت فورًا لأبحث عن اسم زعفرانة بين المؤلفين التي تضم المكتبة أسماءهم، جمدت يدي، وأنا أرى اسم زعفرانة بين المؤلفين فعلاً، تكتب حروف اسمها الأجنبية بطريقة إملائية تختلف عن طريقتي في كتابة اسمى، لها هنا كتاب واحد، كُتب

باللغة السويدية، وتُرجم الكتاب الذي بين يدي إلى العربية، لم أمنع نفسي من استعارة الكتاب، والبدء في قراءته فور انتهاء ساعات عملي، وعودتي إلى البيت.

أوكلت لحامد مهمة البحث في محركات البحث العظيمة حول كاتبة من السويد، اسمها زعفرانة، تحرك حامد لإتمام المهمة ليصاحب محرك البحث جوجل، لمعرفة ما يمكن معرفته عن زعفرانة السويدية تلك، بينما صاحبت كتاب زعفرانة العربي، لأعرف ماذا تريد القول، كان الكتاب عبارة عن قصص قصيرة، حول الغربة، والاغتراب، والحنين إلى وطن أم، في كل قصة يحويها الكتاب، بطلة عربية، تخرج مرغمة من بيتها، وأحيانًا تنسل من بيت عائلتها، لتجد نفسها في وطن آخر، تحمل اسمه، وتتحدث كما يتحدث الناس من حولها، عرفت أن زعفرانة هذه ذات أصل عربي، لكن حامد هو من جاء بالخبر المجلجل، إنها كاتبة من العراق، قال حامد.

أقتنى لي والدي سيارة جديدة، قدمها لي بمناسبة الوظيفة الجديدة، تعلقت برقبة أبي فرحة بهديته الغالية، قال إنها سيارة صغيرة، ستساعدني على الذهاب، والعودة من عملي دون أن أحتاج إلى القطار تحت الأرض، وإن كانت إحدى محطاته على بعد أقدام من بيتنا، والمحطة الأخرى أمام المكتبة الوطنية، لا يعلم أبي كم فرحت بهديته تلك، وكم ستكون هذه السيارة الصغيرة كما قال، صديقتي الصدوق لسنوات، قبل أن أقرر أن أقتني سيارة

أخرى، عندما أصير رئيسًا لقسم الإعارة، بعد حصولي على درجة الماجستير.

جاءت سارة إلى بيتي، معها صندوق معدني كان يومًا صندوقًا للحلوى، ثم صار مخزنًا لصور والدتها القديمة، صور كثيرة بالأبيض والأسود، صور لسيارات أمريكية اقتناها جدها الأكبر، سيارة كاديلاك سوداء، وأخرى شيفروليه.

- تبدو صورًا احترافية.

قلت ذلك لسارة، فردت أن والدتها بالفعل صارت شبه محترفة في التصوير، لكن للأسف لا أحد من أبنائها قد ساعدها على تصنيف هذه الصور، حتى فقدت المسكينة ذاكرتها الثرية مع الأيام.

ساعدتنا أمي على فرش تلك الصور على مساحة غرفة الضيوف، كثير من تلك الصور لأطفال يلعبون، قليل من الصور لنساء يلبسن العباءات، ولا تظهر وجوههن، صورة لسلطعون صغير يسير على صخور الشاطئ، أظنه كان هاربًا من صاحبة الكاميرا التي توجه عدستها نحوه، كثير من الصور للجد الأكبر لبيت الزعلان، صور له يتوسط المجلس الفخم باعتبارات ذلك الزمان، صور له يركب سيارته الفارهة، وصور له أمام سفينة صيد يملكها، حول الجد تبدو وجوه كثيرة، وجدت بينها وجه جدي رحمه الله، يقف مع جدها الأكبر متجهمًا أمام الكاميرا، وكأن الصورة لا تكون إلا بالوجه المتجهم هذا، أطلعت سارة على صورة جدي، وكأننا من صورته المحبوسة في صندوق والدتها، قد عرفنا المشترك بين بيتي وبيتها،

فأجبت عن أول سؤال سألتني إياه، تبدو في الصور ملابس الأطفال عتيقة، ومهملة، لا شيء فيها يشبه ملابس أطفال اليوم، أو رجالات اليوم، لم يبد أيٌّ ممن التقطتهم عدسة الكاميرا، قد استخدم مكواة الملابس، ضحكنا كثيراً، أنا وسارة وأمي عندما قلت ذلك.

وضعت أمي يدها على صورة مختلفة، رفعتها من بين أكوام الصور، دققت فيها كثيراً، ثم قدمتها لي لأرى الشيء الخاص في الصورة، امرأة عجوز، محنية الظهر، تمسك بحبل مشدود بين بابين، الباب الأول مفتوح، والآخر باب مغلق، لا تبدو ملامح وجهها واضحة، ولكن تبدو عجلة الزمن التي قد جرت عليها، وتبدو ثيابها مبللة ربما بالماء، وربما بالبول، تضع على رأسها غطاءً أسود، وقد ارتفع إلى الوراء ليظهر ما تحته، أو أن الغطاء كان بلون داكن، كانت في منتصف الحبل، تحتاج إلى نصف المسافة التي قطعتها، لتصل إلى الطرف الآخر منه، ربما تكون المرأة عمياء لا ترى، وربما تكون، لا تستطيع المشي، فيساعدها الحبل على ذلك، كانت الصورة التي توقفت عندها، أنا وسارة وأمي، كانت الصورة هي الكنز الذي حصلنا عليه اليوم، قررت تحويل الصورة إلى صورة رقمية، كما حولت صورة خالي القديمة.

أرسل لي حامد علي بريدي الإلكتروني، عدداً من المواقع التي توصل إليها ليعرف من هي زعفرانة السويدية، أرسل لي صوراً شخصية لها، ومقالات كتبت حولها، ومقابلات صحفية معها،

البعض منها مكتوب بالسويدية وقابل للترجمة، والبعض لم أتمكن من ترجمته إلى العربية أو الإنجليزية التي أتقنها، عددًا من اللقاءات التلفزيونية، على قنوات رسمية، أو على منصة اليوتيوب الشهيرة، يحتاج ما أرسله لي حامد إلى ليالٍ طويلة لفرزه، والتعرف على زعفرانة العراق.

سيدة شقراء، عراقية الأصل، تركت أرض العراق التي أحبت، وعشقت كما ذكرت كثيرًا في حواراتها، وفي كتاباتها أيضًا، تركت أرض المحبة - كما قالت - بعد الغزو الأمريكي للعراق، وتدهور الأحوال في منطقتها، بعقوبة، ربما تكون زعفرانة هذه في العقد السادس، أو السابع من عمرها، نشرت أولى قصائدها داخل العراق، وكانت قصيدة حب في بلدها العراق، كان ذلك قبل الغزو، ثم هاجرت إلى السويد، وصارت تكتب باللغة السويدية، ذاع صيتها ككاتبة، فترجمت أعمالها في الغرب إلى الإنجليزية والفرنسية، حصلت على جوائز أدبية هناك، لكن كتابًا واحدًا فقط من كتاباتها، هو الذي تُرجم إلى العربية، هو الذي حصلت عليه، وقرأته.

حامد الذي يحسن البحث والتدوير على المعلومة المطلوبة، لم يكتف بأخبار زعفرانة التي قدمها لنا عملاق الإنترنت، لكنه تحقق من مدير أعمال السيدة الكاتبة زعفرانة، التي تقيم في السويد بعيدًا عن صخب الحياة، حصل منه على وعد بنقل رغبة هذا العربي في لقاء الكاتبة، فهو يعرف حنينها الدائم للمنطقة العربية واللغة العربية، وعدني حامد بترتيب لقاء عن بعد على أحد التطبيقات

المتاحة اليوم، وهي كثيرة، فالمهم أن زعفرانة وافقت على لقائي.

بين أوراق الرزنامة التي تركتها لي جدتي، وجدت الورقة التي كتبت عليها "زعفرانة في مستشفى الرميلة"، قدرت التاريخ الذي عرفت فيه جدتي مريم، أن زعفرانة قد صارت في مستشفى الرميلة، ولن يكون من المجدي أن أبحث في سجلات المستشفى، وإن كان لا بأس من التحقق، لكنني سألت سارة، عن عمر والدتها في ذلك التاريخ، قالت إنه في هذا التاريخ لم تكن والدتها قد تزوجت بعد، وأنها ربما كانت، في السابعة عشر، أو الثامنة عشر من عمرها، عرفت أن جدتي قد عرفت والدة سارة في تلك الفترة الزمنية، ووافقت سارة على ترتيب زيارة لي معها إلى والدتها، التي صارت تفقد الذاكرة القريبة، لكنها تذهب إلى البعيد، فتأتي بأخبار، وأسماء قديمة، وكأنها قد صارت اليوم.

والدة سارة جميلة، وصحيحة الجسم، توقعت أن أراها طريحة الفراش، أو أنها تضع رأسها على مسند الكرسي لتراقب ما يعرضه التلفاز طوال اليوم، لم يكن الأمر كذلك، كانت تلبس جلبابًا أرزق، وتضع نظارة داكنة على عينيها طوال الوقت، يبدو صباغ الشعر باللون الأسود الداكن لإخفاء لمعان الشعيرات البيضاء، يطل اللون الأبيض رغم الصباغة المتقنة، طلبت سارة أن أسميها باسمها الأول "لطيفة" دون أن أناديها باسم ابنها الأول "أم محمد" كما جرت العادة هنا، قالت إن أمي أحيانًا تنسي أن لها أبناء، في أحيان أخرى، تسأل "أين أبنائي".

لطيفة هي السيدة لطيفة، رحبت بي، وفرحت عندما قلت لها إنني جئت لزيارتها من الذخيرة، سألتني عن أم يعقوب وعن الخالة عائشة وأختها؟ أدرت حواري معها بكل حذر كما علمتني سارة، أجبتها أن هؤلاء بخير، وأن الجميع يقرئها السلام، امتدحت جلبابها الأرزق، قالت إن والدها ماجد الزعلان قد جاء به من بلاد الهند في رحلته الأخيرة:

- أبي يأتي لي بكل ما هو جميل، وجديد في بلاد الهند، مثل هذا الثوب.

- هو أب رائع بالفعل، ألم يجلب لك كاميرا من هناك؟

- بلى، جاء لي بكاميرا حلوة، وصرت أصور كل شيء أراه في الذخيرة، وأطلب منه أن يذهب بالأفلام إلى التحميض في الدوحة، لا يوجد في الذخيرة محلات لتحميض الأفلام، لكن إن شاء الله ستفتتح محلات للتحميض قريبًا.

- نعم صحيح، قريبًا إن شاء الله تفتتح محلات لهذا الغرض، ماذا كنت تصورين أيضًا يا لطيفة؟

- كل شيء، صورت أبي وجدى وأعمامي، والأطفال في الشارع، كل شي أراه، أصوره.

تضحك السيدة لطيفة، وهي تحكي عن والدها الذي تظن أنه سوف يأتي لها الآن بأفلام جديدة لكاميراتها، وأنه سوف يجلب لها الصور الأخيرة، لما وافقت سارة على إيماءتي لها، أخرجت صورة السيدة العجوز الممسكة بالحبل المشدود بين البابين، ووضعت الصورة أمامها، وسألت:

- أنت من التقط هذه الصورة للعجوز، كان هذا بيتكم في الذخيرة؟

- نعم، هذه زعفرانة العجوز، المسكينة كانت لا ترى، وتحتاج الحبل لتصل إلى الحمام من غرفتها المنعزلة في إحدى زوايا الحوش الكبير في بيتنا.

- أين ذهبت زعفرانة بعد أن خرجت من البيت؟

- أخبرت مريم عندما زارتنا بالأمس، أن زعفرانة في مستشفى الرميلة، أمي لا ترضى أن تقول الحقيقة، لكنني أخبرت مريم كي تذهب لها، وتطمئنني عنها، ربما تعود مريم اليوم، أو غدًا لتخبرنا أخبار زعفرانة العجوز.

- صحيح، ربما تعود مريم قريبًا جدًّا، أنا أيضًا سأعود لزيارتك.

- لا تطيلي عليّ الغياب، لقد أحببت الحديث معك.

كانت سارة تمسح دمعاتها، وهي توصلني إلى باب البيت.

- الحبل المشدود بين بيتي، وبيتك يا زعفرانة هو.. هو لقاء والدتي وجدتك مريم، في اليوم الذي سجلته على الرزنامة، رحمها الله.

جاءت النسخة الرقمية لصورة زعفرانة، وهي عجوز تتمسك بالحبل المشدود، هذه المرة قمت بإجرائها بتقنية عالية حتى أستطيع أن أكبر الصورة قدر المستطاع، الصورة ما تزال بالأبيض، والأسود، بدأت بتكبير أجزاء الصورة، رأس زعفرانة، أغلب الرأس يغطيه القماش الملفوف على رأسها، في جزء منه، ينحسر الغطاء قليلاً، يبدو تحته غطاء آخر، أُكبّر الصورة أكثر، الغطاء تحت الغطاء، له نقش دقيق، هذا النقش أعرفه، أتذكر أين رأيته، تحت غطاء رأس زعفرانة، طاقية منقوش عليها اسم عبيد، لبسها خالي يوم ذهب إلى الاستوديو لالتقاط أول صورة فوتوغرافية رسمية له.

كانت الطاقية لزعفرانة، ثم صارت عند جدتي مريم، ومعها خصلة من شعر أشقر، حفظت جدتي الأمانة كل هذه السنين، حتى تصير في يدي، أدركت أن الطاقية لعبيد، زوج زعفرانة الذي خرجت معه من الذخيرة، ولا أعرف سر بقعة الدم الداكنة على الطاقية القديمة، شاركت حامد فتافيت القصة التي أعرف حتى الآن، رجع بي حامد إلى الحقائق التاريخية حول ما جرى في ظفار، ولا أعرف كيف أربط بين ما قرأت وبين طاقية عبيد، وخصلة الشعر الشقراء.

- أنت اليوم في زمن قد قدمت لك التكنولوجيا، ما لم يتوفر سابقًا أمام هؤلاء الأقوام، الدم والشعر، والأظافر وأشياء أخرى، يمكنها أن تأخذك إلى شريط واحد عن طريق تحليل الـDNA .

وصل العم سعيد إلى الدوحة في زيارة قام بترتيبها خالي ناصر، لم يركب العم سعيد الطائرة قبل ذلك اليوم، أوصى خالي أحد العاملين في السفارة، بمرافقة العم سعيد حتى مطار الدوحة، حيث أنتظره أنا، ومعي حامد، أصر حامد على استضافة العم سعيد في بيته، فهو يقيم في مسكن صغير، لكنه يكفيه اليوم، وقبل أن يقرر الزواج وتكوين عائلة.

- سيكون سعيد سعيدًا بوجوده معي، أعلم ذلك.

ضمن اتفاق مسبق مع حامد، حدد حامد موعدًا للعم سعيد في أحد محال حلاقة الرجال، طلب من المزين أن يُقلِّم أظافر العجوز، في اليد والقدمين، فعل المزين ما أُمر به، والعم سعيد فرح بهذه العناية التي لم يحظ بها منذ أن توفيت ابنته زعفرانة كما قال، وأما الأظافر المقلمة، فقد احتفظ بها حامد بحرص شديد، لتكون لنا دليلاً آخر، قد نحتاجه في يوم ما.

وكما كان المتفق عليه أيضًا، ذهب العم سعيد إلى عمان في رحلة سريعة لثلاثة أيام، أعلنت لحامد أنني سوف أشتاق إليه بشدة، إذا تأخر عن ثلاثة أيام، عوج طاقيته، واحتار كيف يرد على كلماتي، من هناك كان يرسل لي كل شيء حول تحركاته مع العم سعيد، حتى إنه ذهب به إلى المكان الذي قيل إنه ضريح زعفرانة القديم، قبل أن تكتشف الحكومة المحلية، أن الضريح لا يضم رفاتًا بشريًّا، كما يعتقد السكان المحليون، ومن صنعوا منه مزارًا لمن يطلب عونًا من العالم الآخر، وإنما علمت السلطات أن

الضريح يضم بعض الأوارق المهترئة التي لم تحدد هويتها، لا يعرف حامد سببًا لبكاء سعيد عندما وصل إلى هذا الضريح المزيف، بكى كثيراً، هو نفسه يجهل السبب، ولكنه يقول إنه يشعر بامرأة عجوز تريد أن تحتضنه، فلا تستطيع، تختفي العجوز كما قال العم سعيد، لتحل محلها، صبية بشعر مقصوص إلى ما فوق الرقبة، تود أن تحتضنه، فلا تستطيع، بكى سعيد كثيراً دون أن يعرف السبب، أخبرني حامد.

قبل عودة العم سعيد إلى دياره، طلبت منه أن آخذ صورة فوتوغرافية له، لم يمانع، وعندما ألبسته طاقية منقوش عليها اسم عبيد، رفع الطاقية إلى أنفه، أخذ نفسًا عميقًا من الطاقية، قال كم هي جميلة رائحة الطاقية، التقطت له صورة واضحة بالطاقية، وأخرى بدون الطاقية، ولم أستطع أن أترك له تلك الطاقية التي قد تكون ذات أهمية، ذات يوم، إذا أحسنت استخدام التكنولوجيا الحديثة، كما قال حامد.

وافقت الكاتبة عراقية الأصل، على إجراء لقاء هاتفي بالصوت والصورة، معي، وبالطبع مع حامد، وافقت عندما علمت أنني أحمل اسمها ومن منطقة قريبة من مسقط رأسها في العراق، رحبت بي، ورحبت بها بالعربية التي تحسنها كلسان أم، أبديت إعجابي بما قرأت لها من الكتاب الوحيد الذي تُرجم إلى اللغة العربية، قالت إن عملها الأحدث سوف ينشر في خلال الشهور القادمة، وإن من ضمن اتفاقها مع ناشرها الجديد، هو أن يترجم الكتاب إلى العربية أيضًا في نفس التوقيت الذي ينشر فيه.

- هل لى أن أسأل عن اسم الكتاب الجديد.
- نعم، سوف أعنونه بـ "كتاب الغزال".
- لماذا؟
- لديّ رسالة واحدة من والدى، وصلت إلى والدتي، وأنا في الثالثة من العمر، لم تفهم منها أمي شيئًا، لكن أهم ما في الرسالة الكلمة الموجهة لي "أرقيك بكتاب الغزال من كل مارد ودجال".

كان اللقاء محددًا من قبل مدير أعمال زعفرانة العراقية، بخمس عشرة دقيقة، لكنها فتحت زمن اللقاء، عندما أخبرتها بالحكاية التي أعرفها، تأثرت كثيراً بقصتي وقصتها، طلبت أن ترى خصلة الشعر التي في حوزتي، كانت الخصلة والطاقية معي وقت اللقاء، أظهرت لها الخصلة في حذر شديد من نفس المظروف القديم، حدقت في الخصلة كثيراً.

- كثيراً ما كنت أسأل نفسي عن سر الألم في رأسي، ذاك الصراخ النسوي الذي أسمعه أحيانًا، تلك اليد التي تعصر رأسي في بعض الأوقات، الهواء الساخن الذي أشعر به دون أن أكون في مهب الريح، كثيراً ما تساءلت حتى استسلمت لتساؤلاتي، حتى انتهى الصراخ، وانتهى الهواء الساخن من الدق داخل رأسي.
- وهذه الطاقية، إنها لعبيد.. العماني.
- إنهـا لأبي.. عبيـــد! وهذه بقعة من دمه! سأجري فحص الـDNA في أقرب فرصة.

الفصل الثالث عشر

شهلا.. من الجبل إلى الجبل

لم أكن لأصدق أنني سأصير يومًا بطلة لرواية عربية، أو أن اسمي يمكن أن يتغير إلى غير الذي أطلقه عليّ أبي يوم ولادتي، لم أتصور يومًا أنه في يوم عرسي، لن تكون أمي من يعدل وضع الثوب الأبيض على جسدي، أو ألا يكون أبي هو من يعقد قراني، لم أكن لأتصور أن الطفل الذي سألده، سوف يغادر حضني عندما يُتم الفطام، اسمي شهلا بنت عبيد العماني، وهذه قصتي.

لم أعرف غير الجبل مكانًا للعيش والحياة، حفظت عشرة أجزاء من القرآن الكريم، قبل أن أكمل العاشرة من عمري، أصرت أمي زعفرانة على أن تكون دراستي في مدرسة نظامية، بدلاً من مقرئ الجبل الذي يعلم الكتابة والقراءة إضافة إلى علوم الدين، فكان لي ولعائلتي رحلتان في العام، إلى المدينة التي تحوي المدرسة، في بداية الموسم الدراسي، وإلى الجبل الذي أعرف صخوره، وحصواته، مع بداية الموسم الصيفي، نتَجَهز للطريق بزاد يكفي ليومين، ونمشي تارة على الأقدام، وتارة على ظهر حمار مسكين، حتى شاء أبي أن يكون الرحيل الأكبر والأطول إلى القاهرة.

قذف بنا أبي في قلب القاهرة التي تضج بحديث الحراك، والتغيير، وذهب إلى حال سبيله، علمت لاحقًا أنه اتخذ لنفسه زوجة أخرى في العراق، ظننا أنا وأخي يعرب، أن الجبل قد خلق لنا حصنًا عن أخطاء البشر، وأننا لن نميل اليمين أو اليسار، وأننا سوف نعود لنملأ الدنيا علومًا وبشائر، ظننا أن الوطن مجند لانتظارنا، وأن أمي ستوزع وردة الجبل الصفراء على الجيران حين نعود، ظننا أن أبي سوف يذبح العنزة الحلوب، ليوزع لحمها على أهل بلدته فرحًا بعودتنا، ظننا أن مصر سوف تعطينا الإشارة بالبدء نحو الأجمل، كما كان منها في 23 يوليو.

عرفت فؤاد، وجمال ونبيل، وليلى ومنى، وسناء، زملاء في الدرس، وزملاء نادي الطلبة، الذي يرفع لافتة قديمة كُتب عليها "يسقط الإقطاع"، لافتة من القماش الذي كان أبيض اللون في أحد الأيام، اهترأت وبهتت الألوان، وما تزال معلقة بثبات على باب نادي الطلبة، لم أستطع تجاهل اللافتة القماشية، أكثر من بضعة أيام، ثم تجرأت، فسألت فؤاد عن المقصود بالإقطاع، اهتم فؤاد بسؤالي هذا، تحمس ليشرح لي، أن كل الأراضى الزراعية الشاسعة في مصر المحروسة، كلها يمتلكها عدد قليل من أصحاب الثروات، ممن يحتمون بالملكية في مصر، هؤلاء هم الإقطاعيون، ونحن أبناء الفلاحين، لكننا استطعنا أن نستعيد الحق مع ثورة يوليو.

حاولت أن أظهر اهتمامي بالأمر، حاولت أن أظهر أنني فهمت ما هو المقصود بالإقطاع، اليوم فقط أعترف أنني لا أزال أجهل

هذه الكلمة، التي صعُبت على عقلي ولم أعترف بعدم الفهم في حينها، ربطت بين ما دار في مصر، وما كان يدور في بلادي، وضعت أبناء الفلاحين في الميزان / فؤاد وجمال ونبيل وليلي، ومنى، وسناء في كفة، وأبناء الجبل في كفة الميزان الأخرى / أنا ويعرب وذيب، ما وجدت حينها إلا أننا نتشابه في الميزان، ونتشابه في حجم الانطواء على الذات.

في نادي الطلبة، كانت الكتب المتداولة تأخذ اتجاهًا واحدًا، ومتشابهة إلى حد كبير، كانت كتبًا معينة هي الأكثر تداولاً بين الطلبة، وجدت من كل الزملاء في القاهرة، حبًا وترحابًا جميلاً، يقدم لي فؤاد كتابًا ما، ثم أجد نفس الكتاب من جمال، ونسخة أخرى من ليلي، كنا نقرأ كثيرًا، نقرأ الكتب الأكثر تداولاً بشكل كبير، نعيد قراءتها، ونطرحها للنقاش، ليس في جلسات النقاش التي ينظمها نادى الطلبة فقط، ولكن في كل حواراتنا الدائرة في أروقة الجامعة، ما بين المحاضرات، مع أكواب الشاي والقهوة التي لا تنتهي حتى ينتهي النهار، كنا نقرأ حتى نرى أننا بهذا الكم من القراءة، والاحتفاء بالكتاب اليساري، سنغير العالم من حولنا.

أطال نبيل الحديث حول كتاب "رأس المال"، يكاد يحفظ كل صفحاته، اهتممت بحديث نبيل عن العدالة الاجتماعية التي سوف تتحقق بحماس الشباب كما قال، دعاني إلى فنجان قهوة في مقهى قريب من الجامعة، لم أر ما يمنع أن نتشارك، نحن الرفقاء، طاولة على مقهى عام، قريب من الجامعة، تحدث نبيل

كثيراً، أن الشعوب العربية سوف تصحو قريبًا، ورأيت في كلماته، أبي يحمل البارودة فوق ظهره، وحزامًا من الجلد المرصع بالرصاص حول خصره، كانت كلمات نبيل تلتف حول خصري، تمامًا كحزام أبي، الحافظ لرصاصاته.

لم يكن فنجانًا واحدًا هذا الذي دعاني إليه نبيل، فحديث الحريات قد مضى بنا إلى كورنيش النيل، حيث بائع الذرة، وحيث بائع الفطائر، دفع نبيل ثمن الذرة، وطلب مني أن أشارك بدفع ثمن الفطائر، فلا فرق هنا بين امرأة ورجل، الكل مسؤول، والجميع متساوون في الحقوق والواجبات.

سألني أخي يعرب عند عودتي عن سبب تأخري، ورغم إيماني أنه ليس لأخي الحق في هذا السؤال، أجبته أنني كنت مع صديقتي منى، كنا نناقش بحثنا المشترك حول المعلقات، سألني أخي:

- وأي المعلقات قررتما أن يكون البحث المشترك حوله؟

- معلقة عنترة بن شداد يا أخي، تلك التي يقول في مطلعها:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ منْ متردَّم أم هــــلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهمِ

يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تكَلَّمي وَعَمي صَباحًا دارَ عَبلَةَ وَاِسلَمي

وكأن أخي لم يقتنع، أو كأنه لم تعجبه معلقة عنترة بن شداد، الذي هام حبًّا في عبلة، وحارب لأجلها القيم الاجتماعية البالية، وما يهم إذا اقتنع أخي، أم لم يقتنع، ما يهم أنني أحببت قصص الحب، كما أحببت حديثي مع نبيل.

في اليوم الثاني، أخبرتني منى، أنها كانت بالأمس مع فؤاد ويعرب، وليلي في دار السينما، حيث شاهدوا أحدث أفلام **فاتن حمامة**، وأن يعرب قد أوصلها إلى سكن الطالبات حيث تقيم، عرفت أن يعرب قد اكتشف كذبي، ولكنه لم يحاول إحراجي بشكل مباشر، أقنعت منى أننا سنقدم بحثًا مشتركًا حول معلقة عنترة بن شداد، وافقت إذا كنت أنا من سوف تكتب ثلاثة أرباع البحث.

أهداني نبيل ذلك اليوم وردة حمراء، قال إنها عربون صداقة، أحتفظت بالوردة في كتاب بصفحات بيضاء، أعطتني إياه أمي قبيل سفري، أمرتني أمرًا، ألا أفرط فيه، وألا أستهين بصفحاته البيضاء، ما وجدت لوردتي مكانًا آمنًا أكثر من كتاب أمي، كتاب زعفرانة.

اعتذرت لنبيل عن الذهاب إلى الكورنيش ذلك اليوم، كان لا بد أعيد مصداقيتي أمام أخي، دعوت منى إلى شقتنا الصغيرة، بصوت عالٍ تحدثنا أمام يعرب، عن عنترة وعبلة، والمشاعر الإنسانية التي لا تعترف بالعنصرية، أو بالطبقية، تناولت منى طرف النقاش، وتفاخرت أنها تؤمن بالحب بين الرجل والمرأة، ولا مكان للتقاليد والعراقيل الاجتماعية في معادلة الحب هذه:

- إذا أحببت أحدهم، فلن يمنعني أي شيء عن الارتباط به.

لا أدري إذا كان يعرب يستمع إلى نقاشاتنا، أم أنه بالفعل منشغل في حل الكلمات المتقاطعة في صحيفة اليوم، أمامه عدلت من قصة الأمس بأنني، كنت في بيت الطالبات أنتظر منى حتى عادت من السينما "ليتني كنت معكم" هكذا قلت.

عرض عليّ نبيل أن يشرح لي معلقة عنترة بن شداد، فقد سبق أن قدم فيها بحثًا قبل عامين كما قال، اعتذرت له، فأنا أريد أن أقوم بهذا البحث بنفسي، وأن أكتشف أسرار هذه القصيدة، بيتًا بيتًا، علت نبرة نبيل، وهو يرى إصراري على القيام بالبحث بنفسي، قال إنه يختصر لي الوقت، حتى يتسنى له أن يعرفني على القاهرة القديمة، كما قال، لمعت عيناي مع عرض نبيل السخي، ووعدته أن السبت القادم سيكون يومًا لاكتشاف القاهرة القديمة، ثم طلبت من منى أن تختفي من أنظار يعرب يوم السبت.

انتظرني نبيل أمام محطة الباص كما اتفقنا في الرابعة عصر ذلك اليوم، كانت الوجهة التي حددها هي زيارة جامع أحمد بن طولون، نبيل من عشاق القاهرة القديمة، والآثار الإسلامية، تخصص فيها في الجامعة، وهو أيضًا يعتبر هذه الآثار، أصلاً لكل حضارة جاءت بعدها، تحدث نبيل عن شغفه بجامع أحمد بن طولون الذي يقع في منطقة مرتفعة قليلاً في حي السيدة زينب بالقاهرة، وهو الأثر الوحيد الباقي من مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية، تحدث نبيل حول المسقط الأفقي للجامع، الذي هو على شكل مربع، ويتبع الطراز المتعامد الذي كان متبعًا في التخطيط التقليدي للمساجد في المنطقة، ولما صار عليّ أن أكون في البيت، لم يكن نبيل سعيدًا بهذا، قال إنني امرأة حرة، وعليّ أن أعيش حريتي، فلم أفهم.

كانت منى صادقة في وعدها، فقد اختفت عن أنظار يعرب ذلك اليوم، لكن أنظار يعرب وذيب الذي كان يتناول العشاء مع أخي

عند عودتي، لم تكن تلك النظرات الحنون، أو البريئة التي أعرفها عند كليهما، ولم يزد يعرب كلمة عن قوله:

- لقد اقتربنا من التخرج يا أختاه، واقتربنا من العودة إلى الوطن.

دخلت إلى غرفتي، أمسكت كتابي ذا الصفحات البيضاء، والوردة الحمراء في وسطه، وقد جفت وصارت كصفحة من صفحات الكتاب، أشتاق للعودة ولكنني أيضًا أعشق وردتي هذه، أشتاق لأمي زعفرانة، لكني أود زيارة جامع أحمد بن طولون كل أسبوع، اشتقت لوالدي الذي يلبس طاقية مزركشة، ولكنني أحب سماع أغنيات **أُم كلثوم** قبل أن أنام، اشتقت إلى صخور الجبل، وإلى لملمة الزهرات الصفراء مع أمي، لكني أحب التسكع مع نبيل في القاهرة القديمة، وما تزال التوازنات، والمقارنات تدور في رأسي، حتى استسلمت لنوم عميق.

مرت ثلاثة أيام لم أر فيها نبيل في نادي الطلبة، أو في المحاضرات الجامعية، حتى واتتني الجرأة أن أسأل فؤاد عن غياب نبيل:

- ألم تلاحظي أيضًا غياب سناء؟

- نعم نعم، كنت سأسأل أيضًا عن سناء؟ لماذا هذا الغياب منذ عدة أيام؟

- ببساطة لقد تزوجا الخميس الماضي، كان عرسًا عائليًّا جدًّا، سافرا معًا إلى الإسكندرية لمدة أسبوع، العقبى لك يا شهلا.

لم أدر إذا كنت سوف أفرح لأجل سناء، أم أغضب من نفسي التي صورت لي أن نبيلاً يضمر لي حبًّا سوف يكبر، وسوف أفوز به قبل أن أنهي دراستي، وأعود إلى بلادي، في ذلك اليوم، بكيت كثيراً أمام منى، ولم تطلب مني شرحًا لسبب البكاء، كما لم أهتم بتبرير بكائي، حرصت أن تعود معي إلى بيتنا، تركتها مع يعرب يناقشان المحاضرة العامة التي قدمها أحد الكتاب الكبار في نادي الطلبة، تركتهما يخوضان في تحليل كل كلمة، وكل وجهة نظر، قيلت في المحاضرة، تركتهما ودخلت غرفتي، فتحت كتابي ذا الصفحات البيضاء، أخرجت الوردة المجففة، قبضت عليها بكلتا يدي حتى تفتَّتَت الوريقات الجافة، ألقيت بنفسي على سريري، جاءت أمي زعفرانة، مشطت لي شعري، ولم تمسح دمعاتي، أخرجت من بين خصلات شعري وردة حمراء نابضة بالحياة، أعطتني إياها، ومضت.

في صباح اليوم الثاني، وجدت كتابي الأبيض في مكانه وفي وسطه، وردة حمراء جافة، فلم أحفل بها، أمسكت بالمقص، وقصصت خصلات شعري إلى ما فوق الرقبة، ثم مضيت إلى مكتبة الجامعة، أكملت بحثي المؤجل حول معلقة عنترة بن شداد:

إِنْ كُنْتِ أزْمَعْتِ الفِرَاقَ فَإِنــَّمَا

زُمَّتْ رِكَـــــابُكُم بِلَيْـلٍ مُظْلِـمِ

مَـــا رَاعَني إلاَّ حَمُولَـةُ أَهْلِهَـا

وَسْطَ الدِّيَارِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ

واجهت أخي، قلت له أنني لن أكذب عليه أبدًا، وطبخت له ذلك اليوم أكلة عمانية، دعونا إليها ذيب ليشاركنا الطعام، وحديث الحنين نحو الجبل، وما يمكن أن نقدمه هناك عندما نعود، كان يوم خميس، فتحنا المذياع على محطة مصر ككل أهل مصر من شرقها إلى غربها وككل من يمتلك مذياعًا في العالم العربي، التَفنا بسكون حول المذياع، لنسمع ما تشدو به أم كلثوم، فكانت تقدم أغنية جديدة بعنوان "الأطلال":

يا فؤادي لا تسل أين الهوى

كان صرحًا من خيالٍ فهوى

أخرجت الكتاب الأبيض الذي يحتوى على الوردة الجافة، بدأت أكتب مذكرات شهلا، منذ حطت أقدامي على هذه الأرض التي أحببتها، وحتى هوى صرح الخيال، مع خصلات شعري الأسود تسقط على أرض غرفتي، دون أن أشعر بالحزن أو الحسرة، بدأت بالسلام على زعفرانة، أمي صاحبة الكتاب، والتي أوصتني به خيرًا، دون أن تذكر أنه كتاب مذكرات، أو كتابًا للعودة حين تهوي الصروح الكبيرة، بدأت بالسلام على أمي، وكأني أكتب رسالة، تذكرت أنني لم أكتب رسائل إلى أمي منذ أكثر من ستة أشهر، ولا أعرف إن كانت رسائلي التي أبعث بها إلى العاصمة في بلدي، ثم تنتقل باليد، من هذا إلى ذاك، لا أعرف كم رسالة وصلت إلى أمي، بدأت أكتب مذكرات شهلا، لتصير يومًا إلى يد أمي.

توقفت عن الزيارات اليومية إلى نادي الطلبة، ولكنني ما أزال أجالس فؤاد وجمال وليلى ومنى في أروقة الجامعة، وما أزال أحضر تلك الأُمسيات الشعرية، والمحاضرات الأدبية والثقافية التي ينظمها نادي الطلبة، وعندما صار جمال مسؤلاً عن جدول الفعاليات في النادي، قرر أن ينظم ندوة حول ظفار، وطلب مني ومن يعرب وذيب أن نتحدث في هذه الندوة حول ظفار التي نعرفها، وما نريد لها أن تكون يومًا، قضينا أسبوعًا كاملاً، أنا وأخي، في صياغة محاور الندوة، أحديث أمي حول الحرب القديمة؟ أم حزام أبي المرصع بالرصاص، هو المحور الأقوى؟ ثم إننا اتفقنا أن يكون الشهيد زيد ابن أحمد، هو محور حديثنا الأساس، ومن قبر زيد الذي تزوره أمه شامة كل يوم، طافت بنا الندوة الظفارية، وطفنا بها حول جبل ظفار، وأسمعنا أزيز الطائرات البعيدة إلى الحضور، كل الحضور بمن فيهم نبيل وسناء اللذين كانا يجلسان في الصف الأول، ولم أهتم.

كتبت في مذكراتي تاريخ الندوة، وأسماء من أعرف من الحضور، والأسئلة التي طرحت، والتنبؤات التي قيلت، وحتى التصفيق الذي هز جدار القاعة، عندما أخذنا على عاتقنا أمام هؤلاء، أن نحمل راية التغيير من هنا إلى هناك، سجلت اهتزازات التصفيق في كتابي الأبيض، دفتر مذكراتي، وما يزال يحوي الوردة الجافة، كتبت قوة الحماس، والإصرار على التغيير التي أصابتنا نحن الثلاث من تلك المنصة، وحين عدنا، كنا نحسب الأيام التي سوف نعود بعدها إلى الجبل، التفت ذيب إلى أخى يعرب، وسأله بشكل مباشر:

- تزوجني أختك شهلا يا يعرب؟

أجبت "موافقة" بعد إيماءة من أخي.

كان عرسًا حضره أربع من الزميلات، وأربعة من الزملاء، شربنا في حفل عرسنا أكوابًا من الشراب الأحمر القاني، أعده النادل في مقهى خان الخليلي، وقدم لنا قطعًا من الكعك المحلى بالسكر الأبيض، رجل عجوز يحتضن آلة عود مشروخة، غنى لنا أغاني العرس بلهجات عربية مختلفة، وألحان راقصة، وأصرت مني أن ألبس فستان عرسٍ أبيض، كان لأختها الكبرى، على أنغام العود الحنون رقصنا جميعًا، وضحكنا كثيراً، وطفنا حول كل الطاولات في المقهي، وشاركنا كل من كان هناك تلك الليلة، شاركنا الرقص، والغناء، والكعك، والشراب الأحمر، كتبت في مذكراتي أنها أسعد الليالي لي في القاهرة.

عود على بدء، بدأت رحلة العودة إلى ظفار، ما يزال الطريق وعرًا، وربما أكثر وعورة من قبل، حملتني الطائرة من القاهرة إلى عدن، أنا وذيب، بينما تأخر يعرب في العودة، قال إنه يستكمل أوراق التخرج لثلاثتنا، أو ربما لأربعتنا، حيث منى كانت في رفقته، وهو يقدم لنا الاعتذار حول قرار تأخره عن العودة إلى ظفار، أوصلنا إلى مطار القاهرة، ليس هو فقط، لكن ثلة من الرفقاء، والرفيقات تجمهروا حولنا في مطار القاهرة للوداع، تعلقت في رقبة أخي، بكى كالصغير، وهو يحتضن أخته، لم أكن أعرف أنني لن أراه بعد اليوم، وضعت يده في يد منى، وأمسكت بيد زوجي،

لوحت من بعيد لكل الأصدقاء، وعدتهم بالكتابة لهم، وإعلامهم بما يصير في بلادنا، ركبنا الطائرة، وغادرنا.

من عدن، كان الطريق طويلاً، بالسيارة ذات الدفع الرباعي حتى حدود البلاد، ثم تارة بسيارة صغيرة، وتارة سيراً على الأقدام أو بركوب حصان أو حمار، لا بد من الاستعانة بدليل محلي، ليصل بنا إلى معسكر المقاتلين في الجبل، في كهوف الجبل الوعرة، والتي تمتلئ بمياه الأمطار عندما يأتي السيل في موعده الذي لا يخلفه، لننتقل من كهف إلى آخر، يعرف من قبلنا الطرق المختصرة بين الكهوف، التي لا يمكن الوصول إليها إلا سيراً على الأقدام، اثنى عشر يومًا، نأكل الخبز الجاف، ونشرب قدرًا محسوبًا من الماء في كل يوم، ونختبئ في ظلال الجبل حيث نسمع أزيز طائرة، حتى وصل بنا الدليل إلى المعسكر الأول، الذي يؤدي إلى معسكر ثانٍ ثم ثالث، وقال الدليل "هنا انتهت مهمتي، والرجل القادم من بعيد هو دليلكم إلى ما بعد هذه النقطة"، وصل الرجل البعيد، ألقى ذيب نفسه على صدر أبيه أحمد، ابتلت لحية أحمد الكثيفة بالدموع، ولم يحكِ، قدمني ذيب إلى أبيه:

- شهلا زوجتي اليوم يا أبي، هي حامل في الشهر الرابع.

أوصلنا أحمد إلى كهف متسع بعض الشيء، هنا بعض أدوات الراحة التي لم أتصور وجودها في مكان مثل هذا، أصواف الخراف تفرش على الأرض كسجاجيد، وهنا أكثر من قربة للماء الذي أوجد له المعسكرون أكثر من بئر للماء العذب، ومذياع

صغير، كان مؤشره دومًا على إذاعة صوت العرب، رحبت بنا فاطمة، قالت إننا سيكون لنا دور كبير هنا، لكنها ستهتم بي حتى أضع حملي، كانت لطيفة المعشر، تجيد حمل السلاح، وعملت على تدريبي على كل أنواع الفنون القتالية.

كرهت في الأيام الأولى والأسابيع الأولى النوم على الأرض الصخرية، للحظات ندمت على ترك فراشي في شقة القاهرة، والغرفة الدافئة التي أُغلق بابها بالمفتاح عندما أريد أن أنام، أو عندما تزورني منى، وأما صخور الجبل هنا فهي حادة، ذات رؤوس تشبه المسامير، وعليّ أن أغير وضع الفراش الذي ما هو إلا صوف الخراف، عليّ أن أغير وضعه مرات، ومرات خلال الليلة الواحدة، حتى أحصل على بعض الراحة، أو ساعات متقطعة من النوم، وفي الصباح، وحين أجتمع مع هؤلاء الذين ما أرادوا إلا أن تكون الأرض لأهل الأرض، وأن ينشأ الأبناء في مستقبل يشبه الوئام في مصر، وفي اليمن، حين أراهم وأسمعهم، يصير الفراش الصخري محببًا، وبرد الليل سلاحًا أمضي به مع طفلي إلى مستقبل أفضل من أيامي مع أمي زعفرانة في القرية.

أعاقني الحمل عن حمل البندقية، فقد انتفخ بطني من الشهر الخامس، وكنت أتقلب كبطة سمينة في الشهر السادس وما تلاه، واكتفت فاطمة بشرح كيفية إعادة تزويد البندقية بالبارود، بشكل عملي، يذكرني البارود بالحزام الأسود الذي يلتف حول خصر أبي، وأتذكر ذلك اليوم، الذي جاء فيه إلى القرية من الجبل لأول

مرة وهو يلبس الحزام الجلدي، والعمة السوداء، كان مهابًا حتى أنني أردت أن أكون معه في رحلته القادمة، لم يوافق أبي على ذلك في حينه، أخذ معه زيد ابن أحمد، ثم عاد به بارد الجسد، يومها، أصر أبي أن أسافر إلى القاهرة مع يعرب وذيب، لم يكن يعلم أبي أننا عائدون له بعد عدة سنوات، ولست أدري إن كان فرحًا بهذه العودة أم لا؟

مع كثرة إعادة الدرس العملي من فاطمة، صارت يدي أكثر مهارة في تزويد البندقية بالذخيرة، وفك قطعها إلى أجزاء صغيرة، وإعادتها إلى سيرتها المكتملة، صرت أكثر مهارة في اتخاذ وضع التهيؤ، والاستعداد لإطلاق النار على الحصى الملون، الذي اصطف في وضع الاستعداد للمتدربين.

بعد ولادتي، صرت أُحسن التدرب على التصويب، وأُصيب الهدف بدقة، قالت فاطمة إن الآخرين يحسدونني على دقة التصويب، لا أعرف ماذا كانت تصيب رصاصاتي، لكننا كنا دومًا نهدف إلى تضليل الطائرات عن أهدافها، سواء عن تلك المعسكرات المنتشرة في كهوف الجبال، ومنها كهف يقطنه أبي، وكهف آخر لي، وفاطمة ثم سعيد، وأحيانًا يزورني زوجي هنا للاطمئنان، كنا نضلل الطائرات عن تلك الكهوف بإشعال الحرائق أحيانًا، وبإطلاق طلقات البارود بعيدًا عن المعسكرات، أو عن أهداف قروية، ليس لها مأرب إلا أن تحيا لتأكل، وتأكل لتحيا.

كان لفاطمة، يومًا ما، أسرة تتكون من زوج وثلاثة أبناء صغار، إضافة إلى حظيرة الدجاج وعنزتين وشاة تدران الحليب للأسرة كل صباح، حتى ذاك الصباح الذي لا تنساه فاطمة، خرجت لتسأل الجارة عن شيء من ملح الطعام الذي نقُص من مطبخها، فجأة سقطت قذيفة على المنزل الصغير، سمعت صراخ أطفالها الثلاثة وبكاءهم، لم تعرف كيف تخرج أجسادهم الصغيرة من تحت قطع الصفيح المتساقط، والصخور المتراكمة فوقه، سرعان ما سكتت كل الأصوات، إلا صراخ الغضب في داخلها، فحملت بندقية الزوج الراحل، ورحلت إلى الجبل، وهي التي كانت تمنع الزوج من الرحيل.

- وما لنا نحن، وهؤلاء، أو هؤلاء!

كانت تردد، حتى ذهبوا جميعًا، فاتخذت من الجبل سكنًا وعنوانًا، ونقطة انطلاق، كانت فاطمة تحكي قصتها، وركلات الصغير العنيفة تدق بطني.

تأنس فاطمة بوضع يدها على بطني، تتابع الركلات، تتابع وضع رأس الجنين في أحشائي، تسألني كل يوم عما أشعر به، وعن عدد الركلات في الليلة الماضية، أحسب أنها كانت تعرف عدد الركلات دون أن أقول، أحسب أن فاطمة كانت تحسب ركلات الطفل أكثر مني، كانت تدس الوسائد خلف ظهري، وحولي قبل أن أنام، وتصنع لي كوبًا من حليب الماعز لأشربه قبل النوم، كانت هي من يعد الأيام

لتحسب متى يأتي الطفل إلى عالم الجبل القاسي، فربما يخفف صراخ الطفل من وحشة الليل، وعواء الذئاب الجبلية، تقول فاطمة.

عضضت على شفتي بشدة حتى أدميتها، عندما أحسست بقوة الطلقة الأولى، لم يعلُ صوتي إلا بآه مكتومة سمعتها فاطمة فاستيقظت في الحال، عدلت من وضع جسدي تحسبًا للولادة، وتحسَسَت رأس الطفل، واستمعت إلى دقات قلبه فابتسمت، قالت إنه في خير حال، وإنه على استعداد أن يكون في يد أمه خلال ساعات، ساعات ما عرفت لها مثيلاً، ولا شبيهًا، أحضرت فاطمة ما أحضرت من ماء وأعشاب ذات روائح قوية، ربما تكون أعشاب قد جمعتها أمي من الجبل وهي لا تدري أنها لولادتي، ربما يكون أبي قد جاء بالأعشاب من أمي دون أن تدري لمن هذه الأدوية، لكن رائحة الأعشاب النفاذة، كان لها ثأثير كالسحر عندما وضعتها فاطمة أمام أنفي، ووضعت كومة أخرى من الأوراق العشبية المكومة في صرة من القماش بحجم قبضة اليد، صرة تحفظ الأوراق العشبية، مخيطة بعناية حتى لا تخرج منها الأعشاب، دست فاطمة صرة القماش في فمي بعد أن بللتها بالماء، أمرتني أن أعض عليها بأسناني بشدة حتى لا يخرج صوتي الذي يشبه صوت الشاة المذبوحة، عضضت على صرة فاطمة، أو ربما هي صرة أعدتها لي أمي زعفرانة، تشبه في رائحتها عشبة كانت تغليها لمدة نصف يوم قبل أن تحرق الوريقات المغلية، ثم تجمع رمادها بريشة حمامة.

هي أمي التي أراها الآن عند رأسي، هي أمي زعفرانة التي تضع يدها على بطني وتتمتم بكلماتها التي لا أفهمها، هي أمي التي تنفخ في صرة القماش، ثم تعيدها إلى فمي، تدسها بين أسناني، وتطبق عليها فكيّ، وتدعوني لعدم الصراخ، هي أمي التي صرخت في الطفل المتهيئ للخروج:

- باسم اليوم الموعود.. اخرج.

فخرج باسمًا كما قالت فاطمة، فتح عينيه قبل أن يفتح فمه بالبكاء، خرج الطفل على يدي أمي كما رأيتها تحتصنه، وتلفه في قماش أبيض نظيف، وضعته على صدري، ومسحت حبات العرق من جبيني، حاولت أن أمسك يد أمي لأقبلها، كانت اليد التي أمسكت بها، يد فاطمة، سحبتها بشدة قبل أن أقبلها، أعرف أن أمي كانت هنا، لكن فاطمة، لم تعترف بذلك يومًا، رائحة الكهف كانت بخور أمي، رائحة اللبان العماني الملتصقة بثياب أمي، كانت حولي، ولم تعترف فاطمة بحضور أمي.

جاء سعيد، أسماه ذيب سعيد متمنيًا له السعادة، بعيدًا عن الشقاء الذي نراه، ولأول مرة منذ وصولي إلى هنا، أرى أبي مع أحمد، حمل أبي الطفل بين يديه، قرب شفتيه من أذن الطفل، ورفع الأذان، كما يفعل المسلمون، ليكون النداء على الصلاة أول ما يسمعه، ويعرف أن للكون ربًا أوحد، علينا حمده، وشكره، وأن نحسن عبادته، لم يذكر أبي الكثير عن أمي زعفرانة، إلا أنها بخير هناك، لا شيء ينقصها مع ابنها صالح سوى لم الشمل مع أبنائها،

لكنه - أبي - تعهد ألا يذكر كلمة أمامها، حتى يبلغ الطفل الفطام، ثم يحين لها أن تراه، بحسب مستجدات الأحداث في الأيام القادمة، لا يجيب أبي عن أسئلتي حول أمي، ولم يؤكد لي إن كانت صرة القماش المخاطة على أعشاب جافة، إن كانت من صنع أمي، اكتفى أبي بالقول إن كثيرات هن في الجبل من يصنعن مثل هذا الدواء، اختار أبي أن يترك الإجابة رمادية، واختارت فاطمة ألا تؤكد وجود أمي في اللحظات التي جاء بها سعيد إلى عالمنا، حتى سعيد، كان يترك الرضاعة من صدري، ويلتفت إلى الزاوية اليمنى من الكهف، ويبتسم، دون سبب.

كتبت في دفتر مذكراتي "جاء سعيد ابن ذيب إلى دنياي، استقبلته أمي قبلي لتضعه على صدري، واستقبلته فاطمة قبلي لتساعده في إيجاد سبيل إلى قطرات لبن من صدر أمه، فكانت أول من احتضن الطفل بعد ولادته".

أعدت دفتري الأبيض إلى مكانه، عدلت وضع الوردة الجافة بداخله، لأكتب اسم سعيد، ولما سألتني فاطمة عن الوردة الجافة في ذلك الدفتر، قلت لها إنها أنا، سيكون اسمي في الجبل "وردة".

بين الساعات التي ينام فيها سعيد، كنت أنا، وردة التي تفترش الأرض، وترسم خطوطًا لمسير الطائرات الزنانة، يجتمع حولنا الرجال من القرى المنتشرة على امتداد الجبل، يحيطني ذيب بذراعيه وقلبه، أعرف الآن أن قلب ذيب عنواني الذي كدت أن أضيعه ذات يوم في القاهرة، أرتب الرصاص في حزام أسود يشبه

حزام أبي، لتسقط كل الطائرات حتى أعود لقلب زوجي، وأنام.

بعد اليوم الأربعين من ولادتي، كنت في اشتياق لتصويب الضربات إلى الحصى الملون، تلك الأهداف الصغيرة التي يتدرب عليها المبتدئون من أمثالي، وضعت سعيد في فراشه نائمًا، ولبست الحزام الأسود الذي صار يحيط بخصري بعد خروج سعيد إلى عالم الجبل، لبست في قدمي حذاءً ثقيلاً جاء به ذيب لا أعرف من أين، خرجت إلى نور شمس ظفار التي أعشقها، أتفقد طريقي بين الصخور محاولة أن أتوازن في خطواتي، خانتني تلك الخطوات، لأسقط منزلقة بين صخرتين، انحشرت رجلى بين الصخرتين الضخمتين، ولم أجد بدًا من أن أخلع حذائي ذا العنق الطويل، لأتمكن من سحب رجلي المحشورة، استطعت بعد عناء من سحب رجلي اليمنى، ومشيت بها حافية على صخور حادة وحارة، في اتجاه قاعدة التصويب لأجرب مهارتي السابقة، شاهدتني فاطمة أمشي عرجاء في اتجاه قاعدة التدريب، لكن العرج كان شيئًا يستهان به، لولا عقربة صغيرة لمستها قدمي الحافية، فدافعت عن نفسها بغرس سمها الداكن في جسدي، لم أصرخ عند انزلاق قدمي بين الصخرتين، ولكني صرخت من حدة لدغة العقربة، وسقطت فوقها بكامل جسدى، لأحصل على لدغة العقرب الثانية في ذراعي، ويزداد صراخي.

ركضت فاطمة نحوى، ركض نحوي معها بعض من اجتمع في مساحة التدريب، وحدها فاطمة، رأت العقربة، أمرت أحدهم بقتل

العقرب أولاً، ففعل، شدت كوفية تلفها حول رقبتها، بسرعة المسعف المتدرب، شقت الكوفية، وربطت جزءًا منها حول ساقي حتى لا ينتشر السم إلى كامل جسدي، ربطت جزءًا آخر من الكوفية حول أعلى لدغة العقرب في ذراعي، أخرجت سكينًا حادة من غمد في حزام حول خصرها، صنعت بالسكين جرحًا حول لدغة العقرب في ساقي، وجرحًا آخر حول موضع اللدغة في ذراعي، ما حكت كثيراً، لكنها صارت تمص السم من اللدغة في ساقي، واللدغة الثانية في ذراعي، عمدت إلى عصر الدم من الجرحين، وأخرجت السم منهما، جاء من يحمل قربة الماء، فغسلت فمها جيدًا بالماء، ثم غسلت الجرحين بالماء، وأمرت بحملي إلى الكهف الذي كنت فيه الأيام الأربعين الأولى بعد ولادتي، عدت إلى الكهف محمولة بين ذراعي أحد الرفقاء، كان سعيد قد استيقظ وبدأ البكاء، من فورها حملته فاطمة بين ذراعيها وصارت تهدهده، وهي تحاول إسكاته حتى أستعيد صحتي لإرضاعه، كان سعيد يسكت بالفعل بين يدي فاطمة، وكنت بين يديها أسكت، وأستكين لما تأمر به، حتى إذا هاجمتني الحمى اللعينة بعد لدغة العقرب، عرفت فاطمة كيف تعتني بي، وكيف تُسكت سعيد بحليب الماعز، حتى أصير قادرة على إرضاعه، عندما جاء ذيب لزيارتي بعد أسبوع، غمزت لي فاطمة، فلم أخبره بما كان من العقرب الجبلي، وما كان من فاطمة، لكنني أخبرته، أنني أحتاج إلى حذاء جديد، بدلاً من ذلك الذي انحشر بين الصخرتين، فتركته هناك.

تتفتح في سماء الجبل نجوم الليل، أحب الحكي معها، كأنها مرسال يوصل الحكي إلى أمي، مرسال أمين، رغم أن طائرة غريبة قد تشق سماء النجوم، وقد تدفع بشرِّها لتهدم، وتقتل. عابسة هى السماء أحيانًا، سوداء هي السماء رغم أن مؤذن المعسكر يؤذن لصلاة الظهر، رشات من المطر، وأحيانًا أكثر من رشات تملأ أرض الكهف الذي يحوينا، تكون الأمطار بشارة خير لأنها تطرد الطائرات الزنانة من سمائنا، لكن قوة الرعد، وكثافة البرق، يثير الذعر في الخراف الصغيرة، والعنزات التي لا حياة في الجبل من دونها، يعلو ثغاء الشياه، تقطع الحبال التي نربطها بها، تكسر سور الحظائر الخشبية، تقفز من صخرة إلى صخرة، غالبًا ما تنزلق أقدامها بين الصخور كما انزلقت رجلي يومًا بين صخرتين، غالبًا ما نجدها ميتة على بعد أميال من المعسكر، بعد أن تهدأ العاصفة.

نستعد لهذه العواصف بأكياس من الرمل، دومًا ما تكون مكومة أمام فتحة الكهف، ما أن نشعر بعبوس السماء، ينفخ الشخص المسؤول في بوق مخصص لخطر العاصفة، يختلف عن البوق المخصص لطائرة قادمة، ويختلف عن البوق المخصص لطلب النجدة من معسكر لآخر، ما أن نسمع بوق العاصفة، حتى نحمل أكياس الرمل، وبعض الصخور، نرصها أمام الكهف لنمنع الماء المندفع من السماء من الانزلاق إلى مسكننا، يعرف كل مَن هنا ماذا يفعل عند صوت البوق المحذر من العاصفة، والصوت الآخر الذي يعلن انتهاءها.

تناوبت مع فاطمة على رعاية سعيد حتى بلغ الفطام، صار يأكل حبات البطاطا المسلوقة، والأرز الأبيض إذا توفر لنا، نكثر من أكل التمر هنا، ونشرب ماء جوز الهند الذي تنتشر أشجاره، ليس على الجبل، ولكن في السهول والوديان، استساغ سعيد طعم ماء جوز الهند، صرت أضع في يده قطعة من جوز الهند ليضعها في فمه مستسيغًا ذلك الطعم، يعض عليها بأسنانه اللبنية، تظل في يده لساعات حتى تذوب، لا يعرف الصغير من هي أمه الحقيقية؛ أأنا أم فاطمة؟ كثيراً ما ينام سعيد على صدر فاطمة، وهو يمص قطعة من جوز الهند، كثيراً ما يرفض صدري إلى صدرها، تضمه ضاحكة "اتركيه معي" تقول، فأتركه لأنام في أمن من صرخات طفلي.

لم يكن غريبًا أن أترك سعيد في رعايتها ذلك اليوم، حتى أعود من جولة صباحية، بعد أن صرت أحرص كل الحرص على موضع قدمي، وألف حول يدى قماشًا يحمي من قساوة الصخور، وأنا أنتقل من معسكر يطلبني لتدريب المبتدئين على التصويب، إلى معسكر آخر لنفس السبب، القماش على كف يدي يقوم مقام القفاز الواقي من الأشواك عند تقليم الشجر، كانت أمي تلف يدها بالقماش قبل نزع الثمرات الملونة من النباتات الشوكية الموسمية، وهكذا كنت أفعل.

حين عدت بعد جولتي الطويلة ذلك النهار، لم يكن صياح سعيد يملأ الكهف كعادته، كانت فاطمة التي مسحت الأحزان كل التعابير من وجهها، كانت تفكك سرير طفلي الخشبي، لاستخدامه

في شيء آخر، كانت ترتب ثياب الطفل فوق رف عالٍ من الصخور، وكأنها تخبئها عن أحد سوف يسطو عليها، تأخرت كثيراً حتى أجابت سؤالي اللحوح، ولم تلتفت حتى أمسكت بكتفها، وصرخت بالسؤال:

- أين طفلي؟ أين سعيد؟

- جاء جده عبيد، وأخذه إلى القرية، ستكون حياته هناك أفضل.

كنت أعرف أن هذا اليوم قادم، قال لي أبي إن سعيد له حياة أخرى منذ يوم ولادتي، لكني لم أكن بعد على استعداد لفقد صغيري سعيد، كنت أمسكت عن سعيد لبن صدري قبل ثلاثة أيام فقط، ما يزال صدري ينقط لبنًا يستحقه سعيد، لم تلتفت لي فاطمة وهي تحدثني عن أبي الذي جاء بحسب رسالة أرسلتها له "الطفل بلغ الفطام"، أبي الذي أعد العدة لهذا اليوم، عمد ألا يراني، خرج من الكهف الذي نعيش فيه، بقطعة من قلبي اسمها سعيد، ولم تلتفت فاطمة نحوي، كتمت الصرخة التي أريد أن أخرجها، أطبقت بعنف على أسناني، أمسكت بملابس صغيري أشتم رائحتها، ولم تلتفت نحوي فاطمة، كتبت في دفتر مذكراتي "إن فاطمة لم تلتفت نحوي".

مرت شهور، ولم يعد أبي ليخبرني أين صار سعيد؟ من يعتني بسعيد؟ ومن يقدم له قطعة جوز الهند ليمصها، ما عاد أبي منذ أن صار طفلي معه، ولا أعرف هل صار طفلي في عهدة أمي أم لا؟ وذيب لا ينطق حين أساله "أين سعيد؟".

بدأ الإرهاق والتراخي ينتشر في صفوفنا، الحنين إلى فراش دافئ، وخبز ساخن، وطفل يلهو بلا خوف، هدأ أزيز الطائرات قليلاً، وما تزال تحلق، كانت الطائرات ذلك اليوم تلقي بأوراق بيضاء بدلاً من البارود والمتفجرات، أوراق تنتشر في السهل والجبل، تتطاير كالفراشات في وادي صلالة وقت خريفها، أوراق لا تحمل إلا كلمات قليلة، كتبت بحرف مطبوع، حرف كبير:

- إنه عهد جديد، عفا الله عما سلف.

يلتقط المتعسكرون الأوراق، بعضهم يرقص فرحًا، وآخر يقبض على الورقة يطحنها بيده غضبًا، والبعض يتنهد بحرارة، راقبت أكثر من طائرة تلقي بالورق فوق كل مكان، رأيت البعض يقفز إلى الكهف يحمل ما خف وزنه ليغادر، لا يخفي الفرحة والسعادة، ورأيت من يرفع صوته يحاول أن يقنع الآخرين ألا تنطلي عليهم الحيلة، رأيت من يصد، ومن يمزق الورقة تلو الأخرى، ومن يقف بلا حراك، حتى سمع الجميع منا صوت البوق المحذر من العاصفة، كان علينا الاختباء.

وقعت عيني على فاطمة تسرق ثوبًا من ثياب سعيد، تربطه فوق خصرها لتشعر بدفء الطفل الذي حملته مثلي لعامين من الزمان، تتلفت نحوى مع طلقة البارود التي أطلقتها من بندقيتي نحو سقف الكهف، طلبت منها إعادة الثوب، فلم تفعل، أطلقت رصاصة ثانية أصابت سقف الكهف في جانب آخر، تفتت بعض الحصوات وبدأ التراب يتساقط، مع ضربة من البرق الثقيل على صخرة

تحمينا، بدأ الماء في التسرب إلى الكهف، طلقة ثالثة أصابت مكانًا رخوًا في سقف الكهف، صار التراب، والحصى الثقيل يتساقط على كلتينا، ارتفع مستوى المياه داخل الكهف، ولم ترص أكياس الرمل كما ينبغي علينا أن نفعل في مثل هذا الأمر، لم تتحرك فاطمة، شعرت بخطورة الوضع صرخت بها أطالبها بالخروج من المكان، فلم تفعل، فقط ألقت إليّ دفتر مذكراتي، لأحتضنه، وأنا أركض خارجة من الكهف بسعال شديد، وفاطمة التي تلف ثوب سعيد على خصرها، لم تتحرك، وكأنها كانت تنتظر ذلك اليوم.

صوت انهيار الكهف، وارتفاع التراب سحابة كبرى، جاءت بزوجي مهرولاً يمسك بورقة ألقت بها طائرة صباح ذلك اليوم، كنت أحتضن كتابي، وأسعل بشدة، وأنظر إلى شيء من بقايا فاطمة يختفي تحت كومة التراب، والصخور المتساقطة، ولا أستطيع الحراك، احتضنني ذيب، تحت الماء الكثيف، شاكرًا الله على سلامتي:

"سنخرج من هنا يا فاطمة، سنرحل إلى بلد آمن"، قال ذيب.

- أنا وردة!

- بل أنت فاطمة، وردة تحت التراب المتراكم منذ اليوم.

الفصل الرابع عشر

يعرب وقصة الحب في القاهرة

يمنعني الصداع الدائم من الكلام، يمنعني من فهم ما يدور حولي أحيانًا، وأحيانًا أغضب من أمي التي جمعت كل نباتات الجبل، وجعلتها في قوارير وقراطيس، مشت الجارة العرجاء بشكل صحيح بعد علاجها، وتوقف الطفل عن صراخه الدائم، ولم تستطع أن تعرف سر الصداع في رأسي، وكيف له أن ينجلي، منى وحدها لمست ذلك الرنين في رأسي، أمرته أن يتوقف، فتابعت كل وقتي في القاهرة، مع منى. اسمي يعرب ابن عبيد العماني، وهذه قصتي.

لم يكن لي أن أُمانع لما أمرنا أبي بالذهاب إلى المدرسة النظامية، تلك التي تبعُد مسيرة يوم وليلة عن قريتنا، لم أفرح، ولم أقفز كما فعلت أختي شهلا، ولم أحاول أن أمنع تنفيذ القرار، كما فعل أخي الصغير صالح، لم أفعل شيئًا، سوى أنني صرت أحزم حاجياتي كل موسم، لانتقال العائلة في بداية كل موسم دراسي إلى الحي الذي يحوي المدرسة، ثم نعود إلى القرية، بداية كل صيف، أحببت الصيف أكثر من الشتاء، وددت لو يتركني أبي هنا،

لأصبح راعيًا للأغنام، وربما صيادًا للأرانب والغزلان الصغيرة، وددت لو أنني أبني لنفسي بيتًا - كما فعل أبي - من الصفيح، ومن صخور الجبل التي تُنحت على شكل قوالب للبناء، وددت لو أنني ما شاركت أبي حلمًا بشهادة، أو علوم حداثية، لكنه أبي، وأنا الذي لا يتكلم، فعلت كما أمر، سافرت مع شهلا وذيب إلى القاهرة.

عند تسجيل التخصصات على الطلاب والطلبة، اتجهت إلى طاولة كتب عليها، كلية الحقوق، ناولتني الموظفة منشورًا صغيراً يوضح ما هي كلية الحقوق، وما الذي تعمل عليه، ثم ماذا يمكن أن يكون لنا إذا خرجنا للحياة بشهادة في الحقوق، لم أكن أعرف الكثير، بل لا أعرف القليل عن دراسة القانون، أو كلية الحقوق، ولا أدري إذا كان لي في بلدي، الذي لا أعرف منه إلا جبلاً، وعددًا من الأغنام، لا أعرف إن كان يومًا سيكون لي دور إذا حصلت على شهادة الحقوق.

في ذلك المنشور الصغير، قرأت أسماء المحامين الكبار، من كان لهم شأن في تغيير حياة من حولهم، منهم أبراهام لينكولن، الذي عمل محاميًا، ورجل دولة في الولايات المتحدة واشتهر بدوره كرئيس خلال الحرب الأهلية، وعمل على إلغاء الرق، ومنهم المهاتما غاندي، المحامي الهندي، والزعيم السياسي الذي اشتهر بمقاومته غير العنيفة، وحملات العصيان المدني في كفاحه من أجل استقلال الهند من الحكم الاستعماري البريطاني، ومنهم الزعيم المصري مصطفي كامل، السياسي والمحامي البارز، المناهض

للاستعمار وقد عُرف بدوره الكبير في مجالات النهضة مثل نشر التعليم، وإنشاء الجامعة الوطنية في مصر.

بُهرت بتلك الأسماء الكبيرة، وما فعلته لأوطانها بالاستناد على شهادة القانون، أو ما يسمى شهادة في الحقوق، لم أعمل على الاختيار السريع لمادة التخصص، لم أفعل كما فعلت أختي شهلا، التي اختارت مادة اللغة العربية دون تردد، أحبت قصائد زهير بن أبي سلمى، وعمر بن ربيعة التي درسناها في المدرسة، ولم أفعل مثل ذيب، الذي اختار كلية الزراعة، لإعجابه بما تفعله أمي زعفرانة، من جمع لنباتات الجبل، وصناعة الأدوية والعطور منها، وربما لأن صديقًا اسمه فؤاد، التقينا به في اليوم الأول، قد اقترح عليه أن ينضم إلى كلية الزراعة، حيث أبناء الفلاحين الذين يشبهوننا، يتحدون معًا في عالم واحد من أجل الأرض.

لم أتسرع الاختيار، وقضيت أسبوعًا في مكتبة الجامعة، أقرأ حول أبراهام لينكولن والمهاتما غاندي والزعيم مصطفي كامل وغيرهم من أشهر من درس الحقوق، وتحققت على يديه حقوق كثيرة.

التحقت بكلية الحقوق، في العام الدراسي الثاني، كنت ألبس نظارة طبية سميكة، وأحمل إلى البيت معي كتبًا ثقيلة، وعندما يطلع الفجر قبل أن أُغمض عيني، أصلي الفجر حاضرًا، ثم أنام، ولا أعبأ بأختي شهلا، وهي تعد الإفطار في بدايات النهار، شغفت بمادة القانون، وصارت حديثي بين الأصدقاء في نادي الطلبة، حتى أظن أنني أصبحت مملاً للكثيرين منهم، فيما عدا منى، التي

قالت إن جدها كان من كبار المحامين في مصر، في بدايات القرن العشرين، فصرت أجالس منى أكثر من الآخرين، وأخبرها بأخبار القضايا التاريخية التي ندرس، وهي تشرب الشاي المحلى بأربع معالق من السكر، وتستمع لي.

كثيراً ما أجد الزملاء في كُليتي متجمهرين أمام مدخل الكلية، أو أمام مدخل الجامعة، يرفعون لافتات شتى، ويرفعون أصواتهم بمطالبات شتى، لم أرفع لافتة معهم، ولم أتجمهر كما يتجمهرون، لكن كثيراً ما تُلغى حصص من المحاضرات، بسبب الاضطرابات كما يسميها الأساتذة، وكثيراً ما أنسحب إلى مكتبة الجامعة، محاولاً أن أصنع من وقتي قاربًا سريعًا نحو التغيير الذي صنعه المهاتما غاندى ذات يوم، كلما قرأت حول غاندى، ازداد إعجابي بسياسة اللا عنف التي اتبعها وأقنع مواطنيه بها، فأتعب المستعمر حتى قرر الخروج.

افتقدت أحمد ذا الصوت الجهوري، الذي دومًا يحمله الزملاء على أكتافهم، ورغم أن أحمد ليس صديقي المقرب، لكن كلماته التي يصرخ بها دومًا، لا تخرج عن تلك الكلمات التي نقرؤها في مراجع القانون المقررة علينا، والتي سوف نكتب ما ورد فيها في أوراق الامتحان، ثم تحسب لنا درجات النجاح والتفوق، أو الرسوب، بحسب ما حفظنا عن ظهر قلب من تلك المراجع.

لثلاثة أشهر، لم يظهر أحمد في أروقة الجامعة، أحد الزملاء قال إنه في زيارة طويلة لأقاربه في القرية، والآخر قال إنه مريض،

وعلاجه يستلزم الراحة في المنزل، ومنى قالت إن أحمد في حالة مراجعة قسرية مع الذات، ولم تزد على ذلك، لكنها عرضت عليّ أن أرافقهم في زيارة جماعية للزميلات والزملاء إلى بيت أحمد، فوافقت سريعًا، وركبنا الحافلة التي تأخذنا إلى حي السيدة زينب، حيث يسكن أحمد، جاء أحمد للقائنا، لكنه لا يشبه أحمد الذي اختفى قبل ثلاثة شهور.

لم يكن والد أحمد مرحبًا بالزيارة الجماعية، بل كان على وشك أن يغلق الباب في وجهنا حين عرف أننا زملاء الجامعة، خرج لنا أحمد الشاحب والنحيل، رحب ببرود بالزملاء، وقدم كؤوس الشاي التي أعدتها والدته الصامتة والمتجهمة، لم يغادر الأب، أو الأم، صالون الضيوف الذي اجتمعنا فيه، وعندما سألنا أحمد متى يعود إلى المحاضرات الجامعية، وعندما عرض البعض منا أن يزود أحمد بما فاته من الدروس والمحاضرات، لم يرد أحمد ولكن والده الغاضب أجابنا:

- أحمد لن يعود إلى الجامعة، سوف يتعلم معي كيف يكون فني كهرباء، مثلي.

دفن أحمد رأسه في صدره، لم يعلق على ما قال والده من قرار، وكأنني أسمع والدي عبيد، يأمر بالدراسة في المدرسة النظامية هناك، ثم يأمر بالسفر إلى القاهرة للدراسة الجامعية، وهذا أحمد، يعرب آخر، سوف يفعل، ويصبح يومًا ما كهربائيًا فذًا، مثل والده، وربما أُصبح أنا مقاتلاً بكتاب القانون، لكنني لا أشبه أبي.

خرج الجمع الطلابي من حي السيدة زينب، لا تعليق، ولا مناقشة لما قاله الوالد الكريم، نعلم أن صوت أحمد الذي طالما اهتزت له حوائط كلية الحقوق، قد تلاشي إلى الأبد، ركب كل منا حافلة تنقله إلى حيث يشاء، وركبنا، أنا ومنى، حافلة تتجه نحو القناطر الخيرية، الحافلة الأولى التي توقفت أمامنا، كانت متجهة إلى القناطر الخيرية، دون اتفاق مسبق، صرنا نضحك من الفكرة المجنونة، وركبنا الحافلة في اتجاه القناطر التي لم أزرها سابقًا، ولكنني سمعت الرفاق يعدون العدة لتنظيم رحلة إلى القناطر التي لا تبعد أكثر من عشرين كيلو متراً عن القاهرة، لكن الإعداد لا يكتمل لسبب أو لآخر، فما كان منا إلا أن صارت رحلتنا الخاصة، دون إعداد مسبق.

شرحت لي منى - التي تحب الشرح والاستفاضة مثلي - أن القناطر هي المكان الذي يتفرع منه نهر النيل العظيم، إلى فرعيه الأساسيين، كما توضح خارطة مصر، قد بناها الوالي العثماني الشهير محمد على باشا، وصار حولها مساحات كبيرة من الحدائق والمنتزهات، مما جعلها مكانًا مفضلاً لدى المصريين للرحلات، سواء الرحلات العائلية، أو الرحلات المدرسية والجامعية.

لم تستمر ضحكاتنا كثيراً، وكأن هناك يُراقب ضحكاتي، فيأمرها بالتجمد ثم التلاشي، مع صوت الطنين، والمطارق في رأسي، أمسكت رأسي بشدة، شعرت منى بالذعر، ولم أستطع أن أتحمل ذلك الألم في رأسي، كدت أضرب رأسي في أقرب حائط، قبل أن

تصل الحافلة التي أسعدنا أنها سوف تنقلنا إلى القناطر، نزلنا في محطة ما، جازفنا بآخر قروش في جيوبنا، لتنقلنا سيارة الأجرة إلى مستشفى قريب، حيث أصرت منى على ذلك، لم أُجر كل الفحوصات التي طالب بها الطبيب، لكن مهدئًا من خلال الوريد، كان كفيلاً بإسكات المطارق عند جبهتي.

ظلت منى تسأل عن أحوالي كل يوم، ظلت تطالبني بعرض نفسي على طبيب وآخر، التصقت بأختي شهلا أكثر، وصارت تحاول معرفة السبب لهذا الألم المفاجئ الذي أشكو منه، لم ترض عن استسلامي لهذه الحالة الدائمة، واعتبرت أن هذه انهزام أمام معضلة قد يكون حلها بسيطًا، ذكرتني بحلمي في التغيير، وعلقتْ أنني لا بد أن أبدأ بنفسي، لها أثر كالسحر كلمات منى، صرت أحب سماعها كما تسمع مني قصص القضايا القانونية الكبرى، والمحاكمات العالمية.

اعتادت شهلا على الاستيقاظ الباكر مثل أمي زعفرانة، تعد الشاي باللبن، والبيض المقلي مع الخبز الذي يأتي به حارس العمارة في صباح كل يوم، تترك لي نصيبي من الإفطار على الطاولة، وتخرج، إما إلى محاضراتها، أو إلى نادي الطلبة، لم أحب مداومتها على زيارة نادي الطلبة، شهلا عنيدة مثل زعفرانة، تعتقد دومًا أنها مع الحق وأن الحق معها، لا أستطيع أن أقنعها بسهولة لصرفها عما تريد، حتى أنها صارت تلقي أمامي أكاذيب صغيرة، أكاذيب قابلة لأن تكبر وتكبر، لم تبالِ شهلا إذا كنت

أصدق أكاذيبها، ولم أكن أدعي أن الأكاذيب انطلت عليّ، فصرت أرقب كلماتها، وتحركاتها، حتى لا تخرج أختي عن هدف رسمته هي، وأبي لنفسها، وهدف أرادته لبلدها، شهلا العنيدة، تعرف أن نادي الطلبة قد رسم خطًّا يساريًّا، لم نكن نفهمه عندما وصلنا إلى هذه البلاد، لكن صوت أحمد الذي تلاشى، علمنا الكثير.

أعرف أن نبيل - الولد الوسيم ذا الكلمات السحرية - يلقي الكلمات في كل اتجاه، أعرف أن شهلا تعد بحثها حول عنترة بن شداد، وتغضب من عم عنترة الذي رفض أن يُزوج ابنته عبلة من عنترة أسمر البشرة، تثور شهلا عندما يثور حديث الطبقات والاختلافات الاجتماعية، تغضب، وتزمجر وتردد كلمات سمعتها، وسمعتها في نادي الطلبة، أسكت، وأراقب أختي من بعيد، حتى عادت ذات يوم في موعد ليس موعد عودتها، تدخل غرفتها لساعات، ثم تخرج لتستمع معنا لأغنية السيدة أُم كلثوم:

يا فؤادي لا تسل أين الهوى

كان صرحًا من خيالٍ فهوى

رأيت دموع أختي ولم أُعلق، كذلك فعل ذيب، الذي يرى، ويسمع كما أرى، وأسمع، ولا يعلق.

منى التي تقطن في سكن للطالبات، اقتربت من شهلا أكثر بإيحاء مني، صارت منى قريبةً من كلينا، وحيث حضرنا أنا، ومنى وبعض الزملاء حفلاً سينمائيًّا لآخر أفلام السيدة فاتن حمامة، كانت شهلا في عالم آخر، تسمع من نبيل، آخر تحليل لكتاب

رأس المال، سرعان ما عرف نبيل أن شهلا، فتاة جبلية، لا تصلح لما يراه ويطمح له، فغير اتجاهه ومضى.

عندما عادت منى من إجازتها الصيفية في بلدتها التي تبعد بضع مئات من الكيلو مترات، كانت تحمل صرة من الأقراص الطبية، جاءت بها خصيصًا لي، قالت إنها من صيدلي عجوز في بلدتها يعرف كيف يداوي الرؤوس العنيدة مثل رأسي، وأن هذه الأقراص إن لم تفدني فإنها لن تضرني، بإذن الله، أسعدني اهتمام منى هذا، لم أكن محورًا للاهتمام كما تفعل منى اليوم، تناولت القرص الأول من أقراص منى بعد غداء فاخر من الحمام المشوي في مطعم شعبي قريب.

لم تؤت الأقراص نتيجتها المرجوة معي، عندما تدق المطارق رأسي، فإنني لا أسمع مَن أمامي ولا أراه، تعرف شهلا ذلك، ويعرف ذيب قصتي مع المطارق، لكن منى انتقلت إلى مرحلة أخرى من البحث بين العطارين في حي الحسين، وخان الخليلي، حدثها عطار مخضرم في بلدتها عن ثمرة خضراء، تنبت في طور السلوم، تلك ثمرة سوف تبدد المطارق في رأسي، وقد صار رأسي ممتلئًا بقصص المحاكم والقضايا الغريبة، داعب الأمل نفسي في إيجاد الثمرة الخضراء، كما أملت شهلا بعودة نبيل الهمام بوردة حمراء أخرى.

في الطرف البعيد عن الجامعة، وقف أحمد يراقب أصدقاءه القدامي، لم يجرؤ على الاقتراب منهم، جلس على مقهى يطل على بوابة الجامعة، وضع أمامه كأسًا من الشاي، وجلس لساعات ينظر إلى كل من يدخل، ويخرج من الجامعة، رغم اختفاء أحمد

من طرقات وأروقة الجامعة، صارت أصوات أخرى تعلو وتزعق، أجساد ترتفع عن الأرض لتزعق، هي الكلمات نفسها، وهو الصراخ نفسه، وهو الاختفاء نفسه، ثم لا شئ جديد، سوى غضب أو انكسار.

لم ترافقنا شهلا إلى السلوم، الأمل الذي جاءت به منى لانتزاع الصداع من رأسي، ذاك الأمل عبث في رأسي أيضًا، حتى وافقت منى على زيارة السلوم، ولم ترافقنا شهلا لانشغالها بالبحث حول عنترة بن شداد، وذيب كان شَغَل ساعات يومه بالعمل في مشاتل خاصة، يدر عليه هذا العمل المتقطع بعض المال، وقد انقطع المال الذي كان يرسله له والده أحمد، بينما كان والدي يرسل لنا في كل عام، كمًّا كافيًا من المال، يكفي لنفقات الجامعة، ولوازم الحياة.

اعتذرت منى عن محاضراتها ذلك اليوم، كما اعتذرت عن محاضراتي في كلية الحقوق، ركبنا حافلة ركاب عامة تنطلق في الصباح الباكر، أعدت لنا شهلا بعض الكعك وبعض الفطائر بالجبن المالح، وأخرى بالتمر الذي جلبناه معنا من عمان، حملت الأشياء التي أعدتها شهلا من أجل رحلة السلوم الطويلة، وضعت حقيبة صغيرة على ظهري، وحملت منى حقيبة صغيرة بها ما قد تحتاجه في هذه الرحلة، الحافلة البطيئة كثيرة التوقف في المحطات قد تحتاج إلى يوم وليلة لتصل إلى السلوم، تنام منى على كتفي خلال الطريق، وأصحو لأجد نفسي، وقد أسقطت رأسي المريض على صدرها، فلا تشتكي.

يحمل الركاب أشياء عدة في الرحلات البعيدة. فهذا أب يحمل إوزة سوف يذبحها عندما يصل إلى السلوم لابنه، الجندى المرابط على الحدود المصرية الليبية. وهذه امرأة، تحمل أفراخ دجاج، لتكبر قبل الذبح عند أختها خديجة المقيمة في السلوم، كما قالت. وهذا يحمل صندوقًا من البيض، حاول جاهدًا أن يصل به سليمًا، إلا أن اهتزازات الحافلة على الأرض الصخرية في أغلب الوقت، أسقطت صندوق البيض على أرض الحافلة، لتنتشر رائحة البيض الكريهة، قبل أن تتوقف الحافلة للاستراحة، وتقوم المرأة صاحبة الأفراخ بتنظيف أرضية الحافلة، فتسمع دعاءً صادقًا من سائق الحافلة والركاب، بالصحة والرزق الحلال.

عند الاستراحات، نتحرك كما باقي الركاب خارج الحافلة المكتظة، نحرك أقدامنا ببضع خطوات، مع كوب الشاي من مقهى الاستراحة، نجحت فطائر شهلا في سد جوعنا طوال ذلك اليوم، فلا نحتاج إلى شراء المزيد من الطعام.

عدنا إلى الحافلة التي تطهرت من رائحة البيض، وعادت منى لتنام على كتفي، ورأسي لا تطن فيه المطارق، ولا أزيز الطائرات، حتى نادى المنادي أننا قد وصلنا إلى محطة السلوم، نزلنا من الحافلة، نتمطى.

يعرف الناس هنا الثمرة الخضراء، ولكن ليس هناك من يدلك عليها بسهولة، يشير بعضهم إلى الشمال، ويشير البعض إلى الجنوب، ويقدم بعضهم أقراصًا يدَّعي أنها مستخلص الثمرة

الخضراء، ويحكي البعض أنها الشجرة التي ولدت تحتها مريم العذراء، السيد المسيح، وآخر يقول إنها هنا منذ أن نزل سيدنا آدم على الأرض، فكانت هذه الشجرة زاده وزواده مع أمنا حواء، وآخر يقول إن الشجرة تمد جذرها إلى ماء زمزم في مكة المكرمة، فتشرب منها، وتثمر ثمرة خضراء، لمرة واحدة في كل عام، فيها شفاء للناس.

ما أردنا هذه الحكاية، أو تلك، ولا جئنا لنعرف عمر الشجرة، أو تاريخها، لكن سيدة خمسينية، تلبس ثيابًا تقليدية مزركشة، أصرت أنها تحصل من الثمرة في كل عام على زجاجة من السائل الأخضر الذي تحتويه الثمرة، وقدمت لنا السائل بثمن لم نعتبره باهظًا، دهنت منه على رأسي سبع مرات، ودهنت منه منى على وجهها سبع مرات، وسبع مرات قرأنا فاتحة الكتاب، وسبع مرات قرأنا المعوذات، وتعوذنا من كل عين هامة.

ما اكتفينا بما قدمته السيدة الخمسينية التي تجلس في سوق المدينة، تفرش أمامها قطعة من القماش، تصف عليها قوارير كثيرة، حملتني ذاكرتي إلى أمي زعفرانة، ها هي سيدة من السلوم يا أمي، تصف القوارير كما تصفينها، ولكنك لم تفرشي القوارير في الأسواق، ولم تعرضيها للبيع، كما هنا، ولا أعرف من أين جاءت قوارير السيدة، كما أعرف قوارير أمي زعفرانة، أخبرت منى بصناعة أمي للدواء مما ينبت في الجبل، قالت إنها تؤمن بهذا الطب البديل.

سيدة أخرى، كانت تلملم معروضاتها من الفرش الذي تصفها عليه، حدثتنا بلهجة عربية ليبية تختلف عن اللهجة المصرية التي نعرف، نعصر أذهاننا، فنعرف ما تقول السيدة الغريبة الأُخرى، كانت ترانا نتحرك في السوق ذهابًا وإيابًا، رأتنا نسمع القصص والحكايات، ثم رأتنا نغتسل بالسائل الأخضر الذي اشتريناه من بائعة أخرى، تجاورها في افتراش أرض السوق.

- تبحثان عن الشجرة وثمرتها الخضراء؟

- نعم يا خالتي، لقد جئنا من مصر نبحث عن الشجرة التي وصفها لنا عطار قديم.

- و ما حكايتك يا ولدي؟

- الصداع يا خالتي، منذ وعيت على هذا العالم، والصداع يكاد يفلق رأسي.

- كم معك من المال؟

- هذه القروش.

- تكفي، تعالا معي.

سرنا خلف السيدة، توجهت نحو شاطئ البحر، مشيت على الساحل الرملي، مشت كثيراً، وهي لا تحكي، ولا نحكي، لكننا نتشابك بالأيدي معًا، خلعت منى حذاءها، وأكملت المسير حافية على التراب الرطب، فعلت مثلها، داعب الماء المالح أقدامنا

المحبوسة داخل الحذاء منذ يوم ونصف اليوم، هبت نسمات بحرية لتتطاير خصلات شعرها على خديها، ما رأيت في حياتي مثل جمال هذا النسمات على وجه منى، تحت أشعة قمر مكتمل بدأ بالظهور بعد مغيب الشمس.

سرنا كثيراً، حتى ابتعدنا عن مركز المدينة، أعجب اليوم من تلك الطمأنينة التي كنا نتحلى بها، أمَا من خوف في نوايا هذه المرأة؟ أمَا من احتياط يجب عينا أن نحتاطه؟ كانت عناية إلهية من بعيد، تحرس خطواتنا على التراب الرطب.

حتى بان لنا بيت صغير، يتلألأ بداخله ضوء فانوس، وخيال رجل، دخلت المرأة، فدلفنا البيت وراءها كما طلبت منا، كان بالبيت رجل عجوز قوي البنية، نظرته ثاقبة، ولا تهتز يداه كما الشيوخ في مثل عمره، يلبس ثوبًا ناصع البياض، ويلف عمة على رأسه، لا تشبه عمامتي في عمان، ولكنها عمة من قماش أبيض، له لحية شديدة السواد، وتجاعيد وجهه تزيد من وقاره، قالت المرأة:

- أظنه هذا ابن الجبل الذي تنتظر يا أبي.

عجبت من نطق السيدة بوصف ابن الجبل عليّ، لم تسألني عن بلدي قبل أن تأتي بي إلى هذا المكان، ولم أنطق أمامها إلا أننا قد جئنا إليهم من مصر، فقال العجوز:

- من أي جبل جئت يا ولدي؟

- من جبال ظفار في عمان يا سيدي.

- أغريبة أمك عن الديار؟

- نعم، هي غريبة عن الجبل.

- أتصنع الدواء؟

- نعم يا سيدي، تصنع الدواء من نباتات الجبل.

- ويحمل والدك السلاح اليوم؟

- نعم يا سيدي، هو ورفاقه يحملون السلاح.

- لقد انتظرتك كثيراً يا ولدي، دواؤك هنا منذ يوم ولدت.

دخل العجوز إلى غرفة مظلمة، شدت منى يدها على يدي دون أن ينطق أيٌّ منا حتى عاد العجوز، وفي يده صحن به اثنتا عشرة قطعة من فاكهة غريبة، تشبه الدراق، ولكنها خضراء قاتمة وفي حجم زيتونة، طلب مني العجوز البدء بأكلها، وكان يقرأ على كل قطعة تعويذة مختلفة، ثم يقدمها لي لألتهمها، واحدة تلو الأخرى، حتى قرأ اثنتى عشرة تعويذة، وأكلت اثنتى عشرة قطعة من الثمر الأخضر الذي لا طعم له.

ثم إن الرجل طلب منا أن ننام في بيته، وقد جثا الليل بظلامه على المدينة الهادئة، أخذت السيدة بيد منى إلى غرفة أخرى لتنام، وأخذني العجوز إلى غرفة بها سرير مرتب، ما أن وضعت جسدي على السرير، حتى سرى في بدني تيار بارد، يبدأ من أخمص قدمي حتى يصل إلى رأسي ليهدهده، فغفوت من فوري، ولا أدري كم ساعة مضت على الإغفاء، رأيت دخاناً يخرج من رأسي، يخرج من

الأذن والعين والأنف، يُغير الدخان لونه، من الأصفر إلى الأحمر، ثم الأسود، ثم يعود دخانًا أصفر مرة أخرى، لم يحدث الدخان في رأسي ألمًا، أو وجعًا، لكنني كنت أراه يخرج بغزارة، حتى انتهى، فأفقت، والرجل العجوز ينظر إليّ:

- الحمد الله على سلامتك، لقد طلعت الشمس، ولك أن تسير على بركة الله.

- كم أدفع لك يا سيدى؟

ضحك الرجل لأول مرة منذ رأيته:

- اكتب لزعفرانة رسالة، أخبرها أن الشجرة قد آتت أُكلها.

عجبت كيف عرف الرجل اسم أمي، لكنني تعودت من أمي شيئًا من العجائب حول ما تفعل، وحول ما تقرأ، جاءت منى لتمسك بيدي، سألت الرجل العجوز قبل خروجنا:

- ما هي التعويذة التي قرأتها على الفاكهة قبل أن يأكلها يعرب؟

- بعضًا من كتاب الغزال، كتاب يصل بقارئه إلى روح الكون.

ورغم أن منى لم تعرف ما المقصود بما قاله الرجل، شكرتْه بشدة، ثم خرجنا نسير حفاة على الشاطئ الرملي، تحت أشعة شمس هادئة، ونسمات بحر رقيقة، وجوع في بطوننا لم يهدأ إلا مع البقية الباقية من كعكات شهلا وفطائرها، في انتظار الحافلة التي تعود بنا إلى القاهرة، سرنا على الشاطئ كثيراً، غنينا ورقصنا وتقاذفنا الماء المالح على وجوهنا، دون أن أشكو من الصداع

اللعين، وجدت في السلوم، وجه منى منعكسًا على سطح ماء البحر، يذكر بالقمر الذي صاحبنا البارحة إلى بيت العجوز الذي يعرف اسم أمي.

جاءت الحافلة التي تعود إلى العاصمة المصرية، صعدنا، والفرح برحلتنا التي تكللت بالنجاح، يصعد بنا إلى الأعلى والأعلى، لم نتوقف عن النكات والضحك والغناء، حتى صار الركاب يغنون معنا، والآخرون يتمايلون على النغم الذي نشدوه، أعلن السائق أن محطة الاستراحة القادمة ستكون مرسى مطروح، هناك نزلت من الحافلة، جميلة كل الشواطئ هنا، قررنا أن نبقي بضع ساعات حتى موعد الحافلة التي تليها، عدنا إلى المشي حفاة على الشاطي، تتربع صخرة ضخمة هناك، يطلق عليها المحليون، صخرة ليلى، جلست عليها يومًا الفنانة المصرية **ليلي مراد،** وغنت في أحد أفلامها أغنيتها الشهيرة "المية والهوا":

يا ساكنى مطروح.. جنية ف بحركم

الناس تيجى وتروح.. وأنا عاشقة حيكم

غنينا الأغنية سويًّا، ثم نظرت في عين منى وسألتها:

- نتزوج هنا؟

- نعم موافقة.

لم يكن صعبًا أن نجد من يعقد القران في مرسى مطروح، قَبَّلت جبين زوجتي منى قبل أن نركب الحافلة، وقد اتفقنا أن نُبقي الأمر سرًّا، حتى إشعار آخر.

تقدم ذيب لخطبة أختي شهلا، وافقت شهلا دون تردد، وأقمنا عرسًا جميلاً شاركنا فيه عدد من الرفاق في الجامعة، رقصنا على أنغام العود في مقهى خان الخليلي، شربنا من الشراب الأحمر الذي أعده النادل، شاركنا كل من كان في المقهى الرقص والغناء، منى لا تقل جمالاً عن أختي شهلا في ثوب أبيض استعارته من إحدى قريبات منى، وددت لو أن لمنى أيضًا ثوبًا أبيض مثل هذا، لكنها جميلة لا تحتاج إلى بياض الثوب لأرى بياض الروح التي تحملها.

ودعت شهلا، وزوجها ذيب في مطار القاهرة، سأخبرهما فيما بعد بزواجي من منى، كما ستخبر هي والديها في البلدة البعيدة، سأكون لها زوجًا وحبيبًا، وتكون لي زوجة وحبيبة، يبعد أبي عن هنا آلاف الأميال، سأخذ قراري هذه المرة، لن أعود إلى عمان، سأنجب أطفالاً من منى، ليكون بينهم زعفرانة، ويكون بينهم عبيد، لكنني لن أعود.

الفصل الخامس عشر

صالح على ساحل إفريقيا

كيف يكون لي ثلاث بنات، ولا تحمل إحداهن اسم زعفرانة؟ ترفض زوجتي الزنجبارية هذا الاسم، تعتبره غريبًا لا يصلح لهذه البلاد، تعلمت من أمي كل الأشياء، صناعة الدواء، ورعاية الأغنام، ولم تحمل إحدى بناتي اسمها! ولم تلد لي زوجتي ولدًا ليحمل اسم أبي! حتى لساني العربي، بدأ في الانكماش أمام الكلمات الأُخرى من اللغة السواحلية، التي صارت لغتي، حتى صرت أشتاق إلى من يتحدث معي العربية، لا أحد هنا، سوى دلال، لكنها أيضًا، ذهبت، اسمي صالح بن عبيد العماني، وهذه قصتي.

بدون سبب واضح، تراجعت الطائرة التي كانت تقف فوقنا مباشرة، أخرجت دخانًا أصفر اللون، ورائحة خانقة ونفاثة، وتراجعت! غيرت مسارها، وعادت أدراجها، لنكمل المسير، يتحرك بنا الحمار بطيئًا رغم الضرب على ظهره بالعصا، أسمع صوت شامة من بعيد، بعد أن دفعت دلال نحوي، أسمعها تصرخ:

- حماكم الله، حفظكم الله، وفقكم الله.

ولم أسمع صوت أمي، التي كانت ترقب الطائرة، وترسل كلمات لا أفهمها نحو الطائرة، حتى الحديد صار يفهم كلمات أمي، ولم أفهم ماذا تقول هي للحجر الصغير، قبل أن تقذف به نحو الطائرة، تراجعت الطائرة، وبدأ الحمار يسارع في الخطوات على صخور الجبل، تجلس دلال الباكية على ظهر الحمار، تحمل صرة القماش التي جاءت بها شامة، وتحمل حقيبتين مصنوعتين من سعف النخيل، ملأتهما أمي زعفرانة بمؤن من التمر، وبعض قطع الملابس الصوفية للشتاء القادم، تصنع أمي من أصواف الأغنام، معاطف للشتاء، ولم تنس أن تدس طاقية خاصة صنعتها لي.

لم يتوقف بكاء دلال حتى وصلنا إلى ميناء صلالة، مع خيوط الفجر الأولى، راحت تنظر إلى السفن الرابضة على الساحل، أشرعة مطوية، وبعض الأشرعة مفروشة في الهواء على امتداد مساحتها، وصلت إلى أسماعنا أصوات البحارة، عدد منهم يحملون المؤن على ظهر السفن، والبعض منشغل في ترتيب الحبال التي تشد الأشرعة، والكثير من الحبال لربط السفينة الخشبية قريبًا من الساحل الرملي، لا تصل السفينة إلى الساحل، ترسو على بُعد قليل من الساحل، يمكن أن تصل إليها مشيًا، إذا لم يكن الموج عاليًا، وما تزال دلال تبكي، ازداد بكاؤها عندما رأت السفينة إلى سوف تأخذنا إلى عالم آخر، خلف هذا البحر الشاسع، عالم لم نعرفه ليصير عالمنا.

ظَهر أبي يحمل طفلاً، طفلاً قد أكمل الفطام لتوه، نائم هو على كتف أبي، يمسك في يده قطعة من جوز الهند، حتى وهو نائم، لا يدري من أين جاء، ولا إلى أي مصير هو ذاهب، مثلي تمامًا، أنا ودلال، لا نعلم المصير، ولكننا نعلم أن أبي وأمها شامة، قد اختارا لنا أن نبحث عن الأمن والأمان في مكان آخر، هناك وراء البحر الشاسع، قد يكون الأمن والأمان.

ظهر أبي أمامي فجأة، وكأن البحر قد قذف به من بين أمواجه، توجه إليّ مباشرة، لم يتحدث كثيراً، سلمني الطفل النائم ممسكًا بقطعة جوز الهند:

- هذا سعيد، ابن أختك شهلا، سيكون لك منذ اليوم، فكن له أبًا.

أمر من أبي، هو الذي جاء بي إلى هذا المكان، لماذا لا يكون الطفل عند أمي زعفرانة؟ ستكون أسعد الناس أن يكون حفيدها الأول في حضنها، سأكون له خالاً وصديقًا، لكن أبي رأى أن الأمن لا يكون إلا وراء البحار، فتركت أمي، وجئت أتسلم الأمانة، سعيد ابن ذيب، ابن أختي شهلا، ليكون ابني منذ هذه اللحظة، نظر أبي إلى دلال التي يعرفها جيدًا، رأى دموعها المنسكبة، فمسحها بطرف عمامته.

- ستكونين في حال أفضل هناك يا دلال، هذا الطفل طفلك، وهذا الرجل سيكون زوجك، فلا تحزني.

نظر إليّ أبي، وأعاد ما قالته شامة هذا الصباح قبل أن ننطلق من الجبل في رحلة على الحمار، أمسك بكتفي كما لا يفعل إلا إذا كان يوصي بشيء خطير:

- تزوج من دلال، سعيد سيكون ولدًا لكما، حتى يفرجها الله.

دس والدي كيسًا من العملة الذهبية في جيبي، قَبَّل جبين سعيد، واحتضنني، وساعد دلال التي سكتت عن البكاء وهي تهدد الطفل النائم، ساعدها في ركوب قارب صغير سوف يأخذنا إلى السفينة الراسية قريبًا من الساحل، دفع بالقارب الصغير الذي يحوي أسرتي الجديدة إلى الماء، رجل آخر وامرأتان، يضمهم القارب الصغير معنا، دفع أبي بالقارب إلى الماء، ثم أمسك بطرف الحبل المربوط بالحمار، والتفت إليّ بعمق، ثم مضى من حيث أتى، ماشيًا في المقدمة، والحمار من ورائه، ولم ينتظر حتى نلوح له من أعلى السفينة الأم، لم ينتظر حتى أرفع يدي لأحتضن وجهه لآخر مرة.

من السفينة الأم، تمتد حبال مربوطة في شكل سلم للصعود إلى الأعلى، صعدت المرأة الغريبة أولاً، تعوقها ثيابها الواسعة، وخمارها المتدلي من كل الأطراف، صرخت عندما زلت قدمها عن السلم اللين، الرجل بصحبتها يسندها من القارب، والمرأة الأخرى، تصرخ عندما سمعت صرخة أختها، هناك على ظهر السفينة، امرأة أُخرى، جاءت لتمسك بيد المسكينة التي زلت قدمها، حتى وصلت بصعوبة إلى ظهر السفينة، ثم جاء دور أختها، ترددت في الصعود، لولا أن أمسك بها الرجل الذي يصحبهما،

صرخ في وجهها آمرًا إياها بالإمساك بالحبل، والتعلق به، فعلت ما أُمرت به، وكانت تتأرجح أكثر من سابقتها، ارتفع صراخها أكثر، ولا سبيل أمامها إلا إكمال رحلتها إلى ظهر السفينة، رغم الثوب الواسع الذي يلتف على قدميها، وأحيانًا يمنعها من نقل نفسها درجة إلى الأعلى، ثم صارت في أعلى السفينة مع ارتفاع الشمس حول رؤوسنا.

تسلق الرجل السلم المصنوع من الحبل في براعة تدل على أنه يعرف ماذا يفعل، وإنه ليس في أولى محاولاته مثلنا، أو مثل المرأتين اللتين صعدتا السفينة قبله، التفت نحوي، وهو في منتصف طريقه إلى أعلى السفينة، وقال موجهًا حديثه لي:

- ناولني الطفل لأصعد به، سيكون الصعود سهلاً لك، ولزوجتك بهذه الطريقة.

دقت كلمة "زوجتك" في رأسي كالمسمار، حتى هذه اللحظة لم آخذ كلمات شامة، ولا كلمات أبي على محمل الجد، لكن هذا الرجل النبيل، رأى أننا عائلة؛ زوج وزوجة وطفل رضيع، لم أتأخر حتى ناولته سعيد، فاستلمه بخفة، ولكن قطعة جوز الهند سقطت من يده في الماء، تابع الرجل الصعود به رغم بكائه، صعد على الحبال المشدودة بثبات يؤكد خبرة سابقة، حتى صار في أعلى السفينة، وتناولت إحدى السيدتين سعيد من يده، جاء دور دلال، فحاولت أن تقلد ثبات الرجل، ولم تصرخ كالأخرى عندما زلت قدمها اليسرى مع اهتزاز الحبل يمينًا ويسارًا، وصلت في أمان،

وانتَظرت وصولي، لنصير عائلة من ثلاثة، على ظهر سفينة تبحر بنا إلى زنجبار.

التفت كل النسوة حول سعيد، كان اللعبة المسلية لكل النسوة على ظهر السفينة، ينام في حضن إحداهن، ويصحو في حضن الأخرى، هذه تطعمه تمرة، وأخرى تضع في فمه أرزًا مهروسًا، والثالثة تسقيه بالمعلقة الصغيرة الماء بالسكر، دلال التي كفت تمامًا عن البكاء، ترقب تحركات النسوة مع سعيد، وكأنها تتعلم منهن دروسًا ستكون لها دروسًا هامة في مستقبل الأيام، لكن سعيد لم يكف عن ترديد كلمة واحدة:

- شلا.. وين؟

أخبرت دلال النسوة الفضوليات، أن شهلا التي يسأل عنها الطفل، هي أختها التي بقيت في ظفار، وإن سعيد هو طفلها هي، طفلها الأول.

لا أذكر إذا استغرقت السفينة ثلاثة أو أربعة أسابيع، أو أكثر، فالأيام متشابهة، وشكل البحر الممتد من كل جانب، لا يعطي أملاً بالوصول لولا أن ربان السفينة والآخرين معه، يؤكدون أنه على الجانب الآخر، جزء من عمان، بلادنا، كان ربان السفينة يقسم الماء بالعدل على الركاب، لا أحد ينبغي له أن يشرب أكثر من حصته اليومية، والطفل له حصة أيضًا، مثل باقي الركاب، كانت دلال تختصر من حصتها ما تستطيع توفيره، إذا وجدت أن سعيد يحتاج المزيد من الماء، بحسب خبرة النساء من حولها.

خلال السفر الذي فَرضه عليّ أبي، أكلنا أسماكًا كما لم يحدث معنا سابقًا، قلما تصل الأسماك لنا في الجبل، وهنا لا شيء يمكن طبخه سوى الأسماك التي يشدها الرجال من البحر بالشباك المعدة لهذا الغرض، لا ظل على ظهر السفينة إلا ظلال الأشرعة، تتكور النساء في مساحة الظل، يتلحفن بأغطيتهن الكثيفة، لباسهن الملون، والواسع جدًّا، اللباس الذي كاد أن يكون سببًا في أن تزل رجل إحداهن، فتقع في مياه البحر، تترك مساحة لسعيد أن يلهو، وكل العيون تراقبه، يلهو قليلاً على ظهر السفينة، فإذا مالت بنا الريح، أسرعت دلال لتمسك بالطفل، وتضمه إلى حضنها حتى لا ينزلق لخفة وزنه، كدت أن أصدق أن سعيد هو ابن دلال فعلاً، لولا أنها لم تره قبل يوم السفينة.

أصابتني حمى بعد أسبوع من انطلاق الرحلة، افتقدت يد أمي على جبيني، تضع الكمادات الباردة، ولا أدري من أين تأتي بها، ثم تسقيني شرابًا حامضًا، يكون سببًا في ذهاب الحمى إلى حال سبيلها، جلست دلال بجانبي، تركت سعيد في رعاية إحداهن، وجلست بقربي، جاءت بالماء البارد من البحر، قطعت بأسنانها قطعة من خمارها الطويل، بللت قطعة القماش بماء البحر البارد، وضعتها على جبيني، وظلت على هذا الحال يومًا بليلة، استغنت عن حصة الماء المخصصة لها ذلك اليوم، لتكون لي حصتان من الماء، دون أن أعي تضحيتها بالعطش والإرهاق، وضعت في فمي الماء، وشيئًا من التمر، كما بدأت في إطعام سعيد، طلبت من

الربان لو أن طباخ السفينة يصنع حساء من الخضار المتوفرة، وافق الربان، وأعطى أمرًا بصنع الحساء، لم تتناول دلال أي رشفة من الحساء، وضعت كامل الجزء المخصص لها في فمي، بملعقة صغيرة، تذوقت الحساء الذي كان لذيذًا، وإن لم يكن يشبه ما تصنعة أمي، في اليوم الثالث، فتحت عيني لأرى دلال، دلال أخرى، أجمل من تلك التي صعدت السفينة، وهي باكية، كانت تلك هي دلال التي صارت زوجتي.

مع كيس العملات الذهبية التي دسها أبي في جيبي، لم يكن من الصعب أن أشتري بيتًا صغيراً لي وعائلتي، وأن أفتتح دكانًا صغيراً للعب الأطفال والحلويات، كان يدر علينا ما يكفي لأن نعيش فوق خط الفقر بأكثر من نقطة. كبرُ سعيد، وصار يذهب إلى المدرسة القريبة، تحدث بالسواحلية التي اكتسبها من الجيران، وزملاء المدرسة، كما تحدث العربية التي تعلمها مني ومن دلال، اكتسبت أنا اللسان السواحلي الدارج، بعد عام ونصف العام من وصولنا إلى هنا، وظلت دلال تعاني من صعوبة التواصل مع الآخرين من حولها، وفضلت أن تعلم الأولاد والبنات، اللغة العربية، وأن تحفظهم القرآن و**السنة النبوية**، فصار بيتنا خلية نحل لأولاد الزنجبارين ممن أرادوا تعليم الدين الإسلامي، مع حفظ ما تيسر من القرآن الكريم.

تعلم أولاد القرية اللغة العربية، أو شيئًا منها، من زوجتي دلال، لكنها لم تلتقط منهم إلا كلمات متفرقة أو متقطعة من السواحلية،

لم تهتم لذلك، ولم تحاول بذل جهد أكثر في تعلُّم السواحلية التي تعتبرها تشبه قرع حصيات صغيرة في علبة من الصفيح، شعرت بأهمية لسانها أكثر كلما زاد الأولاد في مدرستها الخاصة/ بيتنا، وكما فعل أبي ذات يوم، حين بنى لأمي غرفة خاصة تعالج فيها الزائرين ممن يطلب العلاج على يدها، شيدتُ لأجل دلال غرفة واسعة للدرس، لصيقة ببيتنا الصغير، جهزتها بالمقاعد الخاصة للأولاد، ومما يدره عليّ الدكان الصغير من زرق يكفينا وزيادة، جهزت غرفة الدرس بألواح سوداء، وطباشير ملون، وجاء شيخ القرية بعدد من المصاحف، وضعها في غرفة الدرس، ثم جاء آخر بعدد من الدفاتر بصفحات بيضاء، وأقلام رصاصية، وصارت الغرفة تعرف باسم مدرسة دلال.

انشغلت دلال بأطفال القرية، كما انشغلت بتربية سعيد، كانت المدرسة التي صار يؤمها الصغار من القرى المجاورة، صارت تفتح أبوابها من الصباح الباكر، وحتى ساعة متأخرة من الليل، يخرج فوج من الصغار، ليدخل فوج آخر، وكلما تخرج فوج بعد حفظ **جزئي عم وتبارك**، من القرآن الكريم، ذهبت إلى السوق، واشترت لكل منهم طاقية عمانية، تشبه الطاقية التي خاطتها لي أمي، لكنها أيضًا لا تشبهها، يفرح الأطفال بالطاقيات، تعلمهم دلال، أن هناك بلدًا اسمه عُمان، ستعود له يومًا بعد أن تُعلِم كل أطفال زنجبار، اللغة العربية والقرآن الكريم، تشير لهم نحو البحر، تقول لهم إنها من هناك، من وراء البحر، من الجبل الذي لا يظهر، وإنهم أيضًا ينتمون إلى هناك، يعوج الأطفال طاقياتهم، ثم يتسابقون من يصل إلى عُمان أولاً.

بعد عام واحد من وصولنا إلى هذه الأرض، وصلتني رسالة من أحمد، والد دلال، يسأل فيها عن الحال والأحوال، وعن دلال وسعيد، وعني، يخبرني فيها والد زوجتي، أنه بكل أسف، وكل حزن يرسل بهذه الرسالة، كي يعلمني بوفاة والدي عبيد، وأنه قُتل برصاصة من رفاقه في الجبل، لم يشرح أحمد أكثر من ذلك في رسالته التي لا تزيد على نصف صفحة، وصلتني بعد أن قضت ثلاثة شهور في الطريق حتى تصل إلي حيث أنا، أرسلت بعدها رسائل عدة من خلال الربان إلى أمي، رسالة تلو الأخرى، قلت لها إن سعيد ينطق اسم زعفرانة بشكل أفضل كل مرة، وفي كل مرة لا يعود الربان بالرد، لكنه يقول إنه أوصل الرسالة إلى من يثق أنه سيوصلها إلى أمي.

مضت سبع سنوات على وصولنا إلى زنجبار، لم يحدث أن حملت دلال خلالها، حتى أنها لم يعد يهمها إن صار الحمل أم لم يصر، اكتفت بسعيد ابنًا، وبباقي الأطفال في زنجبار، شبه أبناء لها، تعَلُق سعيد بها كأم أسعدها، وعندما أشارت السلطات المحلية بضرورة استخراج شهادات ميلاد لجميع السكان، استخرجت شهادة ميلاد لسعيد، كان اسم الأم دلال، واسم الأب صالح ابن عبيد العماني، وهكذا لم يعد أحد يستطيع أن يُعَير دلال بعدم الإنجاب، لكنني اشتقت لنفسي طفلاً من صلبي، وقد يحمل اسم أمي أو اسم أبي، اشتقت أن أحمل طفلي حين يولد، وأردت أن أرفع الأذان الداعي إلى الصلاة، في أُذن وليدي، لكن دلال، لم تهتم ولم تبالِ بما أفكر فيه.

فاتحت جاري في أمر الزواج من امرأة أُخرى، كان جاري هذا ينتظر بشغف أن أفاتحه في هذا الشأن، استفاض في امتداح قراري هذا، رغم أنني لم أكن قد اتخذت قرارًا، كنت أريد أن أستشير أحدًا في هذا الأمر فقط، فرح جاري كثيراً، بحديث الزواج هذا، اقترح أن أتزوج من أخته الصغرى، لا يزيد عمرها عن السابعة عشر، جميلة كما قال، سوف تنجب لي الكثير من الأولاد مثل أمها التي أنجبت ثلاثة عشر طفلاً، سيكونون أطفالاً أذكياء، وستعلمهم دلال اللغة العربية، وحفظ القرآن، فدلال الطيبة لن ترفض زواجك من أُخرى، قال جاري.

كان الجار مخطئًا في تصوره، فقد اشتعلت دلال غيظًا وغضبًا عندما فتحت أمامها أمر رغبتي في الزواج الثاني، من أجل الولد، لا من أجل الرغبة في امرأة أُخرى، جاءت دلال على أمر وصية والدتها شامة لي، برعايتها وحفظها، وإن أمر زواجي هذا ليس به حفظ، أو رعاية لها أو لكرامتها كامرأة، قالت إن سعيد هو ابننا، وعليّ أن أكتفي به ابنًا، فلا أنتظر أبناء آخرين، عليّ أن أرضى بقسمة الله لي، ولا أفكر بشكل آخر، أخرجت الأولاد من الفصل الدراسي ذلك اليوم، وأغلقت المدرسة، وظلت تكرر إن وصية والدتها، ووالدي عبيد، ألا أجرح مشاعرها الأُنثوية بزوجة أُخرى تدخل البيت.

يسمع سعيد البالغ من العمر تسع سنوات، يسمع، ويرى غضب دلال من فكرة زواجي، جلس بجانبي يسأل في براءة:

- ألا يكفي أنني ابنك يا أبي؟

وجهت وجهي نحو سعيد، الذي سيخرج من الطفولة إلى مرحلة الشباب قريبًا، تنحنحت وقصصت عليه قصة زعفرانة، وعبيد وأبنائهم الثلاثة، قصة لم يكن سعيد قد سمعها مني، أو من دلال، ليست حكاية كحكايات قبل النوم التي تحكيها له دلال، لكنها حكاية أخرى، حدثته عن شهلا، وذيب والطفل الذي بلغ الفطام، فجاء به خاله إلى زنجبار، طلبًا للأمن والأمان، يفتح سعيد فاه، يستمع، ويحاول ألا يصدق ما أرمي إليه، لم يسأل سؤالاً واحدًا، وأنا أحكي قصة زعفرانة، الأم التي تبني وتعطي، ثم إنها تجد أبناءها يغادرون وهي تبقى، لم يسأل سعيد الطفل ذو التاسعة، عن قرابة ذيب لزعفرانة وعبيد، لكنني أخبرته أن ذيب هذا هو أخ لدلال، أمه دلال، لم يسأل عن شيء آخر لكني رأيت دموعًا تسقط من عيونه البريئة، ثم إنه ألقى نفسه على صدري، وبكى كثيراً، كثيراً جدًّا، ثم نام، وهو على صدري، ولم يعد يرفض فكرة زواجي من أخرى.

لم تهدأ ثورة الغضب عند دلال حين الحديث في نفس الأمر بعد أيام من اليوم الأول، لم تهدأ بعد عشرة أيام، ولم تهدأ بعد شهر من حديثنا الأول في هذا الشأن، فما كان مني إلا أن أعود إلى جاري الذي أصبح صهري فيما بعد، وأن أخبره بأنني قررت الزواج من أخته الصغرى، وأنني سوف أشيد لها بيتًا آخر، بيتًا يكفي لعائلة صغيرة، به مكان خاص للأولاد، سيكون البيت الجديد قريبًا من بيتي هذا، حتى لا تختلف الزوجتان على أمر من أمور الحياة، وأنني سأكون عادلاً بتقسيم أيام الأسبوع بين الزوجتين، فلا أظلم

أم سعيد بزواجي الآخر من الفتاة الزنجبارية ذات السبعة عشر عامًا.

تسمع دلال حديثي بالسواحلية مع الآخرين، يزداد غضبها وحدة ثورتها، لا تستطيع أن تحدد ما الذي أقوله، أو يقوله الجار، ونحن نقف أمام البيت، ثم تصرخ في وجهي طالبة أن أترجم لها ما الذي كنت أقول، فلا أكلف نفسي بالرد عليها، تمسك بصدرها وتتنفس بعمق، وعندما رأت البيت الذي يُشاد قريبًا من بيتها، جاءت تحاول أن تصدني عما عرفت أنه بيت زوجية آخر، بحسب ما اتخذت من قرار، عرفت أني ماضٍ في زواجي من زنجبارية صغيرة السن، لن تستطيع هي أن تفهم كلماتها إذا ما عيَّرتها بلقب العجوز المريضة، أو إذا ما عابت عليها شعراتها البيضاء، فطلبت ألا أزور بيتها هذا إذا ما دخلت على عروس جديدة، فكان لها ما أرادت، فصارت في بيتها مع سعيد، وأنا والعروس الزنجبارية الصغيرة في بيت آخر.

كانت دلال على حق فيما ارتأت في الصغيرة، فالعروس لم تنتظر كثيرًا حتى تطلب مني أن أطلق تلك العجوز التي تدرس القرآن، وأن أكون لها لوحدها، ولأبنائها الذين سوف تنجبهم مني خلال سنوات قليلة، طلبت الزنجبارية مني ألا أكون إلا لها، وما دامت دلال لا تريدني أن أدخل بيتها، فلماذا تظل زوجة لي، وما أزال أرى دلال تلك التي صاحبتني ثلاث ليالٍ على ظهر السفينة، تضع الخرقة المبللة بماء البحر على جبيني الملتهب، لكن دلال ما عادت تسمع صوتي.

أنجبت زوجتي ثلاث بنات تباعًا، لم تقبل أن أطلق اسم زعفرانة على أي من بناتي، ثم هجرت فراشي متحججة بأنني شيخ كبير لا أصلح للفراش، ما عاد لي فراش لا في هذا البيت، ولا ذاك، نسيت شكل دلال التي ما عادت تظهر أمامي إلا، وهي تلبس برقعًا يغطي كامل وجهها، وما عدت أرى زوجتي الزنجبارية، إلا وهي تخرج من البيت بكامل الزينة، متلفعة بالعطر، والبخور الثقيل، ولا ترد حين أناديها، أو أحاول منعها من الخروج، حتى بناتي الثلاث، صرن تابعات لأمهن في الخروج، والسهر الطويل خارج البيت، ما عدت السيد المهاب الذي أردته لنفسي.

كَبُرُ سوق القرية، وكَثُرُت دكاكينه، وصار على يمين دكاني، دكان يبيع نفس بضاعتي بنصف الثمن، وصار على يسار دكاني، دكان يبيع نفس بضاعتي بأقل من نصف الثمن، وصار الجلوس في الدكان موحشًا، ومملاً وقاسيًا، أشار عليّ جاري، وصهري أن أكتب الدكان باسم أخته/ زوجتي، حتى تحوله إلى مستلزمات نسائية تستطيع أن تنافس الآخرين من خلال خبرتها في الزينة، وما تحتاجه النساء من أدوات زينة، وإنه صار لزامًا على من هو في مثل عمري، أن يجلس في البيت، يقرأ آيات القرآن حتى آخر العمر، نعم لقد ثقلت قدماي، وبدأت في العجز عن حمل جسدي، لكنني ما أزال صالحًا، القوي الذي يفتح دكانه في الصباح، وحتى ساعات النهار الأخيرة.

أفشت ابنتي الصغرى سرًّا كتمته عني زوجتي وابنتي، الكبرى، والوسطى، أفشت السر الذي تحرص زوجتي على الاحتفاظ به، فهي تعمل في خمارة في طرف البلدة، هي وبناتي، حفيدات زعفرانة وعبيد، يعملن في الخمارة التي لا يطرقها إلا كل ذو سلوك أعوج، كرِهت الفتاة الصغيرة ما تقوم به أمها وأخواتها، فاشتكت لديّ، وليتها لم تفعل، صرت ذاك الديوث الذي يعلم، ولا يفعل شيئًا، من أجل أن أعود إلى المنزل فأجد لقمة آكلها، وفراشًا أنام عليه، حتى أن الصغيرة التي علقت عليّ أملاً في إنقاذها من مصير رسمته لها والدتها، خاب أملها في والدها الكبير، وصارت لا تحدثني كأختيها، تنظر إليّ كل مساء، وهي خارجة من البيت في كامل زينتها، ولا تعود حتى الصباح.

مرضت دلال بداء لم يعرف له عَراف القرية سببًا، أو علاجًا، صارت جليسة البيت مثلي، وصار سعيد يأخذ دورها في تدريس القرآن، واللغة العربية للأولاد في مدرسة دلال، دعاني سعيد للانتقال إلى بيتي الأول، ولم تمانع دلال، وهي في حالتها الضعيفة تلك، عدت إلى بيتي، والانكسار يملأ روحي، لا أملك إلا الاعتذار لدلال، ولا أملك إلا الاعتذار لسعيد، ولدي الذي لم تخب نظرة والدي له، عندما طلب مني أن أتخذه ولدًا، ليتني أبقيت على دلال، وسعيد ولم أتخذ زوجة أخرى، تدوس على اسم صالح ابن عبيد العماني، حتى وهو حي يُرزق، ليتني يا دلال ما اتخذت غيرك زوجة.

عادت تضمني ودلال حجرة واحدة، ولكن كلًّا منا على سرير مرضه، يتقلب على جانبه طلبًا للراحة، أسمع شخيرها، وتسمع تأوهاتي، وأحيانًا أغني لها أغنية كان البحارة يغنونها على ظهر تلك السفينة، وأسمعها تضحك، على صوتي المتحشرج الذي لا يُحسن الغناء، وأحيانًا أحكي لها قصة خيالية عما صار في الجبل بعد رحيلنا، فتتنهد بصوت مسموع، وأحيانًا تنام قبل أن أكمل لها القصة، حتى ذات يوم جاء سعيد ليسقيها دواء الصباح، فما أفاقت، تاركة إياي دون ونيس في الحجرة الباردة تلك، قام سعيد بدفنها في مقابر المسلمين القريبة من القرية، ومشى في جنازتها خلق كثير، ممن علمتهم اللغة العربية والشريعة، وممن اشترت لهم طاقيات عمانية لرؤوسهم الصغيرة، مشى الخلق في جنازتها، وصلى عليها خلق كثير، لكنهم عادوا إلى شؤونهم اليومية، وأنا بقيت أُكرر الاعتذار لدلال، حتى بعد موتها.

تأكدت زوجتي الثانية أن لا شريك لها، ولبناتها في وراثتي عندما أرحل مثل دلال، لكنها لا تصبر على حال هذه البلاد الذي ما عاد يناسبها هي وبناتها الثلاث كما قالت، لملمت كل أشيائها، وجمعت كل ما لها، ولا أدري كيف صار لها أن تخرج جواز سفر لها وللبنات الثلاث، دون علمي، ودون موافقتي، ثم إنها ترسل مع أخيها خبراً يقول إنها راحلة إلى السودان، وإنها ستعمل هناك، وسوف تكسب عيشها في بلد يتفتح على كل ما هو جديد كما قيل لها، لم تأت البنات ليقبلن يدي قبل السفر، اختفين جميعًا من القرية ذات يوم،

قالت لأخيها إنها ستعود عندما أموت لتبيع البيت والدكان.

تزوج سعيد من فتاة كانت تأتي للدرس عند دلال، كان يراها من بعيد، ويراقب حضورها وانصرافها، وعرف قريتها، وعرف والدها وعشيرتها، حتى إذا غابت عن الدرس بعد أن حفظت جزءين من القرآن، صار يذهب إلى القرية دون سبب يُذكر، فقط، ليطمئن إن الفتاة هناك، وقد يراها من بعيد، تلبس طرحة الرأس الملونة، وتسير وراء والدتها عندما تزور الجارة.

تزوجها سعيد بعد وفاة دلال، وبعد رحيل زوجتي الثانية، وبناتي الثلاث إلى الخرطوم، وربما إلى بلد آخر لا أعرفه، تزوج سعيد تلك المرأة التي لم تتأفف من رعاية شيخ مثلي، تأتي بالطعام إلى فراشي، وتغسل جسدي بالماء الدافئ مرة كل أسبوع قبيل صلاة الجمعة، وتغير ملابسي، ومفرش السرير، ثم تعطر فراشي الجديد بالبخور حتى يملأني ذلك بالسعادة، والإحساس بالحياة التي ضاعت مع ضياع زوجتي وبناتي في أرض الله الواسعة، ولا أستطيع أن أعود بهن بل، ولا حتى البحث عنهن.

كان لسعيد حظ في اختيار الزوجة، فقد أنجبت زوجته ابنة جميلة بعد عامين من زواجهما، طلبت منه أن يسميها زعفرانة، فلم يُمانع ولم تمانع زوجته، ثم جاءه بعد زعفرانة، ولد ذكر، فأطلق عليه اسم صالح، وجاء به لي كي أرفع الأذان في أذنه، فعلت ذلك، وأنا أبكي، ودموعي تبلل لحيتي البيضاء.

كان آخر عهدي بزعفرانة الصغيرة، أنها تلبس الخمار الذي أمر به الإسلام، وهي في الثامنة من عمرها، كانت تتبختر أمامي بخمار يشبه خمار أمها، صارت زعفرانة مُكلَّفة أمام الله، وصار عليها أن تغطي شعرها وجسدها، لأنها تدخل مرحلة تصير فيها امرأة، كانت زعفرانة تتبختر في خمارها أمامي، عندما أغمضت عيني، ورأيت أمي، وأبي، ودلال.

الفصل السادس عشر

ذيب يرسم البداية

منذ اليوم الذي حفرت بيدي قبر أخي التوأم زيد، اليوم الذي اخترت له مكان القبر على ربوة جبلية تطل على القرية، ليرى أمي شامة، وتراه كل يوم، منذ ذلك اليوم وأنا غير ذاتي، حتى لما كنت أراقب شهلا، وهي تقفز بين ندوات نادي الطلبة في القاهرة، وتصادق الكذب من أجل حلم لا تعرفه، لم أكن داخل ذاتي التي أعرفها، وعندما صار لي ولد اسمه سعيد، بدأت الذات تعود لي، لكن شهلا لم تعرف، اسمي ذيب ابن أحمد العماني، وهذه قصتي.

يعلو صوت دلال على صوت أمي شامة، وهي تقول "اكتب لي يا ذيب" بكاؤها كان حارًّا، وصوتها متحشرجًا عند وداعي، وأنا أرص ملابسي في حقيبة جلد قديمة، ومقطعة الجوانب، لكنها تصلح لتكون حقيبة سفري الأولى في سفري الأول، خارج الجبل الذي ما عرفت غيره، وما أحببت مكانًا سواه، تعلقت دلال برقبتي، تستودع الأخ الوحيد، بعد أن كفّنت أخي زيد، ودفنته مع رجالات القرية، تعلقت بي، وهي التي رفضت الزواج لتبقى بالقرب من أمي

الثكلى، ليكون بيتنا بيتًا للنساء، بعد أن صار أبي أحمد من رجالات الجبل، وصار أخي إلى قبره قبل أن يكمل العشرين.

وصلتني أربع رسائل من دلال في الشهور الأولى من وجودنا بالقاهرة، أظن أنها كتبت أكثر من أربع رسائل، لكن تلك الرسائل الأربع التي كان لها الحظ في الوصول لي، كانت أختي لا تكتفي بتوصيل الرسائل إلى الأيد الأمينة التي تهبط بها إلى صلالة، لكنها كانت تهبط بنفسها إلى صلالة، كي تحملها في صندوق بريد أوحد في المدينة، لا تعرف دلال، متى يتم تفريغ الصندوق، ولا من المسؤول عن تفريغ الصندوق، وتوصيل الرسائل إلى المدن الأُخرى، كأنها كانت تكتب لنفسها، لم تكن تنتظر إجابات على رسائلها، كان عليها أن تكتب فقط، فإذا صار، ووصلتني الرسائل فهذا فضل من الله.

لم أكتب لأختي في شهوري الأولى رسالة، ربما لم أكتب لها في عامي الأول في مصر، شُغلت بترتيب مكان قريب من يعرب، وأخته شهلا، شُغلت بما في القاهرة من اتساع يفوق اتساع الجبل، وعندما أشتاق إلى جبل ظفار، أطلب من يعرب أن يصاحبني إلى جبل المقطم، لنمشى على حافة الجبل، نتسابق من يمكن أن يكمل عشرين خطوة على الحافة، وهو ينظر إلى أسفل الجبل، كما كنا نفعل، ونحن صغار في جبال ظفار، أنا وزيد ويعرب.

لم تُفوت شهلا يومًا دون زيارة نادي الطلبة، شعرها الأسود الطويل الذي أسقطت عنه الخمار منذ وصلنا القاهرة، سُمرة

بشرتها المغرية، لمعة في عينها لا تراها في عين أُخرى، من ذكر، أو أنثى، ضحكتها البريئة، وتلفتاتها يمينًا ويسارا، وكأنها دومًا تبحث عن شيء مفقود، صوتها الحاد، والنغمة التي لا تخطئ الأُذن سماعها، ذلك كله جعل من شهلا محط الأنظار في نادي الطلبة، وفي أروقة الجامعة، لا تدرك شهلا كم هي محط للأنظار، ولا تدرك العيون التي تبحث عنها حين تغيب، لا تعلم أن فؤاد سألني إذا كان قلب شهلا مرتبطًا بشخص ما، وإلا فإنه يريد أن يكون ذلك الشخص، كل ما استطعت أن أقول لفؤاد، أننا جئنا إلى القاهرة من أجل تحصيل العلوم فقط، وأننا بلا شك نعود إلى بلادنا دون أن نرتبط بعلاقات عاطفية، هز رأسه، وابتسم.

تطمئنني رسائل دلال على أمي التي ما تزال تلبس عمامة سوداء منذ مقتل زيد، ومنذ أن دفنته على رأس الجبل القريب من القرية، لا تنسى أمي أن تزور قبره كل يوم مع مغيب الشمس، تتبعها دلال، خوفًا عليها، أخبرتني دلال في رسائلها أن زعفرانة لم تحاول أن تمنع أمي من الذهاب إلى قبر زيد، رغم أنها من يرفض زيارة القبور بشكل عام، كم تمنت عليها دلال أن تقنع والدتي شامة بالتوقف عن زيارة القبر، ولم تفعل، ازداد وزن أمي شامة، وصار صعود الجبل إلى مكان القبر مرهقًا وشاقًا، وما تزال تصر على السلام على زيد كل يوم، كما تقول.

تحدثني دلال عن صالح، أخي يعرب وشهلا، الذي يصغر دلال بسبع سنوات، لا تكاد تخلو رسالة من رسائل دلال دون أن

تتحدث عن صالح الذي كان صغير العائلة، كانت دلال أول من عَلَّمَ صالح القراءة والكتابة، وحفظ آيات القرآن الكريم، حين تغيب أمه زعفرانة لساعات اليوم الكامل، وهي تبحث عن عشبة لا تنمو إلا في ظل شجرة برية أخرى، تلك التي لا تخضر إلا بداية الربيع، تنبش زعفرانة الأرض بأصابعها حتى يخرج رأس العشبة التي تريد، تدسها في الخرج المعلق على ظهرها، وتعاود البحث، والنبش في أرض يابسة، حين تغيب لساعات، وهي في بحثها الدائم عن دواء لا أحد يعلمه سواها، توصى دلال بالمرور على صالح خلال النهار، فلا تقصر دلال بالمرور عليه، وتخطف شيئًا من زاد البيت لتتأكد أن صالح أكل، وأن صالح شبعان، وعندما تعود زعفرانة، يكون صالح في خير حال، وقد قرأ مع دلال شيئًا من القرآن، وشيئًا من السنة النبوية، وقد أكل وشرب، وتركت له دلال الفرصة للعب مع أولاد الجيران، وهي تراقبه خوفًا من أن يقع أو يُصاب.

كبرُ صالح، واخشوشن صوته، وبدأ زغب من الشعيرات ينمو مكان الشارب، صار يخجل أن يرفع عينه ليرى دلال، تضحك كثيراً لكنها تود أن ترى تلك العيون اللامعة، كما تصفها، كبرُ صالح، وصار معلمًا مساعدًا لدلال، صارت تعطيه من التعليمات، والإرشادات ليصير معلمًا لأبناء القرية مثلها، من بعيد يتناول صالح اللوح الأسود من دلال، ويخط للأولاد الحروف العربية الثمانية والعشرين، كما تعلمها من دلال، لكنه ما يزال لا يرفع عينه لتقابل عين أختي دلال.

يجمع صالح الأولاد في فصل، والبنات في فصل آخر، حتى إذا انتظم الجميع في أماكنهم، اختار أحدهم ليكون عريفًا مؤقتًا، عريفًا لفصل الأولاد، وعريفة لفصل البنات، وللعريف أو العريفة سلطات على باقي طلاب الفصل، فهو الآمر الناهي، في حال عدم وجود صالح، أو المُعلمة دلال، وقد يطلب من الجميع الوقوف على رجل واحدة لمدة دقيقتين، أو أكثر، وقد يطلب منهم رفع الأيدي إلى الأعلى لخمس دقائق، فإذا اشتكى أحدهم عند صالح بعد ذلك، فإن حجة العريف، أن الفصل كان في حالة فوضى، وأنه باعتباره عريفًا، فإن عليهِ حفظ النظام، ولو بطريقة العقاب حتى يصل المعلم أو المعلمة، يصدق صالح ذلك، أو أنه لا يرى ضيراً في أن يصدق، تنتهي مهمة العريف أو العريفة، عندما يعود صالح، وقد جاءت معه المُعلمة دلال، فهو المعني بالذهاب إلى بيتها، لدعوتها إلى بداية الدرس، ولا يفعل ذلك إلا عندما يكتمل العدد.

تتلهف شهلا لمعرفة أخبار الجبل من رسائل دلال، كلما وصلت رسالة، كانت تخطفها من يدي، وتبدأ في القراءة، تعلق على الرسائل وقصة صالح الذي بدأ يصير رجلاً، بل إنه بدأ يصير معلمًا مثل مُعلمته دلال.

- لا بد أن صالح يعتبر دلال أخته الكبرى، بدلًا مني.

أقرأ رسائل أختي بشكل آخر، أنوي الكتابة لها للرد على حديثها المستفيض حول صالح، وصوته الذي صار خشنًا، ورأسه الذي لا يرتفع عن الأرض، أنوي الكتابة لها، ثم أؤجل الرد إلى اليوم

الآخر، ثم الآخر، وأنتظر من أبي أن يرسل لي شيئًا من المال لأكمل الحياة هنا في القاهرة، لم يصلني من أبي الذي وعد بتزويدي بالمال سوى مبلغ صغير بعد شهور من وصولنا إلى هنا، كان المبلغ كافيًا لإيجار مكان صغير، ونفقات الجامعة في الفصل الدراسي الأول، وعندما توقف أبي عن إرسال ما يكفي، أقرضني يعرب شيئًا من المال حتى نهاية الفصل الثاني، يعرب قد استلم من والده عبيد كيسًا من العملات الذهبية عند وصولنا معه إلى هنا، مد عبيد يده لي بثلاث قطع ذهبية، قال إنها من والدي، وأعلم أنها ليست كذلك، لكنها كانت منقذتي من الفقر الشديد في أيامي الأولى، ولما قل ما في يدي، بحثت عن عمل لا يتعارض مع ساعات الدراسة في الجامعة، ساعدني تخصصي في الزراعة، على إيجاد عمل في فيلا عزت بيك، الذي قدمني له أحد أساتذتي في الجامعة.

في فيلا عزت بيك، الواقعة في حي المعادى، حديقة واسعة، تحوى أشجارًا متنوعة وأنواعًا من الأزهار بأشكال وروائح عجيبة، حثتني تلك الحديقة على البحث في أنواع شجيراتها، فصرت أقضي ساعات في مكتبة كلية الزراعة، حتى تعرفت على كل الأنواع التي أعمل على رعايتها في حديقة عزت بيك، عرفت أسرارها، ومواسم تفتح أزهارها، اختطفت ذات يوم، وردة حمراء من حديقة عزت بيك، قدمتها لشهلا، ثم وجدت وردتي ذابلة على طاولة الصالون في صباح اليوم التالي.

رغم انشغالي بالدراسة، وبعملي في حديقة عزت بيك، لم أترك شهلا تقدم ندوة حول ظفار لوحدها في نادي الطلبة، حرصت على أن أكون بجانبها، ومعنا أخوها يعرب، أنا ابن الوطن الذي أنجبها، وأنا من سوف يعود معها ذات يوم إلى الوطن لنصنع ما نأمل أن نصنعه للوطن، ارتفع صوت شهلا ذلك اليوم في ندوة ظفار، وعلت أصوات في القاعة، تحثنا على عمل المزيد من أجل ظفار، لم أر مثل تلك اللمعة في عين شهلا قبل تلك الليلة، خشيت أن أسرق تلك اللمعة لو فتحت أمر الزواج منها في تلك الأثناء، أجلت الحديث المنحشر في صدري إلى إشعار آخر.

عام كامل من العناية بالأشجار الغريبة في حديقة عزت بيك، مصطفي الابن الأوسط لعزت بيك، مراهق في السابعة عشر من عمره، لكنه شديد الذكاء، وشديد الشغف بالمعرفة، علم أنني من عُمان، فصار ينتظر دخولي إلى الحديقة في موعدى المحدد، مرتان كل أسبوع، ينتظرني مصطفي، لأحكي له حول الجبل في عمان، والحياة هناك، ولماذا جئنا إلى هنا، كان مصطفي تسلية لي في الوقت الذي أقضيه في حديقة منزله، كان كثير السؤال، ليس حول ظفار فقط، لكن حول كل ما يجرى المنطقة من تغيرات، بأشكالها الاجتماعية والسياسية، لم أضع خطًا أحمر للحديث مع مصطفى، أخبرته عن الطائرة التي قتلت أخي زيد، وعن قبره الذي تزوره أمي كل يوم، وزعفرانة التي تصنع الدواء من نباتات جبلية لا أعرفها حتى اليوم، وإنني آمل أن اكتشف نباتات الجبل في ظفار عندما أعود، حتى جاء مصطفي ذات يوم بنسخة من كتاب رأس

المال، وطلب مني أن أشرح له بعض المقاطع التي لم يفهمها، ففعلت.

علم عزت بيك بحديثي المتواصل مع ابنه مصطفي، ووجد نسخة الكتاب مخبأة بين كتبه المدرسية، تعرف على الخطوط الحمراء تحت بعض الجمل، تلك التي خططتها بقلمي، وأنا أشرح لابنه ماذا يقول كارل ماركس، غضب السيد عزت بيك من دوري في إرساء المعاني والأفكار الماركسية في رأس الولد مصطفى، غضب مني السيد وعاتبني بشدة حول دور هو ليس دوري، ومجال ليس مجالي، وعمل ليس عملي، لكنه كان كريمًا في نقدي الأجرة، وزيادة، لما قمت به من عمل جيد في رعاية الأشجار، وأما رعاية أفكار أبنائه، فقد كان عليّ أن أتركها لأسرته، دون تدخل مني، عند خروجي الأخير من منزل عزت بيك، مررت على كل الأشجار التي أحببتها، لمست أوراقها، ونظرت إلى الدور الأعلى لأرى مصطفي، يطل من نافذته، وهو يلوح لي حزينًا على فراقي لحديقة منزله، وحديقة أفكاره.

لم يكن صعبًا أن أجد عملاً إضافيًّا آخر، بعد الخبرة التي اكتسبتها من العمل في حديقة عزت بيك، والساعات الطويلة التي قضيتها في مكتبة الكلية، أقرأ ما لا تضمه المناهج الدراسية في الفصول الجامعية، فكان لي أكثر من عمل في أكثر من مشتل داخل القاهرة، كل مشتل يحتاج مني زيارتين في الأسبوع، قسمت وقتي على ثلاثة مشاتل في مناطق مختلفة في القاهرة، كان عملي هذا يدر عليّ قدرًا كافيًا من المال، حتى أُسدد مصاريف الجامعة،

وأرد ليعرب ما استلفته منه في بادئ الأمر، وما يكفي أن أدعو يعرب، ومنى وعددًا من الرفاق، على الفيلم السينمائي الجديد للسيدة فاتن حمامة، لنعود في بشاشة لم ينقصها إلا تأخر شهلا، التي اعتذرت عن السينما بحجة مراجعة الدروس مع منى، ابتلعت حنقي، وفضلت الصمت.

كان يومًا حزينًا حين أخبرتني دلال، بأن طائرة عدوانية، أسقطت ما في جعبتها من شر على الجبل الذي دفنت على قمته أخي زيد، أخبرتني دلال، أن الصخور قد تساقطت كالسيل من ذاك الجبل، وأن جزءًا من الجبل قد انهار بالفعل، وأن الطريق إلى ذلك السفح الذي أعرفه لم يعد متاحًا، ولا قبر أخي صار معروفًا، وأنها - دلال - التي أرادت لأمي دومًا أن تتوقف عن شد الرحال كل يوم إلى قبر زيد، أنها هي الآن أكثر حزنًا، لأن أمي، ما عادت تعرف أين توجه نظرها، وهي تكلم زيد عن اشتياقها له، ولتوأمه، أنا، كان يومًا حزينًا أن أعرف أن أخي لم يعد له مكان معلوم لقراءة الفاتحة، وأن أمي عادت إلى نقطة أولى في حزنها على زيد.

قرأت شهلا رسالة دلال الأخيرة، حزنت كما حزنت، حاولت الترفيه عني بأن عودتنا ستكون قريبًا، وأننا سوف نعوض أهلنا عن كل هذا العناء الذي صار في غيابنا، صنعت لي شهلا كوبًا من الشاي في ذلك اليوم، على غير عادتها، وهي التي تؤكد دومًا أن لا فرق بين رجل وامرأة، وأن من يحتاج الشاي، أو يحتاج أن يأكل، فليصنع لنفسه ما يشاء من أكل أو شرب، وأما يوم قرأت رسالة

دلال الأخيرة، صنعت ثلاثة أكواب من الشاي، وضعت أوراق النعناع في الأكواب الصغيرة، تركت الأكواب مغطاة حتى يختمر الشاي مع النعناع، ويصير الطعم أحلى، جاءت بالأكواب، ومعها قطع من كعك صنعته هي برفقة منى، وزميلات أُخريات في سكن الطالبات، وضعت شهلا ذات العين اللامعة الصينية أمامنا، وفتحت المذياع الذي سيطل منه صوت السيدة أم كلثوم في أغنية خميسية جديدة، وكانت أغنية "الأطلال" تلك الليلة، ورغم أنني رأيت عينها تدمع مع الصوت الشادي، جرؤت على طلب يدها من يعرب، فوافق، ووافقت على الفور.

وددت لو أني كتبت لأختي دلال عن يوم عرسنا، كل ما كتبته لها، أنه سيكون اليوم زواجي من شهلا، سلمت رسالتي المختصرة إلى زميل يسافر إلى الكويت، وهناك سوف يسلمها إلى يد أمينة تصل بها إلى دلال، أخبرتني دلال لاحقًا أنه لم تصلها خلال سنوات غيابي سوى رسالة واحدة، تعيد قراءتها كلما أوت إلى فراشها ليلاً، وددت لو أن دلال وأمي شامة وخالتي زعفرانة، وصالح الذي نسميه صالح الصغير، وددت لو أنهم حولنا تلك الليلة في مقهى خان الخليلي، مع نغمات الرجل العجوز على آلة العود المشروخ التي يحتضنها، لم تكن النغمات إلا رنينًا لما نحمله من فرح، ونشوة حقيقية، دارت أكواب من شراب سكري صنعه لنا النادل خصيصًا، وكعكات من صنع منى دارت على كل من تواجد تلك الليلة في المقهى.

لم أنس أن أدعو مصطفى لحفل عرسي، فرح جدًّا عندما رآني أمام مدرسته عند وقت الخروج، فرح بخبر زواجي، حضر إلى مقهى خان الخليلي، وأحضر معه هدية زواجي، غصن من شجرة أحببتها في حديقة منزله، وعدته أن آخذها معي إلى الجبل الذي حدثته عنه كثيراً، ووعد أن يزورني هناك، عندما يصير قراره بيده، رقصنا كثيراً تلك الليلة، صفقنا كثيراً لصاحب العود، ورددنا معه أغنيات أُم كلثوم و**عبد الحليم حافظ** و**وردة الجزائرية**، كل الأغنيات تعرفها شهلا، تحفظها عن ظهر قلب، تكرر كلماتها مع صاحب العود، وهي تهز رأسها فتتحرك خصلات شعرها القصير، القصير جدًّا، ذهبت الخصلات الطويلة التي أحببتها ذات يوم، فلم أسائلها عما تفعل، ولم أعلق على قص تلك الخصلات السوداء الطويلة التي أحببت، تغني في دلال في ليلة عرسها بكل اللهجات العربية، وكل الألحان الراقصة، وتلك الهادئة، ولما غنى لها يعرب أغنية عمانية، احتضنته بشدة، وشوشت في أذنه أنها تبارك زواجه بمنى، وأنها تود أن تكون هنا وقت عرسهما أيضًا، وأن يكون صاحب العود ذاته هو من يغني في عرس أخيها يعرب.

الثوب الأبيض الذي استعارته شهلا للعرس من قريبة صديقتها منى، كان واسعًا، وطويلاً، أكمامه المنسدلة، والشفافة تظهر لون جلد شهلا الأسمر الباهي، وفتحة الصدر تبرز جمال ما تحمل من حنان وصدق، عندما ضمتنا غرفة واحدة في شقتي المتواضعة، أخبرتني شهلا، وهي بعد في ثوبها الأبيض أنها رأت زعفرانة تغني مع يعرب، وأنها اقتربت منها، وقبلت جبينها، وأنها تشم رائحة

بخور اللبان العماني هنا في شقتنا الصغيرة، تشم رائحة زعفرانة تحيط بها منذ كنا في مقهى خان الخليلي، أعلم صدق زوجتي، وأعلم من هي زعفرانة، فتركت لها المجال تفتح دفتر مذكراتها لتكتب كلمات تدور في رأسها، عندما سقطت وردة جافة من صفحات الكتاب، أعادتها بحرص، وأغلقت الدفتر، ثم نامت، وهي بعد في ثوبها الأبيض.

الغصن الأخضر الذي جاء به مصطفي هدية لعرسي، ظل متمسكًا باللون الأخضر طوال الأيام التي تلت العرس، والإعداد للسفر إلى بلادنا، صنعت له تربة صغيرة غرسته بها، وحملته معي كما حملت حقيبة الجلد القديمة، دسست بها التربة، والغصن الأخضر، وكل رسائل دلال، استغنيت عن كل الكتب التي كنت أقرأ ليل نهار، فالطريق الطويل سوف يحتم علينا أن نخفف الأحمال التي معنا، اعترف لي يعرب بزواجه سرًّا من منى، وأنه سوف يعلن هذا الزواج بعد الحصول على شهادة التخرج رسميًّا، وإنه لن يعود معنا إلى ظفار، ربما مستقبلاً، ولكن ليس الآن.

وصلت رسالة أخيرة من دلال قبل أن نغادر، مريضة هي أمي شامة، ثقُل وزنها، وتعجز ركبتاها عن الحراك أغلب الوقت، تساعدها قوارير زعفرانة في الوقوف بعض الوقت، ثم تسقط فجأة إذا اعتمدت على قوة داخلية صارت خواء بعد موت زيد مرتين، تسألني دلال إذا كان لها مع شامة وصالح أن تأتي إلى القاهرة لعلاج أمي، تستفيض في مدح رجولة صالح الذي ما عاد صغيراً، وفي تحمله المسؤولية، قادر هو أن يأتي بنا إلى القاهرة، كما أنه

لديها من المال ما يكفي لرحلة علاجية مثل هذه، كما قالت، دسست رسالتها في الحقيبة كما سابقتها، وغادرت القاهرة مع شهلا، وفي أحشائها نطفة مني سوف أسميه سعيد.

شاق هو الطريق كما كنا نعرف، من عدن إلى المهرة، ثم إلى ظفار، الرجل الأمين الذي صاحبنا كدليل للطريق، قام بهذه المهمة عشرات المرات، من الجبل إلى عدن ومن عدن إلى الجبل الظفاري، كان يعرف أين نجد بئر ماء صالح للشرب، وما هي الثمار البرية الصالحة للأكل، يحسن اصطياد الأرانب، لنأكل من الأرنب الواحد يومين كاملين، ما وجدت من شهلا حرصًا على أي من أشيائها سوى حرصها على كتابها الأبيض، والوردة الجافة التي تسكن بين صفحاته، تمكنت شهلا من الحفاظ على كتابها، ووردته حتى التقينا والدى أحمد عند بداية الجبل، احتضنني أبي بشدة، ونظر بغرابة إلى شهلا نظرة تساؤل، خاصة بغياب أخيها يعرب.

- هذه شهلا زوجتي يا أبي، وهي حامل في شهرها الرابع.

لا أعرف تحديدًا، إذا كان أبي قد فرح لهذا الخبر أم لا، لكنه بارك لي ولشهلا هذا الزواج والطفل القادم، سيكون حفيدًا له، ولعبيد، كما سيكون حفيدًا لشامة، وزعفرانة في ذات الوقت، سيكون طفلاً سعيدًا بعائلته بإذن الله.

قرر أبي أن تكون شهلا في رعاية امرأة عاشت في الجبل منذ عام، فاطمة التي سقطت عائلتها أمامها، فلم تجد سبيلاً إلا أن تكون جبلية، لا تكتفي بصناعة الخبز، وخياطة الأصواف لمن

يحمل سلاحًا، ولكن تحمل السلاح بنفسها، وتتعلم التصويب حتى أصبحت المعلمة الأولى في الجبل بين الرجال والنساء، أقامت شهلا في كهف صغير، يضم فاطمة وهي فقط، كهف مظلم إلا من شمعات تصنعها امرأة أُخرى في القرية، سقف الكهف منخفض، علينا أن ننحني لدخوله وكأننا ننحني احترامًا لسيدتين من سيدات الجبل، فاطمة وشهلا، ذكرني هذا بالممر الضيق الذي تدخل منه داخل الهرم الأكبر في منطقة الجيزة بمصر، هرم خوفو، على الزائر أن ينحني احترامًا لملك فرعوني مات منذ آلاف السنين، لكن احترامه إلزامي على كل من يزور قبره في قلب الهرم، أو هكذا تقول الحكاية السياحية التي تحكي لكل زوار هذا المكان من السياح من أقطار العالم كافة، فهل سيبقى من أثر من فاطمة وشهلا يدعو السياح للدخول إلى هذا الكهف، والانحناء احترامًا لسكانه القدامى، بعد مائة عام من اليوم؟ هل سيكون الكهف قبرًا يزوره الباحث والسائح بعد سنوات من الآن؟

قوية البنية هي فاطمة، قوية الساعد، حادة النظر، سريعة البديهة، تتخذ قراراتها الصائبة في أغلب الأحيان في ساعة الحدث، لا تنتظر المشورة من رجالات الجبل، لذا صارت رفيقة الرجال والنساء، وعمِد الرجال إلى مشورتها، ولم يكن هذا ما أعرفه عن الجبل الذي نشأت بين صخوره، وحصياته، ونباتاته الدائمة، والموسمية، لم يكن الرجل إلا رجلاً تحتذي نساؤه بما يقول، لم تستشر فاطمة أحدًا لتكون أيقونة الجبل، لكنها صارت الأيقونة، ثم صارت شهلا صورة لتلك الأيقونة الجبلية.

عمدت فاطمة - منذ أن اتخذت الكهف الضيق منزلاً لها - إلى تكسير، وتشذيب صخوره الحادة على المدخل، كانت تقضى ساعات في حك الصخور بالصخور، تتنوع الصخور هنا في صلابتها وقسوتها، هناك الأقوى بينها، وهذا ما اتخذته فاطمة لحفر نقوش داخل الكهف، عرفت من شهلا لاحقًا أن فاطمة كتبت أسماء أولادها الثلاثة، واسم زوجها على جدار الكهف، وأنها ترسم أطفالاً يلعبون عندما تكون وحيدة لتشعر بوجودهم، وتسمع أصواتهم، عمدت فاطمة إلى صناعة مدخل مريح إلى مكانها الآمن مع عائلة افتراضية، رسوم، وأسماء تنام بينهم فتسمع ضحكاتهم، وتصحو على صوت آخر من صرخاتهم، تلك الصرخات التي اختفت بعدها الأجساد الصغيرة إلى الأبد، لم يكن ما نسميه بابًا للكهف قاسيًا في السماح بالدخول، لم تكن جوانبه تجرح السواعد عند محاولة دخول الكهف النسائي، بينما كان الغار الذي أعيش فيه شديد الوعورة، أشعر بجرح في كتفي في كل مرة أدخل فيها إلى الغار، أو أخرج منه.

وضعت شهلا طفلي سعيد، جاء الخبر مع والدي أحمد، وكما لم أعرف إحساس أبي بالفرح أم سواه عندما أعلمته بزواجي من شهلا، وأنها حامل بحفيد سيحمل اسم سعيد، كذلك لم أعرف ماذا كان من أبي لما جاء مرسال من الكهف النسائي أرسلته فاطمة، وجاء المرسال مبشرًا بوصول سعيد، أعلمت أبي أنني سوف أُخبر عبيد بوصول حفيده، وسوف أطلب منه أن يكون أول من يرفع الأذان في أذن الطفل، نظر لي أبي، ولم يتكلم، لكنه لم

يكن سعيدًا بهذا، فقط أمرني ألا أقترب من عبيد قدر المستطاع، لم أفهم كلمات أبي، لكنني لست ذاك الذي يرفض تعليماته.

استعنت بدليل آخر من الجبل، دون أن يدرى والدي أحمد، أو عبيد والد شهلا، كنت اشتقت لأمي شامة كثيراً، هبطت من أعلى الجبل إلى القرية التي نشأت فيها حتى اليوم الذي دفنت فيه أخي، ورحلت إلى القاهرة، جاء بي الدليل من طريق لا أعرفها، تحسبًا لطائرة عدوانية، أو قذيفة لم نحسب حسابها، أو حتى طلقات البارود من رفاق الجبل، إذا لم يتعرفوا على صاحبهم، فسيكون الموت سبيله لا محالة.

كانت دلال ترعى الأغنام في مرعى قريب من القرية، طلبتُ من الدليل أن نتوقف هنا حتى ساعات المغرب، خرجتُ لدلال من بين صخور الوادي الذي سقطت فيه عنزة ذات يوم، فشج رأسها، وبُقر بطنها، وماتت في الحال، خرجتُ لدلال وهي تجلس على إحدى الصخور تمسك بورقة قديمة، وقلم، ربما كانت تكتب لي رسالة سوف ترسلها إلى القاهرة، خرجتُ لدلال، فلم تتعرف عليّ بادئ الأمر، ثم تعلقت برقبتي كما فعلت يوم وداعي، وأنا أسافر إلى مصر، بكت دلال كثيراً، وأبكتني، ظننت أنها لن تترك رقبتي هذا اليوم، بكت حتى بللت لحيتي بدموعها مختلطة بدموعي، عاتبتني على قلة رسائلي إليها، كذبت أمام بكاء دلال، أخبرتها أنني كتبت الكثير من الرسائل، ولكن المراسيل سامحهم الله لا يعملون على توصيل رسائلي كما أفترض، صدقتني دلال، أو أنها حاولت أن تصدق، ثم ذهبت لتأتي بأمي شامة.

وصلت شامة تتمخطر في مشيتها يمينًا وشمالاً، وكان اللقاء لا يقل عن لقاء دلال في الدموع والشهقات، أخبرت أمي أن زوجتي شهلا جاءت بولد اسمه سعيد، وأننا نعيش في جبل يؤوينا من الماء إذا جاء السيل العرم، وأننا سنعود عندما تنتهي الطائرات من مهامها على الجبل.

كررت زيارتي إلى القرية مرتين، أو ثلاث مرات، زياراتي لدلال بالتحديد، ربما تكفيراً عن عدم كتابتي لها طوال فترة وجودي بالقاهرة، كررت زيارتي، لأجدها جالسة على نفس الصخرة، تتلفت حولها، تبحث عن خروجي أمامها لتتعلق بصدري كل مرة، كانت تنسج طاقية مزركشة، تشبه تلك التي يلبسها عبيد، وعليها نقش باسمه، لكن طاقية دلال كُتب عليها اسم صالح، قالت إن صالح كثيراً ما يشعر بالبرد، فجسده نحيف رغم أنها تهتم بأكله وشربه تمامًا مثل زعفرانة، وأن هذا الطاقية سوف تدفئ رأسه، وسوف يستطيع أن يخرج لرعاية أغنامه في الشتاء إذا ارتدى هذه الطاقية، خفضت دلال رأسها، وهي تقول في شبه خجل، وشبه شكوى:

- لست بالنسبة لصالح سوى أُخته الكبرى.

عرفت ما ترمي إليه دلال، رأيت نفسي، وشهلا ترمي بالوردة التي أهديتها إياها، لتذبل على طاولة الصالون، بينما وردة أخرى، ما تزال تعيش بين صفحات الدفتر الأبيض، رأيت نفسي في أختي دلال، وهي تحاول الاقتراب من صالح الذي يصغرها بسبع سنوات، وهي تعلم أنه لا يراها إلا كأخت كبرى، رأيت نفسي في

القاهرة، أبحث عن شهلا، وشهلا تجوب القاهرة القديمة، ضاحكة مستبشرة بمن لا يعرف، من تكون شهلا، كما أعرفها، ضممت أختي، وأضمرت في نفسي شيئًا لأجلها.

أعلم أن لا مكان لسعيد هنا بعد أن يبَلغ الفطام، أعلم أن عبيد قد رسم خطته، واتفق مع فاطمة أن تبلغه عندما يكمل سعيد عامه الثاني، ويتم فطامه، وعندما اقترب الموعد، كنت قد تحدثت مع عبيد، أعلنت موافقتي على أن يذهب سعيد مع خاله صالح إلى مكان بعيد، على أن تكون دلال برفقته كزوجة، وأم بديلة لسعيد، اقتربت ذلك اليوم من أمي شامة، ناشدتها أن ترسل دلال مع صالح، والطفل سعيد، فأنا لن أكون مطمئنًا على أن يكون طفلي في عهدة صالح فقط، هو رجل لا يعرف كيف يعتني بالطفل، لكن دلال ستكون أمينة في العناية بابن أخيها، راقت الفكرة لأمي، التي كانت ترى أن فرصة الزواج قد ضاعت من يد دلال، وهي التي تصر على مرافقتها، راقت الفكرة لأمي وهي تظن أن سفر دلال مع سعيد وصالح، لن يطول، وأنهم جميعًا سوف يعودون إليها قريبًا، ربما مع أطفال آخرين لدلال، وصالح، في الليلة الموعودة، كانت أمي قد أعدت صرة من ملابس دلال دون أن تُخبرها، سحبت دلال من يدها، وركضت وراء صالح الذي يركب الحمار، ويوشك أن يختفي مع ضباب الفجر، أمرته بالتوقف، ثم دفعت دلال نحوه لتكون برفقته:

- خذ دلال معك يا صالح، تزوجها، ولتكن زوجة لك، وأمًا لطفلك سعيد.

رحلت دلال مع صالح وسعيد، لم أتلق منها رسالة بعد تلك الليلة، المكان الذي أسكنه في الجبل، أبعد، وأقسى من أن تصله الرسائل، كثيراً ما رأيتها في المنام، سعيدة بزواجها من صالح، ولا أدري إن كان صالح سعيدًا بها، اختفت دلال من أمامي منذ ذلك اليوم، انتظرتها أمي لعام كامل، وزيادة، لتعود، أو ترسل لها خبراً يهدئ بالها، لم تصل دلال، ولم تصل أخبارها، ماتت شامة، وهي تنتظر دلال، وتنظر نحو قبر ولدها الشهيد زيد.

أسقطت السماء التي طالما أمطرتنا في الجبل بالقذائف، والرصاص الأسود، أسقطت ذلك اليوم آلاف الوريقات، على الجبل، وعلى القرى المنتشرة على سفح الجبل، آلافًا من الوريقات التي كُتب عليها بالخط المطبوع، الخط الواضح:

- إنه عهد جديد، عفا الله عما سلف.

كنت قد مللت النوم على الصخور، ومللت أن تكون زوجتي في كهف غير الذي أسكن فيه، في ظلال الكهف، استزرعت الغصن الذي أهداني إياه مصطفي في يوم عرسي، جمعت حوله تربة لزجة وروث الماعز، كان الغصن ضعيفًا لا يقوى على الصمود، غيرت من مكان الاستزراع ثلاث مرات أو يزيد، بحثت له عن مكان يلتقط أشعة الشمس كي لا تقتلعه الرياح الخريفية العاصفة، في المرة الرابعة، بدأ العود في الثبات على الأرض، بدأت وريقات خضراء جديدة تظهر على العود، في ذلك النهار، تفتحت على العود زهرة بنفجسية صغيرة، أخبرتني الزهرة أن عالماً من الزهور يمكن أن

ينبت في الجبل، وأن عالماً من الزهور في انتظاري، خرجت من الغار الجبلي الذي أسميه بيتي، لأجد آلاف الوريقات تتساقط من السماء نحونا، سمعت من يقفز فرحًا، ورأيت من يشيح بوجهه غير مصدق، وهناك من يعيد قراءة الوريقة، وكأنه يريد أن يقرأ شيئًا آخر، ويفسر ما بين سطورها.

صار همي الوصول إلى شهلا، زوجتي التي تسكن كهفًا آخر، حثثت الخطى بين الصخور لأصل إلى مكانها، لم أعبأ بصوت البوق المحذر من عاصفة قادمة، سأصل إلى زوجتي قبل أن تصل العاصفة، وقبل أن يبدأ السيل، حثثت الخطى، وقد انفتحت السماء بماء منهمر، وكأنها تصب حممًا مائية على الجبل، ومن يسكنه، اقتربت من كهف زوجتي، رأيت الكهف مفتوحًا، لا تسده الأكياس الرملية كما هي الخطة المعدة للاستعداد لمواجهة السيل، سمعت طلق رصاص من داخل الكهف، طلقة ثم طلقة أخرى، صوت انهيار، وتراب كثيف، دخلت مقدمة الكهف، لأرى فاطمة تلتصق بجدار الكهف، تلتصق بالصور صامتة، والأسماء التي خطتها في هذا المكان، غير عابئة بالغبار المتصاعد الذي يمنع الرؤية، شهلا تصرخ فيها تطلب منها الخروج، وهي ترفض أن تترك أسرتها مرة أُخرى، ألقت على شهلا دفترها الأبيض، والتصقت بالجدار أكثر، وكأنها تريد أن تدخل إلى عالم خطته بيدها، عالم كان عالمها يومًا ما، ثم صنعته على جدار الكهف رسومًا وخطوطًا، أمسكت بيد زوجتي، وأخرجتها بالقوة، قبل أن تسقط قطع الصخور الضخمة لتسد الكهف الذي كان آمنًا، استمر انهيار

التراب والصخور على بقايا فاطمة التي لم يبق لها أثر، ولم يبق أثر لكهف كان هنا، صرخت شهلا:

- كان علينا أن ننقذها حتى لو رفضت.

- انتهت الحرب يا فاطمة، سنرحل إلى مكان آمن.

- أنا وردة!

- أنت فاطمة، وردة صارت تحت التراب منذ اليوم.

بهتت شهلا بما أقول، فتحت عينها كأنها تنظر لشخص ما عرفته يومًا، صمتت عن الكلام، وعن النقاش، فقد ذهب سعيد، وذهب عبيد، وذهبت فاطمة أمام عينها، صمتت، ولم تحاول أن تعيد السؤال، حتى حين أوينا إلى مكان شبه آمن من المطر والسيل، حتى عندما نفخ صاحب البوق، لحنه الذي يعني "زال الخطر" لم تحاول فاطمة/ شهلا أن تقاوم قراراتي، لم تكن هي التي قصت شعرها إلى مستوى الرقبة في القاهرة، كانت ابنة زعفرانة التي أحبت عبيد، حتى بعد أن صارت له ابنة في العراق.

سرقت دفتر شهلا، وهي نائمة، والوردة الجافة بداخله، وضعت رسائل دلال أيضًا مع الدفتر، استعنت بالدليل القديم ليأخذني إلى القرية، لم أذهب إلى حيث دلال على الصخرة في المرعى، ولا حيث أمي التي دُفنت في مكان لا أعرفه، ذهبت من فوري إلى زعفرانة، طرقت بابها ففتحت الباب، وكأنها تنتظر أن تراني، سلمتها كل ما في يدي من أوراق؛ أوراق شهلا، وأوراق دلال،

زعفرانة اختارت الصمت فلا تتكلم، كما أنها لم تتكلم يوم جاءها أبي بطاقية عبيد الملطخة بدمه، لم تتكلم، وهي تمسك بالدفتر الأبيض الذي تعرفه، وتنظر إلي:

- البقاء لله يا خالتي، شهلا ماتت في السيل الذي هجم على الجبل الأسبوع الماضي، هذه وريقات كتبتها بخط يدها، وهذه رسائل دلال حين كنا في القاهرة، إنها لك.

انسحبت سريعًا قبل أن تطيل النظر لي، فأعترف بكذبي عليها، عزمت على الابتعاد عن كل شيء هنا، حتى زعفرانة التي أظنها تعرف كذبي، عزمت على الابتعاد عن الجبل والكهوف، وحتى رائحة اللبان.

سأبتعد مع زوجتي عن الوردة الجافة في كتابها، وعن كل كلمة كُتِبت في ذلك الكتاب، ليذهب الكتاب إلى زعفرانة، ما دامت هي من أعطتها إياه، فليعد إليها الكتاب، حتى وإن لم تصدق خبر موت شهلا، سيخبرها كل من يعود من الجبل أن شهلا ماتت، لتكون شهلا لي وحدي بعد سنين من الانتظار، لن يكون هناك ناد للطلبة، ولا فاطمة، ولا بارود أو بندقية، ستكون زوجتي لي وحدي، ولتعتقد زعفرانة ما تعتقد.

رجعت إلى شهلا التي اكتشفت اختفاء كتابها، فلم تعترض، ولم تناقش، ولم تنظر في عيني لتسأل أين الكتاب، وقد جف في حلقها السؤال "أين سعيد" ولم تحصل مني على جواب. اكتشفت فقدان كتابها الأبيض، والوردة الجافة بداخله، لم تهتم، فلن يعود اسمها

وردة بعد اليوم، وافقت دون عناء على خطتي للسفر، ولم تطلب أن تزور والدتها، ولم تسأل إلى أين نسافر، وكأنها تعلم ما قمت به لأبعدها عن زعفرانة، هادئة هي شهلا، كما لم أعرفها يومًا، صامتة، ومستسلمة، ومطيعة، لا تعرف فن الاعتراض الذي عرفته في القاهرة، ولا تريد إلا ما أريد لها أن تكون، هذا ما أردت لزوجتي أن تكون، بعد كل هذا الذي كان منا في السنوات الماضية.

شهور مضت بعد تساقط الأوراق من السماء، وإعلان العهد الجديد، الأوراق تنبئ بأنه قد عفا الله عما سلف، شهور حتى تأكد لي، إن العهد الجديد لن يخلف وعده، ولن يرفع في وجهي وزوجتي فاطمة تهمة العصيان والتمرد، لم تسقط السماء علينا إلا أوراقًا؛ لا قذائف، ولا دخان يأتي من بعيد، حتى الأغنام صارت ترعى على الجبل دون خوف، لم تعد تجري لتختبئ في كهف قريب مع أزيز الطائرات، ودخانها الأسود، شهور كانت كافية ليرحل من كان في الجبل شيئًا فشيئًا، تباعدوا عن بعضهم البعض، فضل كل منهم أن يأخذ اتجاهه بخلاف الرفقاء، تساقطت البنادق من أيديهم، تركوها في الكهوف، وعادوا إلى ديارهم، أو إلى ديار أُخرى، كما سأفعل مع زوجتي.

والدي أحمد، عاد قبل أسابيع إلى القرية، قريته القديمة، لا شامة تنتظره ولا دلال تغسل رجليه بالماء الدافئ، لكنه عاش يرقب أحفاده من بناته الثلاث، لم يعد يلبس حزامًا جلديًّا مرصعًا بالرصاص، لكن عمته السوداء ما تزال فوق رأسه، يحكي لأحفاده أنه كان يرعي الأغنام طوال تلك السنين في جبل ظفار، وأن هذا الجبل غالٍ جدًّا، ولا شيء آخر.

تركت زوجتي في الجبل، في كهف متواضع هو مكان نمكث فيه حتى أُعد العدة للسفر، ستكون الكويت وجهتي، سيكون اسمى زيد، وزوجتي فاطمة، وسوف ننجب شامة صغيرة، وزعفرانة أخرى، وسيكبر الصغار، ولن نحكي لهم من نكون.

تركت زوجتي الصامتة، وعبرت الطريق الوعر دون دليل إلى قريتنا، رأيت بيت زعفرانة مفتوحًا، تصفق الريح بابه يمينًا وشمالاً، قوارير الدواء تتساقط على الأرض، وعلا الغبار رفوفًا متوازية ترتص عليها المخاليط، والأعشاب الجافة، لم يكن يومًا باب زعفرانة مفتوحًا بهذا الشكل، سألت والدي أحمد عما جرى للبيت ولزعفرانة:

- يُحكي أن زعفرانة خرجت من بيتها ذات يوم، وفي يدها دفتر، وبقايا كتاب اصفرت أوراقه، وكم من الأوراق، مشت تحت الريح والمطر، يومًا أو أيامًا، يُحكي أنها وصلت إلى ضريح النبي أيوب، وقفت تصلي هناك، وتحكي حكايات يعرفها أيوب عن صبره، وتعرفها زعفرانة عن ترحالها، وضياع الزوج والأبناء، الضريح الطويل على الجبل من الطرف الآخر من صلالة، جبل يسميه الناس جبل أيوب، وقد وصل إليه النبي أيوب كي يرتاح، فمات مرتاحًا في مكانه.

يُحكي أن زعفرانة جاءت إلى الضريح، باحت بأربعين عامًا من قصة الجبل، رشت على قبر أيوب شيئًا من الماء، فطار من الضريح دخان أزرق، أخذته الريح إلى اليمين، اتجهت زعفرانة إلى اليمين، حيث ذهب

الدخان الأزرق، صارت تحفر الأرض بأصابعها العارية حتى أدمتها، ولم تشعر، نبشت في الصخر حتى خلقت حفرة تشبه القبر، حفرت التراب حتى صارت الحفرة قبرًا في طول البشر، وضعت كل ما جلبته من البيت من أوراق، وكتاب علمها التواصل مع روح الكون، دست ما في يدها في تلك الحفرة، ثم أهالت عليها التراب.

يُحكي أنها نامت فوق ذلك القبر ليلة طويلة، تمددت فوق القبر، وأغمضت عينها، نامت في سكينة لم تعرفها منذ جاء عبيد إلى الذخيرة، ثم رحل بها إلى ظفار، وعندما أشرقت شمس النهار التالي، لم تكن زعفرانة متمددة فوق القبر، ذاك الذي كان يرقبها قال إنه لم ينم، لكنه رأى الدخان الأزرق يخرج من القبر الجديد، قيل أن القبر ابتلعها، فصارت داخله، قيل أن الكتاب استدعاها لتدخل في صفحاته، فدخلت بأمان، وقيل أنها طارت إلى حيث المكان الذي ولدت فيه، والذي جاءت منه يومًا، وقيل أنها عادت صبية، وإنها اليوم في اليمن تتزوج من رجل آخر اسمه عبيد.

تمت بحمد الله

الدوحة

ديسمبر 2023

الروائية: هدى النعيمي

كاتبة قطرية، حاصلة على الدكتوراه في مجال الفيزياء الطبية، وعملت لسنوات داخل المؤسسة الطبية في قطر، من خلال تخصصها العلمي، نشرت العديد من أوراق العمل في دوريات عالمية، وشاركت في العديد من المؤتمرات العالمية كباحثة في مجال التخصص، حاصلة على عضوية عدد من المنظمات الدولية في مجالها، وحصلت على عدد من الشهادات التقديرية، والجوائز العالمية لجهودها ترسيخ علم الفيزياء الطبية في قطر، وحصلت على جائزة الدولة التشجيعية عام 2018.

في المجال الأدبي، بدأت بالنشر مبكرًا خلال المرحلة الجامعية، تركزت كتاباتها الأولى على الخاطرة الأدبية، والقصة القصيرة، ثم كتبت المقال الأدبي، والنقدي في عدد من الصحف القطرية، والعربية الصادرة داخل وخارج الوطن العربي، وحرصت على المشاركة في الحياة الثقافية في العالم العربي كافة، فحضرت وشاركت في عدد كبير من المؤتمرات، والمهرجانات الثقافية على امتداد الوطن العربي.

أصدرت مجموعتها القصصية الأولي (المكحلة) عام 1997 مجموعتها الثانية (أنثى) عام 1998 ثم المجموعة الثالثة (أباطيل) عام 2000، تبعها إصدارها الرابع وهو مجموعة من مقالاتها الأدبية والنقدية (عين ترى) عام 2002، وفي العام 2010 وتزامنا مع احتفالات الدوحة كعاصمة للثقافة العربية، أصدرت مجموعة قصصية (حالة تشبهنا) أتبعتها بعمل مسرحي في أدب الطفل (النبع الذهبي) عام 2012، ثم أصدرت كتاب "قمط" عام 2021 عن دار كتارا في قطر، وهو عبارة عن قصص مجلات الأطفال في مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، صدر لها كتاب "حين يبوح النخيل" وهو سيرة روائية لمسيرتها العلمية والأدبية، عام 2023 عن دار جامعة حمد بن خليفة، ناشطة في العمل الثقافي داخل وخارج قطر، عضو لجنة التحكيم لجائزة الرواية العربية العالمية، والمسماة بالبوكر العربي عام 2014، وعضو لجنة تحكيم لجائزة كتارا للرواية العربية عام 2018.

مفتاح الكلمات

المشموم: نبات عطري، تشتهر زراعته في الخليج العربي.

حوش البيت: فناء البيت.

دزة: هدايا يقدمها العريس إلى عروسه وتخرج إلى بيت العروس باحتفالية.

البخنق: لباس الفتاة قبل زواجها عندما تبدأ عليها علامات البلوغ، لتغطية الشعر وتفاصيل الجسم.

الخشيشة: لعبة للأطفال، تختبئ المجموعة ويبحث من عليه الدور على البقية.

المطوعة: معلمة القرآن الكريم للفتيات.

سورة الواقعة: سورة من القرآن الكريم.

عقال: نسيج أسود دائري الشكل، وهو قطعة من الزي العربي التي يرتديها الرجال على الرأس في الجزيرة العربية.

غترة: قطعة قماش غالبًا ما تكون باللون الأبيض، تلبس على الرأس تحت العقال، وهو قطعة من الزي العربي التي يرتديها الرجال على الرأس في الجزيرة العربية.

السيف: شاطئ البحر.

عام الطبعة: السنة التي حدث فيها حادث غرق سفينة غوص أو صيد.

جزء عم: جزء من القرآن الكريم.

السنة النبوية: كل ما تم نقله عن رسول الإسلام محمد (ﷺ) من قول أو فعل.

جزءا عم وتبارك: جزءان من القرآن الكريم.

أذان الظهر: نداء الصلاة في منتصف النهار.

أذان العصر: نداء الصلاة ما بعد منتصف النهار.

الذكر الحكيم: القرآن الكريم.

المعلقات السبع: أشهر ما كتب العرب من الشعر.

رابعة العدوية: شاعرة عربية اشتهرت بالزهد والورع.

اللبان: نبات يصنع منه البخور في عمان.

لعبة القيس: لعبة للبنات الصغار في منطقة الخليج العربي.

صندوق مبيت: صندوق خشبي مزين بنقوش وقطع نحاسية لتخزين حاجات المرأة.

حق الجيرة: حق الجار.

يوم الهدية: يوم خروج العروس من بيت أهلها إلى بيت عريسها.

الغشوة: غطاء الوجه للنساء في الخليج.

فنر: فانوس الإضاءة الذي يعمل بالكيروسين.

السدو: أحد أنواع النسيج المُطرز التقليدي الذي ينتشر في شبه الجزيرة العربية.

الصباحية: هدية العريس لعروسه في صباح اليوم التالي للعرس.

الحسو: نوع من الحساء المصنوع من حب الرشاد، يقدم للمرأة بعد الولادة.

حبوب الرشاد: نوع من الحبوب.

فاتن حمامة: ممثلة عربية شهيرة في النصف الثاني من القرن العشرين.

أم كلثوم: مطربة عربية شهيرة في النصف الثاني من القرن العشرين.

ليلى مراد: ممثلة عربية شهيرة في النصف الثاني من القرن العشرين.

عبد الحليم حافظ: مطرب عربي شهير في النصف الثاني من القرن العشرين.

وردة الجزائرية: مطربة عربية شهيرة في النصف الثاني من القرن العشرين.

مراجع استفادت منها الرواية

1 - رواية وردة، نصر الله إبراهيم، دار المستقبل العربي، عام 2000، القاهرة.

2- رواية "قصة شعبنا والثورة"، نور غفرم الشحري، بورصة للنشر، والتوزيع، 2022، القاهرة.

3- الإباضية بين الفرق الإسلامية، علي يحيى معمر، مكتبة الظامري للنشر، والتوزيع، 2023، سلطنة عمان.

4- عُمان، الديمقراطية الإسلامية (1500 - 1970)، د. حسين غباش، دار الفارابي، 1999.

5 - حق الحلم.. بحرينيون في ثورة ظفار، باسمة القصاب، دار رياض الريس للكتب والنشر، 2021.

6- ظفار، الصراع السياسي والعسكري في الخليج، د. رياض نجيب الريس، دار الريس للكتب والنشر، 2019.

7- ظفار - الثورة في التاريخ العماني المعاصر، محمد سعيد دريبي العمري، دار رياض الريس للكتب والنشر، 2004.

8- تاريخ عمان، جيمس ريموند ولستد، ترجمة عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، دار الساقي، 2002.

مكتبة نوميديا

أخرجت الكتاب الأبيض الذي يحتوى على الوردة الجافة، بدأت أكتب مذكرات شهلا، منذ حطت أقدامي على هذه الأرض التي أحببتها، وحتى هوى صرح الخيال، مع خصلات شعري الأسود تسقط على أرض غرفتي؛ دون أن أشعر بالحزن أو الحسرة، بدأت بالسلام على زعفرانه، أمي صاحبة الكتاب، والتي أوصتني به خيراً، دون أن تذكر إنه كتاب مذكرات، أو كتاباً للعودة حين تهوي الصروح الكبيرة، بدأت بالسلام على أمي، وكأني أكتب رسالة، تذكرت إنني لم أكتب رسائل إلى أمي منذ أكثر من ستة أشهر، ولا أعرف ان كانت رسائلي التي أبعث بها إلى العاصمة في بلدي، ثم تنتقل باليد، من هذا إلى ذاك، لا أعرف كم رسالة وصلت إلى أمي، بدأت أكتب مذكرات شهلا، لتصير يوماً إلى يد أمي.

ISBN 978-9927-165-31-3

9 789927 165313

الدار المصرية اللبنانية

DAR AL WATAD